c

ذرة السودان

نموذج للأخوة

" ولا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ".

القرآن الكريم، سورة فصلت ، الآية رقم 34

تحت وطأة مياه السيول!

كانت أصوات هدير مياه السيول القادمة من بعيد تتقدم جارفة كل شيء أمامها. وكنا نحن في المزرعة لا نستطيع فعل أي شيء سوى تتبع تقدم تلك الأمواج مياه الهادرة. اشتد ارتفاع منسوب المياه التي ارتبطت ايضا مع مياه الوادي الجاري من أمام المزرعة. واقتربت مياه السيول من المزرعة و وصلت الى مدخلها في فترة وجيزة جارفة كل شيء أمامها.
كان البيت الذي نسكن فيه يقع وسط المزرعة، و يبتعد عن المدخل الرئيسي للمزرعة على الأقل ب150 متر و على مرتفع حوالي 10 أمتار بسبب الانحدار. ورغم أني كنت يامل أن لا ترتفع المياه حتى البيت إلا أني لم أكن متأكدا من ذلك. وبشكل لا إرادي كنت أحاول أن أعانق الأطفال والحصول على وضع مناسب لأجل إيجاد حل . كنت أخطط عن كيفية إنقاذ الجميع سباحة عندما ترتفع المياه.
ولم يمض وقت طويل حتى بدأت المياه تغمر أسفل البيت. عندها تيقنت أن الخطر وشيك وأخذت احتياطاتي. كانت زوجتي والأطفال في غاية الهدوء وكأنهم لم يدركوا هذا الحدث. أما أنا فكنت مضطربا، وكنت اجهد فكري لأجل إنقاذهم وإنقاذ نفسي من هذا الخطر الحقيقي الذي اقترب منا. كانت مياه السيول قد بدات تلاطم قواعد البيت و تسربت بسرعة الى داخله فأصبح البيت الكبير وكأنه مجسم صغير من الورق، فأصبحنا جميعا تحت خطر المياه. كنت أحاول الخلاص بكل ما أوتيت من قوة، غير أني لم أكن قادرا على تحديد وجهتي تحت الماء في الظلام الدامس. لكني أذكر أني حاولت أن أسبح، باذلا جهدا كبيرا لكي أنجو بنفسي. و هكذا وبعد مدة من السباحة المستمرة رأيت أمامي شخصين أو ثلاثة قادرين على المرور عبر هالة من نور دائرية تضيء وسط زرقة السماء. بدأت أسبح بسرعة نحو ذلك النور،

وعندما وصلت إليه وجدت نفسي أمام مكان شديد الخضرة والضياء يبعث في الروح الطمأنينة والانشراح. مكان غاية في الجمال كأنه روضة من رياض الجنة. اندفعنا جميعا من دهاليز مياه السيول المظلمة نحو تلك الواحة...اندفعنا ألم تنته الهزة ;ماذا الذي يجري كنت إلى تلك اللحظة أهتز. كانت خديجة تناديني ولكني عاجز عن رؤيتها. كما أني لم أكن متأكدا من مناداتها لي . وعندما كنت أحاول أن أسمعها كانت خديجة تقول أشياء من قبيل... انفجار كبير.

قبل أن تنتهي هي من كلامها اندفعت من فراشي ولا أدري هل من تأثير الكابوس الذي رأيته أم من أزيز أصوات الرصاص، هرعت الى فرمان الحارس ملتقطا أنفاسي دون أن أعير أي اهتمام لصوت زوجتي وهي تناديني.

- سألت فرمان عدة مرات متتابعة : ما الامر؟ لم هذا الضجيج؟ ماذا حدث لهذه الحيوانات؟ لم تطلق النار؟
- أجاب فرمان قائلا أنا أيضا لم أفهم مالذي جرى. في البداية بدأت الكلاب تنبح، ثم بدأت بعدها جميع الحيوانات الموجودة في الإسطبل و الدجاج في قنها تصيح. ورغم أني فتشت المكان إلا أني لم أتمكن من رؤية أي شيء. لذلك قمت بإطلاق النار في الهواء أحتياطا .

قمنا جميعا بإعادة تفتيش المكان ولكننا لم نشك باي شيئ . لعله كان لصا وهربعد ان سمع نباح الكلاب. أو لعله ثعلب يتجول في هذه الربوع وأراد أن يزور قن الدجاج. أو لعله.... عدت بسرعة إلى البيت كي لا أقلق زوجتي. كانت تحاول أن تنيم الأطفال في غرفتهم.

- لا شيء مهم. لقد ظن فرمان أن هناك لصا عندما سمع نباح الكلاب وصياح بقية الحيوانات. وعندما لم يجد شيئا أطلق النار في الهواء كاجراء احتياطي، و فتشنا المكان من جديد ولم نجد أي مشكلة.
- لكن هذا أرعبنا قليلا. حتى أن الاطفال ناموا على الضجيج، انتابهم الخوف.
- خسنا حبيبتي ، انتهى الامر، لا تقلقي. إذا كان الأطفال قد ناموا نامي أنت أيضا وارتاحي قليلا.

هرب النوم عن عيني خديجة، وكنت أنا أيضا قلقا من الكابوس الذي رأيته لمرة واحدة. بالنسبة لي فأنا شخص أتصف بالتكتم في المسائل الخاصة. مشاعري وآلامي وحتى أفراحي لا أستطيع أن أعيشها باحساس عاطفي . منطقي و مبادئي تكبح جماحي دائما. صمت. كانت ليلة من الليالي السوداء التي غاب فيها القمر وأنهى دورته...و كان كل شيء يبدوا هادئا ولكن قد تقع عاصفة في أي لخطة . الشمس التي حولت السقف الى فرن على مدار اليوم سلمت دورة الحراسة إلى السقف عندما حل المساء. يواصل عمله في طبخنا ليلا داخل الفرن الذي إعده في النهار.

كانت الليلة واحدة من ليالي صيف عام 2004. لذلك كنا ننام تاركين النوافذ مفتوحة. كان يسكن في افريز السقف بوم وكان كعادته ينعق طويلا ثلاث مرات قبل منتصف الليل.
أرقدت خديجة الأطفال في غرفتهم. كان عمر أحد الأطفال ثماني سنوات و الآخر ستة، كانا صغيرين. كنت أحكي لهما إحدى الحكايات التي أعرفها كلما تسنح لي الضروف ، أو أقرأ لهما حكاية من إحدى الكتب. في تلك الليلة عندما أتممت الحكايات غرق الأطفال في نوم عميق.
وعندما استسلمنا للنوم ليلا بدأت كلاب الكنغال تنبح بشدة وكأنها فلتت من عقالها. ثم بعد الكلاب مباشرة سمعنا نقنقة الدجاج والديكة الرومية الموجودة في قن الدجاج وشكلوا هم أيضا جوقة ، اختلطت معها أصوات الأغنام والماعز افاقت فرمان حارس المزرعة من نومه مذعورا وانتزع بندقيته واندفع نحو الخارج.
في نفس اللحظة وفي الطابق العلوي من المزرعة كانت زوجتي تحاول ايقاضي عندما احست بأني أهذي بكلمات و قطرات العرق تتصبب مني كأنها حبات خرز. ورغم انها لم تفهم هذياني إلا أنها فهمت من شدة ضغط جفوني وتجاعيد وجهي و شكل فمي بأني ارى كابوسا مرعبا .
زوجتي: خيرا إن شاء الله... ماذا الذي يحصل؟ هيا استفق ياحبيبي ! فهناك أمور تجري في الخارج!
كان الليل يتشكل في ذهني شيئا فشيئا. هل كانت الرؤية سيولا أم هي صوت بندقية فرمان؟ هل كانت خديجة تناديني وأنا بين السيول أم هي الأصوات المرعبة المنبعثة من الخارج أم أنها كانت قلقة على حالتي البائسة؟ عشرات الأسئلة... نعم عشرات الأسئلة نضجت في جمر الليل و حرارة النهار....
هل كان ما رأيته في تلك الليلة كابوسا ؟ لقد كانت حقا رؤية عجيبة تركت آثارا عميقة في نفسي تتعلق بالواقع وبما يضايقني. لكن كانت لهذه الرؤية تآثيرات مختلفة. الكل يرى رؤى في منامه ولكن قليلة جدا تلك الرؤى التي تؤثر على ضمير الانسان وتوضح له الامور وقد تدفعه الى التفكير بتأويلها. مثل هذه الرؤىقد يراها المرء ثلاثة أو خمس مرات طوال حياته ... او قد لا يراها البتة...
تلك الرؤية التي رأيتها في تلك الليلة ... تركت في نفسي جرحا غائرا، لكني لم أستطع تفسيرها بشكل كامل. بيد أني كنت أشعر أن هناك خطر ينتظرنا وسنصل إلى بر الأمان. لم أكن أدري ما نوع ذلك الخطر وفي أي وقت سيحدث. كما أني لم أكن متاكدا من صحة أحاسيسي وتوقعاتي.
إلى حد تلك الرؤية أي الى حد تلك الليلة كانت حياتي طبيعية. يمكنني أن أقول باني باستثناء بعض المشاكل العابرة في حياتي بأني إنسان عشت حياة مرفهة ومريحة مقارنة بالعديد من الناس، وأني قضيت لحظات جميلة من عمري .

تعرضت إلى بعض المصاعب والمشاكل حسب رأيي وكغيري من الناس و الى بعض الآلام والهموم لكنها لم تكن مهمة لا يمكن تجاوزها أو أنها أثرت على سيرة حياتي. كان لدي عمل أحبه و وصلت به إلى أعلى المراتب، ولي زوجة وطفلان هما قرة عيني. ارباحي وصلت إلى مستوى تمكنني من أن أنفع بها نفسي وعائلتي والمحيطين من حولي. كانت علاقتي جيدة مع العائلة والأقرباء والأصدقاء. وكنت أعيش في بيت جميل في نظر الكثير من الناس بمزرعة مساحتها 15 هكتارا قريبة من خيرات اسطنبول وبعيدة في الوقت نفسه عن متاعبها. خلاصة القول كنت أعتبر نفسي أني واحد من الذين يعيشون حياة مرفهة و رغد من العيش. لم يخطر ببالي يوما ما بأني سأعيش تغييرا في حياتي أو مستواي المعيشي أو عملي. كنت أحب زوجتي وعملي وبيئتي ونمط حياتي على الأقل بنفس القدر الذي أحب به أطفالي.

ظهور ذرة السودان

شاركنا عام 1996 في معرض اقيم في المملكة العربية السعودية بهدف التعريف ببلدنا. بعد انتهاء المعرض قمنا ليومين أو ثلاثة باداء شعائر العمرة. كنت اتصور وفي ذهني صورة خيالية للكعبة جوهرة مكة بانها مكان مفعم بالحنين وانها كانت مركزا لبلد غير التاريخ. وعندما وصلنا إلى مكة وأثناء تجولنا في أرجائها بكل شغف لم أر سوى بنايات كلاسيكية غير جميلة، انتابتني الحيرة لعدم وجود اية مزايا و اثار مرتبطة بماضي المدينة التاريخي الذي أبحث عنه. عجزت عن إيجاد تفسير لعدم رؤية آلاثار التي تجعلك تعيش لحظة واحدة تلك الأجواء التي ستعود بك إلى ما قبل 1400 سنة.
كانت الكعبة أملي الأخير. وعندما كنت انظر الى مشاهد مكة على شاشات التلفاز فإنها كانت تبدو وكأنها خالية جدا من أي أثر يدل على الماضي خارج الكعبة إلا أنه لازال هناك أمل في ي داخلي. تقدمت نحو الكعبة حاملا هذه الخواطر ينتابني إحساس داخلي وكأني سأدخل في عالم اخر أو ادخل نفقا يأخذني إلى ما قبل 1400 سنة. كلما اقتربت من الحرم كان قلقي يزداد و يزداد ربما بسبب خيبة الأمل التي أصبت بها في مكة، ولكني كنت احاول طمئنة نفسي. عندما رأيت جدران الحرم، واقتربت من الأبواب الضخمة الرائعة بدأت ألاقي صعوبة في تهدئة قلقي. عبرت من الباب مرورا بأعمدة مطلية بالذهب وبأروقة طليت كل جوانبها بالرخام، وعندما وصلت إلى الفناء الكبير أمام الكعبة لم أشعر بأني في الكعبة فعلا. و بينما كنت في الفناء كنت أبحث عن مكان أو طريق آخر يأخذني إلى الكعبة.
أصبت فعلا بخيبة أمل لأني وجدت نفسي وأنا أمام الكعبة وجها لوجه مع حقيقية أني لا زلت أعيش في القرن العشرين و موجود في هذا العصر. لم يترك أي معلم من المعالم لا من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من العصر الإسلامي الأول. لم يبق أمامي سوى الكعبة نفسها و ماء زمزم الذي ينساب من الصنابير الموجودة في ساحة الحرم. تملكت

نفسي، وتقبلت الحقيقة كماهي و شرعت في أداء مناسك العمرة. بعد الانتهاء من مناسك العمرة واصلت بحثي عن الماضي . هناك أثر سيأخذني إلى الماضي.... أسرعت إلى هناك لأول وهلة عندما قالوا إنه بقي جبل النور وغار حراء هذا المكان الذي نزل فيه الوحي و اعتزل فيه النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي. أجل ...ذهبت إلى حيث جمال الوحدة والعزلة ، ذهبت ولو للحظة واحدة إلى الماضي. اسلمت نفسي للعجز البشري و لعظمة القدرة الالهية.

عندما عدت إلى اسطنبول واصلت حياتي الأسرية المنتظمة لعدة سنوات أخرى و عدت إلى روتين العمل. في سنة 2004 نجحت في إيصال عملي إلى مستوى متميز وأن أضع حياتي داخل إطار نظام محدد. كنت متزوجا ولي طفلان. امكانياتي أصبحت تسمح لي باداء فريضة الحج. اجل الحج! كنت على وعي بأن الحج أصبح فرضا علي. لكني كنت اعاني من بعض العقدات في داخلي.

الذي عشته أثناء أداء العمرة مازال يعيق حماسي. كنت أؤجل موضوع الحج باستمرار، كذلك أخشى أن لا يكون لي نصيب من ذلك الحظ الروحاني ومن ذلك الجمال الذي يتحدث عنه كل القادمين من الحج. في تلك السنة وعندما بدأت اجراءات التسجيل للحج خطب إمام مسجد گوكچه علي في خطبة الجمعة قائلا إن الذهاب إلى الحج فرض، و أن الذين يؤجلون هذه المسألة سيكونون مسؤولين عند الله في حالة وفاتهم. عندما خرجت من المسجد بعد ما سمعته من الشيخ أحسست بأني ساسحق تحت وطأة هذه المسؤولية. فلا ضمان بالبقاء على الحياة حتى يوم غد ، وسيكون تأجيل هذه المسؤولية وبالا عظيما علي. نويت النية على اداء فريضة الحج فورا، وأصبح الحج هدفي فرضا علي. استشرت زوجتي في ذلك، وبعد أن تحدثنا عند من سنترك أطفالنا إذا ذهبنا إلى الحج اتخذنا قرارنا بالحج سوية ، وقمنا بإجراءات المراجعات الرسمية. وعند حصولنا على الموافقة وتأكدنا من الذهاب إلى الحج ترجينا والدة زوجتي أن تعتني بألاطفال الى حين عودتنا. فاستجابت لطلبنا سلمها الله وتركت زوجها وحماتها المسنة واعتنت بأطفالنا.

كنا مستعدين لاداء فريضة الحج التي ستستغرق 21 يوم في شهر يناير عام 2005. كنت طوال تلك مشتت الافكار حتى في يوم الذهاب الى المطار. كنت افكر من ناحية بألاعمال و بالاستعدادات من ناحية أخرى الى ان جاء يوم الذهاب دون أن نكمل أي شيء بالشكل المطلوب. نحن الان في المطار ، نغادر تاركين كل شيء ورائنا. أخرجنا ملابسنا في المطار، ولبسنا ملابس الإحرام. وحلقت الطائرة لتحطت في مدينة جدة. بعدها واصلنا الطريق إلى مكة برا حيث لاقينا ازدحاما شديدا، هناك من الناس من سبقنا مبكرا لان كل الامكان كانت مكتظة بالناس. نزلنا في الفندق ثم بدأنا بالانتظار في بهو الفندق للذهاب إلى الكعبة المشرفة . بعدما حضر جميع افراد قافلتنا تحركنا نحو الكعبة.

وبسبب الازدحام الشديد حول الكعبة قام مرشد القافلة بإخراجنا إلى الرواق العلوي الموجود حول الكعبة. وصرنا ننظر إلى الكعبة من الأعلى عبر الشرفة المطلة عليها. كان الطائفون

حول الكعبة شبه النجوم التي تتحرك في شكل دائري حول مركز يمثل الديناميكية الأساسية للكون. عندما تنظر وأنت تغمض عينيك قليلا فانك سترى الجميع وكأنهم نجوم مجرة تدور حول الكعبة، ولاتكر بأنهم بشر. و كما أننا لا نشعر بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس فإننا نحن كنا نرى الطواف دورانا لاهوتيا مستمر دون انقطاع منذ قرون، كنا نسمع فقط همهمة في جوار الكعبة، ولكننا لم نكن نشعر زلزلة هذا الحدث الرائع في النفوس . بعد قليل سنكون نجمة مثل هذه الكائنات وسنستقر في المدار حول مركزنا مثلنا مثل الجميع ...
جئنا الى دعاء " لبيك اللهم لبيك" وألستنا تلهج بالدعاء والدموع تنهمر بمظهر من مظاهر الشكر والامتنان والفرح العميق. فمن الناس من يقول: "أأمر يا الله " " نحن أتينا مسلمين مستسلمين باسم حق الخلق والوجود"... ومنهم من انهار في مكانه وقد انتابته ارجفة ودهشة وكأنه طفل يتيم، ومنهم من لا يريد أن يضيع ولو ثانية واحدة فيستمر في تسبيحاته، داعيا بكل الأدعية التي يعرفها ، ومنهم من انزوى في زاوية ما يرجو العفو من الله وكله خجل من ذنوبه ومما فرط في عبادته ، ومنهم الداعون والراكعون والسجد والطائفون والمصلون... كلهم جاؤا هنا ملبين النداء المشترك. وكأنه يوم الحشر الذي ينفخ فيه اسرافيل الصور فتبعث كل الأجساد. فالقلوب والعيون ثابتة مندهشة وقلقة وكأنها تسير إلى المحكمة الربانية...
يتحرك عامة الناس على شكل جماعات عند ذهابهم إلى الحج جراء ما سمعوه من حكايات حول بعض الأشخاص الذين تاهوا قبل أن يذهبوا إلى الحج أو اانفصلوا عن مجموعتهم. اضافة الى هذا كانت حاجة لدليل أو مجموعة بالنسبة الى من يسافر خارج بلده لأول مرة أو لمن تنقصه اللغة الأجنبية. إضافة إلى ذلك قد يكون الدخول الى وسط مزدحم و مثل هذا يتسبب في الخوف والاستغراب، خاصة لدى كبار السن. لذا هناك حاجة ماسة إلى دليل ومجموعة تجنبا لأي خطإ محتمل. لهذا السبب وكإجراء احتياطي يتم تشكيل المترشحين للحج على شكل مجموعات، هذا الإجراء يقلل الكثير من المخاطر أثناء أداء فريضة الحج.
مجموعتنا نحن تم تشكيلها ضمن شروط الحج القديمة . لذا كانت هناك مخاوف داخل مجموعتنا كزمن الخروج من الفندق أو العودة اليه، فقد كانت هناك عدة قواعد تقيدني وتقهرني. بل كانت هناك ظروف تجبرني على التحمل في بعض الاحيان. وكان ما يقهرني أكثر وجود بعض الأشخاص في المجموعة يعتقدون أن الحج ليس أكثر من رحلة سياحية. كان علي أن أتحمل هذا لأني في الحج. وكنت لا أستطيع أن أتعبد بالشكل صحيح سبب التوتر الذي كنت احس به داخل المجموعة ولم اكن أستطيع أالتركز على العبادة بشكل عميق. في اليومين الأولين وبعد أن لاحظت هذا الامر فكرت بأن أفضل طريقة هي التعبد بمعزل عن المجموعة. وقررت أن أقوم بالحج بالشكل الذي أريده أنا وبالشكل الذي اعتقدت بصحته وتعلمته وقرأته دون اي ارتباط بالمجموعة ولا بقواعد الأشخاص الموجودين فيها.
أخبرت زوجتي بأني لا أريد أن أتحرك مع المجموعة، وأن علي أن اؤدي فريضة الحج منفصلا عن المجموعة وحتى عن بعضا البعض قدر الامكان. تقبلت زوجتي رغبتي هذه بكل تفهم. وبينت لها القواعد الأساسية للكعبة وللحرم وأبواب العودة من الحرم إلى الفندق.

منذ ذلك اليوم بدأنا بالتحرك منفصلين عن المجموعة باستثناء الامور المشتركة . الحمد لله فقد تكيفت زوجتي مع هذا الامر بسرعة، وأصبحت تذهب الى الكعبة و تعود الى إلى الفندق لوحدها. وهكذا بدأنا فعلا بتذوق طعم الحج ولذته الآن.

آثار قدم قلبي

ينظر الانسان أثناء الطواف عادة أمامه، وأنا كذلك. أكثر شيء يمكن أن يراه الإنسان تلك اللحظات هي أقدام الناس. أقدام الناس العراة... كم رأيت من أقدام مختلفة أثناء الطواف! لم أكن أعلم أن هناك فروقا بين الأقدام كوجوه الناس. فكما أن وجه الانسان يكشف لك هويته، فقد أصبحت الأقدام أيضا بالنسبة لي تكشف نفس الشيء. كنت أستطيع معرفة الشخص وكأني أرى وجهه من خلال لون أقدامه ونوعها وحالتها ورثاثتها.
وأكثر ما لفت انتباهي من بين جميع هذه الأقدام أقدام ذات بشرة سوداء مشققة ورثة، وأغلبها معوجة ومشوهة بسبب الظلم والعذاب الذي رأته مما نجم بحرق كبير لبشرة الأقدام. حيث انعكست الحياة البسيطة والرخيصة التي قضاها الشخص زاحفا من أجل دولار واحد في اليوم أو حتى أقل من ذلك على أسفل قدميه المنبسطة. تبان آثار معيشتهم المعدمة وآلامهم ومشاكلهم في أعماق شقوق أقدامهم. فهذه الأقدام مختلفة عن بقية الأقدام الأخرى. فقد تعرضت هذه الأقدام إلى الظلم والسحق والاحتقار. حتى كنت في بعض الأحيان أثناء الحج شاهد على دفع هذه الأبدان الضعيفة و امتهانها من قبل الأقدام السمينة المتخمة. فبقدر ما رأيت فروقا بين الأقدام الموجودة كنت اراها في وجوه الناس ايضا و رأيت في آثار الاقدام علامات تحمل ملامح هوية وجه كل شخص، وتوحي بشخصيته بلونه ونوعه ورثاثته واهتمامه وحالته...
بعد مدة بدأ هذا الشق وهذه الأقدام النحيفة التي رأيتها تبعث في نفسي الإحساس بالألم والاستغراب، كم نحن بعيدون عن بعضنا البعض رغم أننا في الأصل قريبون!. نحن جميعا في نفس المكان ورغم أننا نسعى جنبا الى جنب نحو نفس الهدف إلا أن الحقيقة لا نولي اي انتباه لبعضنا. آثار الأقدام المشوهة و المشققة والرثة أغلبها تعود لذوي البشرة السوداء الذين يقاسون الأذى و الظلم... اجل انعكست على أخمص أقدامهم ملامح حياة رخيصة وصعبة عاشوها وهم يقاومون من أجل الخلاص منها يوما ما. الفاقة والألم والمصاعب أثرت بعمق في كل شق من شقوق أقدامهم. إنها أقدام عرفت الظلم والاهانة والسحق. هذه الأقدام مختلفة في ملامحها. بدأت فعلا أشعر بألم واستغراب عندما ارى هذه الاقدام . بدأ الإحساس بالألم وكلنا في نفس المكان متوجعيت نحو نفس الهدف، و حالة عدم اهتمامنا ببعضنا والتي شاهدتها زادتني هما بهم وتظهر الفرقة.
الى حين ذلك اليوم لم أكن أميز بين أقدامي و أقدام الآخرين. أقدامي كانت ناعمة وسليمة. لا آثار شقوق ولا رثاثة فيها. وحينما شعرت بهذا الفرق عدت ادقق حياتي و مسيرتي .كان

هناك بون شاسع بين وضع أقدامي وتلك الأقدام المشققة، وكأنهما تنتميان لعالمين مختلفين ، ولا يوجد وجه للمقاربة بينها ، بل إن أقدامي لم تنعكس عليها ولو ذرة واحدة من الألم والمعاناة التي ارتسمت على أقدامهم . فاين هي هذه الأخوة وهذه الوحدة التي نتحدث عنها ؟! بدأت وقتها اخجل واحاول نسيان أقدامي، وأنزعج من نعومتها ونظافتها، حتى أني عندما أكون قربهم أحاول أخفائها قدر الإمكان. كنت أضغط عليها وأمرغها على الأرض مرارا كي تبدو رثة. وكنت أرحب أن أكون قريبا من تلك الأقدام بدلا من قربي من تلك الأقدام السمينة.
أدركت في تلك الآونة أنه لا يوجد أثر في كل الأرجل . فأقدامي الناعمة والسليمة لم يكن لفيها أي أثر أو حكاية مثل غيرها من الأقدام التي بقيت نقية لبعدها عن الرثاثة والتشقق. و أتسائلت كيف تكون هذه الأقدام التي لها القدرة على اظهار كل أثر و لا علم لها بما عاشه هؤلاء، بدأت أشعر بالألم وبالخجل . كيف كنا نعيش حالة لامبالاة، ولم نكن نولي أي اهتمام لبعضنا البعض. كنت أعمل جاهدا على إخفاء أقدامي، وأضغط عليها وأمرغها مرارا على الأرض. لقد كانت لحظات تهرب من الواقع ، ولكني اعترف بخطيئتي. ومهما فعلت فلن تحدث في قدمي مثل تلك الآثار، كانت ستكون بعض الرضوض والخدوش الظاهرية فقط ، اتخذها ذريعة لدفع التهم عن نفسي.
كنت أتساءل لم بعض الأقدام سمينة وبعضها نحيف؟ لم هي متشققة ومحترقة؟ إلى أي الأقدام كنت قريبا أ؟ هل ضعف هذه الأقدام وتشققها كان بسبب الإهمال ياترى؟ اي نوع من الحج هذا والاقدام لا تساعد احداها ألاخرى؟ اي حج هذا وقدم تدفع قدما أخرى وتدوسها لتسبقها؟ اي حج هذا حج و ألاقدام لا تشعر بألم ألاقدام ألاخرى؟ اي حج هذا دون إحساس بألم الأقدام الأخرى التي معها، هناك أقدام ضعيفة نحيفة قد تسحق بفضاضة و سهوا ؟ اي حج هذا اجل اي حج سيكون؟ ...
من أنا ؟ وأين أنا؟ ولماذا أعيش؟ قريب من من؟ و بعيد عن من ؟ في أي صنف من الأقدام أنا؟ هل في الأقدام الناعمة السمينة أم في الأقدام الضعيفة المشققة؟ فإذا لم أدس الأقدام الضعيفة ولم أسحقها ولم أدفعها ألا أكون قريبا من هذه الأقدام الضعيفة؟!... و مهما فعلت و مرغت أقدامي و سحقتها وأخفيتها حتى عن نفسي أو لم أخفيها، لكن هيهات هيهات فأنا من صنف الأقدام الناعمة السمينة!...
كنا في الحج مع ملايين من إخوتنا الحجاج...حتى أني لم أكن أعرف حكايات إخوتنا وما هي أحوالهم. فحالة اللامبالاة التي لا حظتها كانت كافية لتخجلني من نفسي. طفت، ثم طفت، ثم طفت. درت، ثم درت، ثم درت. هيهات، فأنا عشت دون أن أترك أي أثر جراء نعيم الراحة! أدركت حينها أنه لن تكون هناك أثار في أقدام من دون أن أغير طريق عمري وقلبي ونقاوة أقدامي.
طفت وطفت. راقبت الأقدام ثم راقبت. تأملت وتأملت. وقررت أن أغير أولا قلبي ونقاوة أقدامي.

- الهي ! اغفر لي ولحياتي التي قضيتها في الغفلة. اعف عني! اغفر خطاياي وتقصيري. فأنت بلا شك الغفور الرحيم. أنت العفو الستار...

أنا لم أسمع ولم أرى صرخات الآثار التي رأيتها اليوم في الاقدام . هذه اللامبالاة امر قبيح ونقص في الحياة التي نصفها بأنها راحة. عشت إذن دون أن أشعر بآلام الاخرين ولا صراخاتهم. هكذا إذن بذلت كل ما في وسعي طوال سنين طويلة كي أضاعف ترفي ورفاهيتي. بدا الامر لي وكأنها حياة جيدة. لكن هل كانت هي الحياة الصحيحة؟ كم فرسخا بيني وبين الموت؟ لأي شيء عشت أنا؟

ألعملي عشت ، أم لزوجتي أم لقوتي أم لثروتي أم لعائلتي أم لأطفالي؟....كل ما عددته هي أسباب واهية غير صحيحة . لقد عشت دون أن أفهم أي شيء لا يمكنني القيام به و يكون لي أنا... نسيت! كلا في الحقيقة فأنا لم أنسى أبدا! ألمي، وخجلي، و ألمي مرة أخرى، ثم خجلي لكنها كانت تغذي بعضها البعض. تصاغرت، وتصاغرت، وتصاغرت... ليتني أستطيع أن أفعل شيئا ، كنت أستطيع أن أخفى نفسي تلك اللحظة أمام تشققات الأقدام التي رأيت منها الكثير هذا اليوم.

كنت أعلم بأني لا أريد أن أعيش بين الأموات بعد اليوم. حينها كان لزاما علي أن أموت بين الأحياء، كان علي ان اعيش الحياة. أن أقتل كل شيء في نفسي ، أن أتخلص من انانيتي.

- ياالهي! دلني على الطريق القويم ، افتح لي بابا يارب!

خلف الأثر

- يا ربي ساعد عبدك على هذه الحيرة والضعف ! افتح لي بابا.

كان هذا هو دعائي المستمر . كنت أريد هذا. لأني أعلم ما أريد. في نهاية الامر كنت أستخدم العقل والإرادة و معجزة ربنا اللطيف. كنت فعلا أبحث برغبة وبقصد.

تحولت كل أيامي إلى حالة من الأمل والمناجاة والحيرة ... وكنت أنتظر أي شخص يمر بجانبي لأوقفه وأسأله عن أشياء يقولها، وكيف يدلني على الطريق. كنت اردد الكثير من الادعية طالبا ان يفتح الله لي وينير قلبي، وأن أجد طريقا نورانيا لاسرع فيه .

كنت أواصل البحث بفضل رحمة ربنا اللامتناهية. وبينما انا جالس في مقام سيدنا إبراهيم في الكعبة لفت نظري شيء لم أرى مثله طوال حياتي ، رأيت حبات بيضاء واقفة وكأن عليها كتابة ما. كانت 5 - 10 حبات أمامي مثيرة للاهتمام.

حافز داخلي قوي و مبهم دفعني لأخذ هذه الحبات. كنت أبحث عن إشارة أو سبب أو وسيلة ما. فهل تكون هذه الحبات ياترى هي الاشارة ؟ اني اجهل ذلك لكن كان علي أن آخذ بنظر الاعتبار كل الاحتياطات المحتملة. كأن الحبوب التي اخذتها لا تفي بالغرض، و قد اجد شيئا آخر في الكعبة . نويت أن أجمع هذه الحبات أيضا.

ورغم الخطورة الشديدة لترك مكان وقوفك أثناء الطواف في موسم الحج، إلا أن الرغبة والشوق تدفعني لاجمع المزيد من هذه الحبات. بدأت وأنا أطوف حول الكعبة بجمع الحبات

التي اراها أمامي، وأخذها في يدي، و ابدأ بفحصها. لم تكن هذه الحبات التي في يدي حجرا مثلما اعتقدت. اكتشفت بعد فحصها بأنها شيء يشبه البذور أو غذاء للطير. ولم يكن الشيء الموجود عليها كتابة.
لم أتراجع أنا الباحث عن إشارة أو وسيلة عن جمع هذه الحبات كما لو كنت أجمع بقايا آثار الطريق الموجود في الحكايات. كان الخروج من بين الطائفين يشكل خطرا كبيرا، لكني كنت أواصل في جمع الآثار غير آبه بمن يناديني قائلا " لا تمل". جمعت 51 - 52 حبة و هو مجميع ماجمعته اليوم من الحبوب.
نظرت إلى الحبوب التي جمعتها وحاولت أن أجد فيها الإشارة التي أبحث عنها. فهل هذه هي مفتاح بابي أنا ياترى؟ هل هذه هي إشارة دعائي الذي قلته " افتح لي الباب يارب"؟ فهل تكون هذه الحبات لها علاقة بالطريق الذي أبحث عنه؟ وهل العلامة و الطريق الذي أبحث عنه مخبآن في هذه الحبوب؟ لست متأكدا من ذلك . قد يكون هذا وهما أو وسوسة. بل تبدو وكانها افكار شبيهة بالسفسطائية. اذنت في تلك اللحظة لنفسي ان تزهو بخيالاتي. حاولت أن أتخلص قليلا من وطأة الحالة العاطفية التي راودتني لأعود إلى نفسي قليلا. حقا ماذا أفعل أنا؟ هل مررت بموجة من العواطف لأجمع حبات غذاء الطير كالمجنون ؟ أم أنني فعلا كنت أعتقد بأن هذا يحمل معنى من المعاني؟
كنت كلما سألت سؤالا لنفسي احاول أن أجد جوابا شافي . و اخيرا عندما عدت إلى نفسي جلست لانشغل في تخيلات صغيرة هذه المرة. قد يكون هناك أثر يدفعني أو لا يكون. قد يكون هو عقلي الذي يحاول اللعب بي أو أني لا أرى الإشارات الواضحة الجميلة .
الكل يغرق بمثل هذه المشاعر الرائعة الجياشة سواءا جراء الصدمات أو بعض الأحداث التي يعيشونها. وقد يتصرفون تصرفات غريبة بعض الاحيان . كما انها قد تكون مفيدة للانسان بعض الوقت عندما لا تفصله عن واقعه الانساني. كما أنها قد تهز الانسان وتعيده إلى نفسه، اما إذا ما استمرت فقد تعود على الانسان بالضرر. أما أنا فقد كنت أعيش الصدمة ، التي لم تزيد سوى حدة مشاعري .
لم أفقد هدوء أعصابي بالدرجة التي تمنعني من تحليل نفسيتي. هدأت من روعي، وقررت أن أسيطر على نفسي، وأن أكون منطقيا و أقيم الامور تقييما سليما. كما كان بامكاني التخلص من مثل هذه التخيلات.
جمعت هذه الحبوب في الكعبة. وحاولت أن أحتفض بها و أفكر بهدوء. كانت الحبوب شبيهة بطعام الطيور . كنت اظن حينها بان هذه البذور اسقطتها الطيور التي تطير فوق الكعبة، هل كان علي التفكير بهذا الشكل ؟ وهل لها علاقة بالمعاني التي ابحث عنها كالمفتاح او الباب او الأثر او الإشارة ؟ كنت أفكر بان علي القاء هذه الحبوب التي معي . و ماذا لو عثرت بها هناك ايضا ؟! هذه الشكوك، وهذه الأسئلة كانت تراودني باستمرار....
قررت الاستراحة قليلا قبل أن ألقي الحبوب و أن أتجول في أروقة الكعبة، وأن افتش عن حبات مشابهة . كنت افكر بعض الاحيان بالقاء هذه الحبوب. تجولت في الأروقة طولا

وعرضا ويمينا وشمالا، و جمعت ما كنت اظنها حبات مثل تلك التي رأيتها، وعندما فحصتها أردكت بأنها ليست سوى قطع حصى صغيرة . مررت في الطابق السفلي ثم العلوي. لكني لم اجد اي شيء يذكر في الطابق العلوي. لم اجد في هذه الساحة الواسعة حبة مشابهة واحدة صحيحة قبل ان تسحق من قبل الملايين.

أنهيت جولتي وأنا أفكر بألقاء الحبوب التي جمعتها، ولكن لا تزال بعض الاسئلة المتعلقة بهذه البذور تراود مخيلتي. لعلها سقطت من حقيبة أحد الأشخاص. اجل , هذا الاحتمال وارد جدا و الأكثر معقولية.

قررت أن أستمر في البحث في أروقة الكعبة وساحتها بصورة اكثر تنظيما حتى آخر يوم نغادر فيه مكة. لو أجد البذور فكم سيكون الامر رائعا لانني ساكتشف من اي بقاع هي . و اذا لم أجدها فسيكون هذا نصيبي . واخيرا قرارت ان اعتبر هذه البذور هي الإشارة التي ابحث عنها .

عندما عدت إلى الفندق كانت الابتسامة تعلو في وجهي و انا احمل البذور تلك...لقد أحببت هذه الحبات الصغيرة. كانت تشبه الذرة الصفراء غير أنها كانت أكبر من حبات الذرة التي نعرفها نحن. تاكدت حينها بانني لا انوي رميها. واصلت البحث في اليوم التالي ايضا بدون جدوى، بقيت فارغ اليدين هذا اليوم.

تذكرت بسرعة باعة طعام الحمام في اسطنبول. اجل فشلت بالعثور على هذه البذور في فناء الكعبة، لكن لعله يوجد في اماكن بيع طعام الحمام. مررت بصاحب دكان في الطريق العلوي والأمل يحدوني والفرح يغمرني خاطبته قائلا :

- هل هناك بائعة طعام الطيور في الجهة الغربية للكعبة؟ أجابني مؤشرا انظر ، اذهب بهذا الاتجاه وستجدهم هناك. ما إن أخبرني بذلك حتى وجدت نفسي في منطقة الباعة. كانت هناك ست منصات وضعت جنبا إلى جنب...لكن بذوى طعام الطيور الموجودة على المنصات لم تكن تشبه التي معي.

عدت مجددا في اليوم التالي إلى الكعبة وإلى أروقتها. فتشت هذه المرة أغلب الأماكن بدقة اكثر، لكني لم أعثر أيضا على أي شيء! عندها قررت العودة إلى الباعة من جديد .

سألتهم هل يوجد سوق لهذه البذور؟

- أجابني أحدهم قائلا: سر بهذا الاتجاه فستراهم على بعد 2 - 3 كلم , نحن أيضا نشتري بذورنا من هناك. ولدت الجهة التي اشاروا اليها املا جديدا نفسي. اصبحت تلك المنطقة هدفي في اليوم الثاني .

بقي لي يومان أخيران فقط في مكة. و ليس لدي ثانية واحدة أضيعها لاصل الى حل لهذه المسألة خلال هذين اليومين . وصلت إلى سوق الحبوب قرب الظهر. كان سوقا مفتوحا له ساحة علوية واسعة صفت الدكاكين في الوسط يمينا و يسارا . هذا السوق يختلف عن أسواقنا في اسطنبول و التي تعبق منها رائحة التاريخ و قبابها مطلية من فوق. رايت بأنه سوق مثل الأسواق الشعبية الأخرى ذو مساحة تتراوح بين 15 - 25 متر مربع، ومحاط بالدكاكين من

كل الجوانب. هناك عدد كبير من المحال الفارغة و المغلقة... وهناك مكان مفتوح للباعة يعرضون بضائعهم فوق منصاتهم أمام الدكاكين...
قمت بخلط البذور وتفحصها، و لكن هذا العمل لم يعجب الباعة في المنصات الاولى ، كنت في داخلي آمل بأني سأجد بذورا تشبه بذوري. عرفت بأن عملية خلط وتفحص البذور ستفسد العلاقة مع البائع. و أخرجت من جيبي البذور التي احفضها في كيس صغير وسألته أين استطيع العثور على هذه البذور. أجاب البائع قائلا:

- هذه " ذرة السودان".
- ماذا قلت لم أفهم جيدا؟
- هذه اسمها " ذرة السودان" وغير موجودة عندنا ، ولم تأت إلى هنا منذ عدة سنوات.

انه يقول بان البذور التي في يدي هي بذور الذرة السودانية ، وأو لا احد يجلبها إلى السوق منذ عدة سنوات. أصابني الذهول وجمدت في مكاني ولم اشتري شيئا من الدكان.

- سالني البائع: هل أعطيك من هذه البذور؟. في الحقيقة فان هذه البذور التي معك لم يعد يشتريها أحد.
- أجبته كلا، كلا، الله يسلمك، أنا أريد أن أشتري من هذه، فأين يمكن أن أعثر عليها؟
- لا أعتقد أنك ستجدها ولكن انظر في الدكاكين التي في الأمام.

جميع الباعة وكأنهم اتفقوا على نفس الجواب من أول دكان بدأت به حتى آخر دكان وصلته " هذه بذور ذرة السودان ، ولا توجد عندنا، ولم تجلب هنا منذ زمن بعيد ". بقيت واقفا وقد انتابتني خيبة أمل كبيرة لأني لم احصل على اية معلومات اضافية بل لم أعثر على أي شيء يذكر. كنت قد قضيت أيامي في البحث عن هذه البذور. و اصبحت كالمعتوه الذي يبحث عن السر ، بحثت وبحثت مرارا . انتابتني حالة من اليأس و احسست بآلام أقدامي التي انهكها السير .
خلال توجهي إلى أحد الدكاكين خطرت ببالي فكرة مثيرة بعثت في نفسي الامال من جديد .

- هل توجد مطاحن قريبة هنا ياترى ؟

أشاروا لي على مكان فيه مطحنتان يعرفونهما. وأخبروني بأنه لا توجد هنا مطاحن كثيرة. عاد لي الامل بأني قد أجد عدة اشياء تتعلق بالحبوب أو على الأقل معلومات تدلني عليها...كنت أفكر طول الطريق في حالتي هذه الذي وقعت فيها منذ عدة أيام كما المجنون. كنت أبحث عن جواب لهذه الحبات القليلة، ك أبحث وأبحث...
دخلت إلى دكان ضيق المدخل وطويل لارى بأنها طاحونة. طاحونة كهربائية متوسطة الحجم، فيها بذور مختلفة داخل أكياس بانتظار دورها للطحن ... كما هناك بذور متناثرة على شكل طبقة رقيقة بيضاء كانها الثلج...
وقفت أمام طحان متوسط العمر يدل مظهره بأنه يحب عمله، ويهتم به ، وقد ارتسمت على جبينه آثار العمل لسنوات طويلة . تحدب ظهره بفعل ثقل الأكياس التي يحملها ويرفعها

باستمرار، وكان يعمل بجسمه النحيل الذي لا يناسب ثقل الأكياس. انتظرته حتى انهاء عمله. وعندما اقترب مني ليسالني عن طلبي , مددت له الحبات متسائلا :

- أنا أبحث عن هذه البذور. تجولت في سوق الحبوب بكامله ولم أجدها، اخبرني الباعة باني قد أجدها عندكم. فهل عندك منها ؟ وهل رأيت مثلها في الأيام الأخيرة ؟

نظر الطحان باهتمام كبير إلى البذور التي في يدي ، وكانه يتساءل بعينيه عن هذا الأجنبي الذي جاء هنا ليسأل عن بذور سيئة قليلة الجودة لا تأكلها سوى الحيوانات مع ان هناك حبوب عالية الجودة معه معروضة للبيع .

أجاب قائلا: هذه " ذرة السودان"، ولم اطحن هذه الحبوب منذ زمن طويل.

و بينما كان يتساءل بعينيه في البداية ، و لكن أراد أن يستوضح اكثر فسألني:

- لماذا تطلب هذه الحبوب؟
- أجبته بصوت متقطع قائلا: لقد رأيت بقية البذور، وأعلم أنها أكثر جودة، لكني لا أريد غير هذه البذور.
- لا يوجد عندي بذور تشبهها ، و لم يبق لدي سوى هذين الكيسين الموجودين هناك بقيت من السنين الماضية ، تعال لنراهما.

عندما نظرت في الأكياس لم أجد أي شبه. شكرته وخرجت و عدت بخفي حنين.

قلت في نفسي إن الوصول إلى المطحنة الأخرى يعني نهاية طريق الأمل، انتابتني قشعريرة.

عندما وصلت إلى المطحنة رايت أن الطحان ذو الأربعين قد أنهى عمله ويستعد لغلق المحل.

لكن كانت نفس الأسئلة و نفس الأجوبة تراودني...

وقعت في دوامة الأسئلة والأجوبة مدة اخرى من الزمن. لم أتمكن من العثور على جواب شافي لأثر البذور التي معي ، ولا طريقة فعالة للبحث. أعدت البذور الصغيرة إلى الكيس الذي في جيبي و تزال الأسئلة راسخة في ذاكرتي ...

لم حدث هذا؟ البذور التي مازلت ابحث عنها ولم أجدها منذ أول يوم وجدتها فيه وسابحث عنها حتى آخر يوم أغادر فيه مكة...البذور التي لم تجلب إلى هنا منذ عدة سنوات ولم يرها أحد... لم حدث هذا؟ هل أضلتني البذور التي تصورت بإنها علامتي أو مفتاحي أو بابي المنتظر ؟ هذه الدوامة التي عشتها بأني قد أجد مخرج خلاص هل كانت ضربا من الخيال ؟ تعبت كثيرا جراء البحث واللف وراء الأثر المنشود ، لقد كان الجواب معلقا في الهواء منذ يومين، وأنا لا ادري **" ذرة السودان"** – **" بذور السودان"**. " ، كنت أرتجف وأقول " الهي اعني ، وهدئ من روعي، و دلني علي مخرج لأسئلتي ولآمالي".

ضيفي الجديد!

في خضم لا مبالاتي هذه قررت أن أقضي ليلتي الاخيرة في الكعبة. لاجل الوداع ، والشكر، والمناجاة..لم أكن اسيطر على نفسي ، كانت الاحاسيس تنتابني تجبرني على الانفراد . كان علي أن أبحث في مخيلتي اجوبة تساؤلاتي وبحثي وأدعيتي .

انار الله دربي ، وقررت أن أستمع إلى وقع الأقدام التي أراها حوالي. و غارقت في أفكار مبهمة وحزينة. لقد بقيت الف و أدور خلف أثر ما، ولكني لم أفكر أبدا إلى أين قد يأخذني الجواب الذي سأجده.
أثناء سعيي وراء حبة واحدة كان احتمال التخلي عن البحث يقلقني و يزعجني ، فلا بد من نهاية للبحث و خاصة إذا ما صدمت بان افكاري التي اظنها صحيحة ليست صحيحة في الحقيقة ؟ وإذا تهت في دوامة هذا الخطأ ؟...
بينما كنت غارقا في افكاري فجرا حطت أمامي حشرة تشبه الفراشة أو الجرادة. كانت تشبه الطائرات المروحية العسكرية . كم هي غريبة الشكل ! وقد اصبحت كأنها عسكري في حفل أزياء. فلا أنا ابتعدت عنها ولا هي. حتى أنها لم تهرب حين لمستها. ظللت أنظر إلى هذه الحشرة التي زارت مخيلتي ، لقد كانت جرادة قوية و كبيرة نوعا ما . عندما مددت يدي لأمسكها من جناحيها كان بامكانها أن تهرب بسهولة ولكنها لم تفعل و ها هي الآن تأتي معي إلى غرفتي في الفندق. و هذه الجرادة أو الفراشة لها لون يشبه مروحية القوات الخاصة و تعمدت أن تأتي قربي. حاولت أن أطعمها او اشربها ماءا الا انها لم تحرك ساكنا لا على قطعة الموز ولا حتى على الماء.
كنت في وضع مريح رائع، "فالذرة"لم أعرف وها هي الجرادة اصبحت ضيفي الجديد... قررت أن ألتقط لها صورة . لا زالت تلك الصورة التي التقطتها لها وهي فوق المنشفة موجودة على شاشة حاسوبي، وانتابني الفزع و الدهشة ...من تحول القرى الصغيرة الموجودة في أرض ما (الذرة) إلى مشهد قصف مروحية القوات الخاصة (الجرادة). قرى صغيرة معزولة تهاجم من قبل المروحية العسكرية...
دفعتني التساؤلات التي اهتديت اليها للقيام بالبحث في النت عن السودان إلى مشاهد تصرخ بالحرمان والإبادة والمجاعة والحرب الأهلية. لقد بقي الجواب معلقا في الهواء لمدة أيام، واليوم ها هي الجرادة تهمس لي بهذا و تدلني على الأثر و انه هناك. الجواب اذن من ضيفي الذي قال من ضيفي: عليك أن تزور السودان و ذرة السودان!

2

القدرة على التخلي ! الهجرة...
" إذا تحرك الغصن هناك ريح أو قرد... "
مثل شعبي دارفوري

الملايين من المسلمين...في امل الحج...الملايين منهم حجوا... الملايين تشعر الحج بانه الشعور بالهجرة ،كنت أدرك بأنني لا استطيع أداء فريضة الحج قبل الهجرة، لأنني رأيت حقيقة استحالة ترك المسلمين لكل انواع التفرقة القومية واللون والجغرافيا و النوع وتركها جانبا و أداء مناسك الحج على شكل جماعات . تلك الجماعات التي تترك الاختلافات والفروقات التي بينهم . الالام التي يعاني منها الاخوة من فقر و نهب اموال وتعرض للظلم والضغوط والحروب ...كنا بعيدين كل البعد نعيش لوحدنا حياة بمستوى راقي ونمتلك البيوت و عمل جيد كنا اناسا لا نخطأ. انا نفسي كنت كذلك في اقل. كنت اظن ذلك . فإن كان هناك خطأ ما في العالم كنت احسب نفسي بعيدا عن عنها و أقيمها على هذا المنوال . مع انني فطنت الان بانني كنت قد اصبحت " المزلاج الخارجي للباب الخارجي " في حياة اخوتي المسلمين وانا الان لي القدرة على تحمل تركي والبدء بالهجرة .
الملايين من المسلمين...كنا كأمواج السيل الواحد. ولكن محاولة عكس مجرى هذا السيل وزيادة كميته و كأني اسبح جاهدا ضد التيار. لقد أدركت التراخي في حمل الحطب إلى النار التي أحرقت سيدنا إبراهيم عليه السلام وكان الزمن زمنا يشبه نملة تحمل ماءا من أجل إخماد هذه النار.

فكرت مليا في سيدنا إبراهيم عليه السلام كنموذ لوقفته و تضحيته و قراراته ورجمه للشيطان و قربانه والعديد من الحالات طيبة الخاصة. لقد كانت كل واحدة منها رمزا. كنت سأبدأ هجرتي و وجهتي واضحة : السودان!

عندما عدت إلى اسطنبول وبيدي الزي الذي يرمز الى افريقيا و ألادلة الجغرافية قررت القاء الخطوة التالية ، و وصلت إلى آثار العزلة والفقر و المآسي والحرب الأهلية التي تشهدها جنوب السودان او في دارفور . وبينما فكرت تحمل التجول في ارجاء العالم للعثور على إخوتي المحرومين والمظلومين، فقد تبسطت الامور لاني حددت المكان التي سأذهب إليه من اول وهلة . سهل! سوف تنعدم هذه الكلمة من الجمل التي ساستخدمها بعد الان لفترة طويلة ولم أكن على علم بذلك .

اتخذت قراري، ساذهب إلى السودان. لقد كان اتخاذي هذا القرار الذي قد يكون صحيحا أو خطأ تعتبر أول خطوات هجرتي. قررت بدأ المسيرة التي قوامها 6000 كلم من إسطنبول إلى السودان. كنت ارغب بالسير بهذا الطريق خطوة خطوة متشبعا بنشوة الهجرة. قد تكون افكاري لا تزال تغتبط بآثار تلك الاقام التي في الباحة.ادلتني حساباتي بان ذهابي الى هناك سيرا على الاقدام ستستغرق سنة كاملة تقريبا . كان علي أن أخطط جيدا لفترة تزامنت مع قدوم موسم الشتاء. وبما أن الشتاء يمر بشكل قاسي في تركيا وسوريا والأردن فقد كان من الأفضل البدء و الخروج من تركيا و ان امكن من سوريا قبل الشتاء لاجل سلامة السير.

كان علي البدء بالتجهز للمسير بسرعة. كنت أدعو الله أن أتجاوز صعوبات نيتي، وأن أدوس على قلقي الذي يتزايد كالفقاعات مع انفعالاتي و قلقي . لم أكن أعلم بعد رد فعل عائلتي وبيئتي الاجتماعية. بدأت الحديث من المكان الذي اركن اليه و مع أكثر شخص ثقة فيه . فاتحت الموضوع مع خديجة.

- أنت تعلمين حالتي في الحج، نتيجة ابحاثي اظهرت باني من المحتمل ان اعثر على الناس الذين ابحث عنهم في السودان.
- كيف ذلك؟ السودان! دولة كبيرة ؟ أين وكيف ستجد أولئك الناس؟
- في الحقيقة، أنا لست متأكدا من هذا بالكامل. لكن لدي خطط واستعدادات . وآمل أن أجد أولئك الناس وأن أجد جوابا لهدفي ولجهودي. سأعمل كل ما في وسعي لو لنرى ما الذي سيحصل.
- حسنا. ماذا تفكر أن تفعل؟
- هناك وعد قطعته على نفسي وأنا أفكر أن أذهب إلى السودان سيرا على الأقدام، وأزور المنطقة التي يتواجد فيها أولئك الناس. وسأمر بعدها إلى هناك إلى جنوب السودان وإلى دارفور، وسأبحث عن أولئك الناس الذين عاشوا في منطقة الحرب الأهلية. وعندما أجدهم سأقوم بدعمهم إن شاء الله.
- حقا هل ستذهب مشيا على الأقدام ؟ ماذا عن امن الطريق و صحتك وعنا نحن و قدرتك و عملك؟ لا يمكن أن تكون جادا!؟

- نعم أنا جاد و اتخذت قراري. أنت تعرفين أني وعدت نفسي. بأني سأبذل لاجل هذا الهدف النبيل كل مافي وسعي. والآن كيف لا أفي بوعدي؟
- أنا لا أقول لك تراجع عن قرارك أو وعدك، ولكن هناك سبل أخرى للقيام بهذا.
- من المؤكد أن هناك احتمالات، لكن لدي وعود وقرارات. حقيقة أنا لا أقول إني لست قلقا من الذهاب مشيا و لكن , كأنه لا خيار آخر لي .
- أرجو أن لا تتسرع في هذا الموضوع. فهذا ليس قرارا سهلا. فنحن هنا وسنبقى وحدنا في هذه المزرعة وفي هذا الجبل، وعندما تذهب أنت ساتحمل انا كل المسؤوليات. و سيسألني الناس لماذا لم تثنيه أنت عن قراره؟ الى اين ذهب؟ ألا يوجد طريق آخر؟ سيسأولونني كل هذه الاسئلة .
- أنت محقة، فستتحملين اعباء مسؤوليات كبيرة. لذا فسوف لن أخطوا أية خطوة دون مشاورتك. لن أتراجع عن الذهاب. لذا تعالي نفكر كيف يمكن أن نجد حلولا للمصاعب التي ستواجهنا.
- لقد أحترمت دائما قراراتك. وليست ناوية أبدا لمنعك عن هذا. لكن أنت هو من يقدر الأمور، ان هذا القرار يهمنا جميعا انه لا يهمك أنت فقط. لذلك علينا أن نفكر ونتحدث أكثر.
- حسنا . لنفكر في الأمر ونناقشه. و لكن ليس لأجل بقائي بل لاجل إيجاد حلل للامور التي قد تطرأ عند ذهابي .

أصرت زوجتي على أن أسافر إلى السودان بشكل اخر اسافر بالطائرة و أبقى هناك قدر ما أريد، وأن أبحث عن أولئك الناس، و أقدم لهم الدعم اللازم بعد عثوري عليهم. كانت محقة ومنطقية. لكني كنت قد قطعت وعدا على نفسي على أن أذهب مشيا على الاقدام، وعلى أن أفي بوعدي هذا. لهذا السبب عينت قبل كل شيئ أحد الأشخاص للقيام بالحراسة ليلا ، وأعلمت العائلة بأن هناك حارس ليلي لحمايتهم في المزرعة. الأطفال يذهبون إلى المدرسة بحافلة المدرسة. وفي حالة حدوث أية معوقات فهناك خيارت تنقل اخرى يحددها السواق وهكذا وجدنا حلا لهذه المعضلة .

زوجتي صيدلية، فهي تستطيع أن تذهب وتأتي الى صيدليتها التي إفتحتها قبل عدة سنوات بسهولة بسيارتها. في الحقيقة فانها سوف لن تجد لها وقتا تفكر فيه بمشاعر الوحدة لانشغالها مع عملها وأطفالها و المسؤوليات الاخرى.

لقد حل القسم المتعلق بالبيت، وكان علي أن أركز على عملي الذي بذلت كل جهدي لتطويره خلال السنتين الأخيرتين ، لأوصله إلى حالة الاستمرار بالعمل بدوني اتممت المهام ووزعت المسؤوليات. توسعت أمورنا ، وأصبحنا نصدر منتجاتنا إلى 20 دولة على الأقل. لذلك فإن غيابي لن يشكل مشكلة كبيرة حتى و إن تركت العمل. أصبحت مؤسستنا هذه قوية قادرة على الاستمرار 10 سنوات أخرى بفضل قدرتها الشرائية وهيكليتها الموجودة حتى وإن لم يتم

إضافة أي انتاج آخر. اجتمعت مع شريكي أيضا لتباحث الامر معه، شارحا له الموضوع في خطوطه العامة. عندها قال لي:

- حسنا ماذا تفكر أن تفعل؟
- أفكر الابتعاد عن العمل لمدة سنة لأجل أن أحقق هذا حلمي هذا . طلبي الوحيد منك هي أن تمنح العمل وقتا اضافيا للإدارة هذا .

وعندما عجز عن اقناعي و تغيير افكاري قال لي:

- وما إذا لم أقبل بهذا ما الذي سيحصل؟
- سأتصل بأحد الأشخاص الذين يمكنهم تولى إدارة العمل بدلا مني ونضعه مسؤولا عن الشركة .
- حسنا ، ساتولى الإدارة إلى حين عودتك.

كنا في شهر فبراير شباط عام 2015 ، ولم يبقي أمامي سوى ثلاثة أشهر للبدء في الخطوة الأولى. ثلاثة أشهر فقط لأجل جميع الإستعدادات. قررت أن آخذ معي حقيبة ظهر فقط . وكان علي أن آخذ أشياء كثيرة تسد حاجتي وقليلة بقدر ما تسع حقيبتي.

عندما فشلت بالعثور على لوح خفيف يطوى للطاقة الشمسية لشحن حاسوبي اضافة الى الحقيبة والخيمة الخفيفة في تركيا كما أريد قمت باستجلابها من الخارج. حاسوب نقال صغير وهاتف نقال و والاجهزة المتعلقة بالشحن وضعتها في الحقيبتة اضافة الى خيمة وكيس نوم وفراش نفخ وبطانية صوف وحاسوب محمول وهاتف جوال ولوحة مفاتيح وجهاز تسجيل صوتي من نوع م بي 3 بسعة 5 جيغابايت قدرته 30 ساعة، وجهاز شحن طاقة شمسية للهاتف الجوال وللبطارية، وأجهزة ربط الكتروني، و منشور بثلاث لغات، وفرشاة أسنان، ولوازم الحلاقة.

سفرتي هذه هي اعتبرها هجرتي من حب الذات للوصول إلى حب الجميع . كان علي أن أصل إلى نحن. كنت في مكان ما وماكنت أستطيع البقاء بعيدا عن هذا.

شرعت في العمل من أجل تأسيس موقع انترنت باسم " ذرة السودان" لكي استطيع الوصول الى اكبر عدد من الناس. كان علي تجهيز الاجوبة لعشرات الأسئلة التي سيطلب اصحابها مني الاجابة عليها والمتعلقة بالامور التي دفعتني لاتخاذ مثل هذا القرار للسفر. كما أعددت منشورات صغيرا بثلاث لغات لاجل الطريق وراية كتب عليها " ذرة السودان" اضافة الى تقرير صحفي .

كان علي أن أقابل والدي واخبرهما بقراري الذي اتخذته واسباب اتخاذه ولم يتبقى سوى أسبوع واحد على السفر . لم تكن عندي الشجاعة الكافية لاخبرهما بأني سأذهب مشيا على الاقدام لأني كنت أريد أن يفهما حالتي فقط. كانا يعتقدان بأني ذاهب إلى السودان لأجل اعمال خيرية و أعود بعدها. طلبت منهما الاذن وودعتهما وغادرت دون أن أترك لهما فرصة لأسئلة كثيرة وهربا من لحظات الحزن والأسى في حالة كشفهما سفري مشيا ، اضافة الى

اني لم اكن اتحمل تصعيب وضعهما و وضعي انا .هربت لكي لا ادع لهم الفرصة لتوجيه الاسئلة عند معرفتهم بتفاصيل الرحلى وسيري على الاقدام .

لم أخبر أي أحد باستثناء زوجتي وشريكي وعائلتي وبعض الأقارب. أنا الان جاهز.

اليوم الأول، اليوم الصعب

بدأت المسير نحو السودان بتاريخ 03/06/ 2005 . وبعد أن أديت صلاة الجمعة في جامع السلطان أحمد لبست ملابس الإحرام في زاوية من زوايا ساحة المسجد الوسطى. وبدأت السير حاملا حقيبتي التي علقت عليها راية " ذرة السودان".

جاء البعض من قناة الجزيرة لأجل تسجيل تصوير قصير. وعند سؤالي عن هدف مسيرتي و وجهتي حاولت أن أجيبهم بشكل مختصر و شامل . لم يستمر التصوير طويلا وغادروا ذلك المكان لكي يرسلوا التسجيل لكي يبث بعدذلك. سمعت بعد عدة أيام بأنهم بثوا هذا اللقاء المصور.

كما حضر بعض الاصدقاء الى مسجد السلطان أحمد من الذين سمعوا بأني سأبدأ السير و أصر البعض منهم من جديد كي أتخلى عن فكرة السير ، وعندما تأكدوا بأني لن أتخلى عن ذلك تراجعوا عن إلحاحهم ودعوا من الله تعالى لي التوفيق، ومن ثم ودعوني وغادروا المكان .

بعد خروجي من مسجد السلطان احمد بدأت بتوزيع المناشير التي في حوزتي للسياح وإلى كل من اعترضني في الطريق. نظرات الناس عامة كانت تدل على الاندهاش والاستغراب، و لم يستطيعوا ان يجدوا اي معنى للامر . عدد قليل جدا من الناس الفضوليين جاؤوا نحوي لكي يحاولوا معرفة نوايا هذا الرجل الذي يرتدي ملابس غير معتادة، ويرفع راية غريبة. لعلهم كانوا يظنون بأني احد الاشخاص الذين يقدمون اعلانا عن بضاعة ما . اتاني على سبيل الصدفة مجموعة من الطلاب واقتربوا مني وأخذوا المنشور وتمنوا لي بالتوفيق بعد قرأته.

و لاجل التخلص من اللقاءات العاطفية اخفيت امر سفري عن الاقرباء حتى اللحظة الاخيرة كي لا أتحمل مشاعر لحظات الفراق، كنت أريد البدء بالسفر بأي شكل من الأشكال. و بضرورة أن أكون وحدي لكي لا تكون هناك أي ادع اي فرصة للشك او الشبهات وللتأكيد على ان مهمتي هذه إنسانية فقط .

اتجهت بعد فترة نحو أياصوفيا، ولم يكن السياح الأجانب يرغبون كثيرا في اخذ المناشير . كانوا يظنونني متسولا أو بأني اسعى للدعاية لاحدى المنتجات جراء تواجد اسم الموقع الالكتروني zurasudan.com المكتوب على الراية. كان الانترنت وهواتف الاندرويد النقالة ومستخدموا هواتف النت في تلك الفترة قليلة جدا. لذا لم يكونوا يلتفتون ،

ولا حتى ينظرون الى ما يجري و يرهقوا انفسهم لفهم مدلول هذا الشعار. كانوا يلقون النظرة ويذهبون الى حال سبيلهم. وجودي فوق منصة أياصوفيا الملون لم يكن يجلب انتباه المارة كثيرا

كنت وسط خليط من البشر مختلفي اللون و الملابس و الامم يشكلون فسيفساء جميل وكأني تلاشيت بين ذلك الزخرف. تركت أياصوفيا على يميني متوجها نحو جولهانة ، لم أكن أشعر لا بثقل حقيبتي ولا حتى بثقل جسمي . وبعد ان سرت قليلا واقتربت من منطقة سركجي بدأت أشعر بثقل الحقيبة التي احملها على ظهري كان وزنها 25 كلغ تقريبا. ذهبت على الفور إلى كشك صغير يقع في الزاوية المعاكسة اليسرى في تقاطع محطة قطار سركجي واشتريت منه علبة لبن رائب وشربتها. عبرت نحو الجهة التي توجد فيها محطة بواخر أمين أوني بعد أن التقطت أنفاسي قليلا على الكرسي الصغير الموجود أمام الكشك.

استانبول مدينة يقسمها مضيق البوسفور الى قسمين : الأوروبي و الآسيوي. كنت قد بدأت سفري من القسم الأوروبي، وكان علي أن أعبر إلى القسم الآسيوي لكي أواصل طريقي. كان أمامي خياران, فإما أن أستخدم جسر المضيق أو العبور إلى الجهة الأخرى باحدى البواخر. فضلت العبور الى الجهة المقابلة بالباخرة وقفت أمام موقف باخرة أمين أوني – أوسكودار. ركوب الباخرة مع حقيبة الظهر وسط زحمة ركاب كبيرة جدا لم يكن سهلا أبدا. وبفضل من الله و حسن الحظ كنت قد بدأت بممارسة الرياضة قبل الشروع في الرحلة بثلاثة أشهر بشكل متواصل وإلا فإنه كان من الصعوبة علي الصعود الى الباخرة في ظل هذه الزحام الشديد و إلا كنت سأضطر للسباحة نحو القسم الآسيوي. :)...

بعد أن نزلت من الباخرة تمشيت على طول الميناء ومن ثم توجهت نحو سوق اوسكودار الموجود في الجهة اليسرى للطريق في الأمام قليلا . في تلك الآونة اتصل بي عديلي مستفسرا :

- سألني : كيف حالك يا عديلي، أين أنت الان؟ خرجنا الى الطريق العام و نحن قادمون لكي نراك ومعي السيد مصطفى.
- اجبته : سلمت يا عديلي أنا بخير ، الحمد لله لا يوجد مكروه، أنا الآن اواصل طريقي على اية حال .
- قال: اننا قادمون لنراك، فإ اخبرتنا عن المكانسنأتي . أين أنت الآن حتى نستطيع أن نأتيك إلى هناك مباشرة.
- قلت: أنا الآن بالقرب من ميدان أوسكودار، ولكن لا داعي للمجيء، فأنا بخير
- قال: لا لا ، نحن الان في الطريق وقادمون إليك، وفي الحقيقة نحن على وشك الوصول إلى اوسكودار، قل لنا أين نلتقي ؟ .
- قلت: بالامكان أن نلتقي أمام مسجد السلطانة مهريماه الذي ستجدونه بكل سهولة فإني قريب منه .
- قالوا: حسنا سنكون هناك بعد قليل.

لم تمض سوى فترة وجيزة حتى جاؤوا، وبعد أن تعانقنا وسلمنا على بعضنا قال لي عديلي : لقد فعلتها ياعديلي , إلى أين تذهب هكذا دون أن تعلم أحدا ؟
لمحت الدهشة التي بانت في عيون شريكه السيد مصطفى. و التي انعكست بدورها على أقواله .

- سالني : چتين هل أنت حقا تريد الذهاب إلى السودان مشيا على الأقدام؟
- قلت: أجل أخي مصطفى، فأنا شاب سليم الجسم قوي وأستطيع الذهاب بإذن الله، قلت ذلك بطريقة مازاحة ...
- لا تسألني عن شيئ أخي مصطفى، انها حكاية طويلة وعندما يكون لدينا متسع من الوقت سأشرح لك ذلك.
- أجاب عديلي مخاطبا مصطفى قد تكون انت بعيدا ولكننا عدايل ولم يخبرنا بذلك، لقد تخطانا .

ضحكنا جميعا ، وجلسنا في الباحة حيث حدثنا قليلا عن السير وعن فراق الديار . بقي عديلي معي فترة من الزمان ازلت منه قلقه على زوجتي وعائلتها. و غادر المكان منشرح الصدر بعد أن رأى رباطة جاشي و عدم استقبالي له بانزعاج أو بشكل غير طبيعي. وعاد مطمئنا .
بعد ان أنهينا حديثنا ، وكنت أستعد في الباحة للبدء بالسير . في تلك اللحظة بالذات التقيت وجها لوجه بابنة أخي أمينة وابنها الصغير بالصدفة . بعد لحظات الدهشة الأولى عرفتني .

- صرخت وأسرعت نحوي قائلة خاااااالي وعانقتني وبدأت تبكي. كنت أنا أيضا اقاسمها الدهشة. ولم أكن أدرك ردة فعلي .
- اهدئي يا أمينة، أنا أيضا بخير فلا تقلقي. انظري الا يخاف أمير عندما يراك بهذا الشكل وهو طفل صغير وهو طفل ، انظري اليه انه سيبدأ في البكاء، اهدئي.
- حسنا يا خالي أنا هادئة لا تقلق ، أنت بخير أليس كذلك؟ إني لم اتمالك نفسي حينما رأيتك فجأة امامي .
- انظري أنا في حالة أفضل منك ، إضافة الى هذا فأنا أضحك وأنت تبكين . قلت لها ذلك وأنا أضحك.
- أرجوك لا تفعل هذا يا خالي... عندما سمعت الخبر قلت هل جن جنون خالي ، ماذا يفعل ؟ لقد حزنت كثيرا.
- قلت لها وأنا أضحك: انظري أنا مثل الفحل، كما ترين و عقلي لا يزال في مكانه، عندها أحست أمينة قليلا بالراحة وبدأت تضحك.
- و بعد أن تحدثنا فترة قالت لي : اياك يا خالي أن تغادر المكان سأنادي أمي.
- بالله عليك يا أمينة لا تفعلي ذلك، فأمك إنسانة حساسة جدا، وعندما تراني قد تسوء حالتها أرجوك لا تناديها.

- لا لا يا خالي، فإني لو اخبرتها بأني رأيت خالي اليوم في أوسكودار وتحدثت معه ، قد تموت هي من القلق وتقتلنا نحن معها. لماذا لم تخبرها على الأقل من أجلها هي، وهي في الحقيقة تفكر الان بعدة أشياء. سأخبرها لتأتي وتراك وترتاح قليلا.

لم أجد مخرجا سوى الموافقة . اتصلت أمينة بسرعة، اتصلت باختي نزهات و استدعتها. نزهات أختي هي الكبرى، عملت مدرسة بعد أن أنهت دراستها في مدرسة المعلمين، والان متقاعدة. لها روح حساسة جدا وذات طبيعة عجولة ، تبدوا كأنها صعبة المزاج ولكنها في الحقيقة إنسانة عاطفية جدا. إنها إنسانة طاهرة ومنظمة ودقيقة جدا. لا تتحمل الظلم أبدا، ولا توطئ رأسها لآي كان . تدافع عن الامر ان كانت على ثقة بانه حق ، أما إذا كان خاطئا فلا تتواني عن قول ذلك دون خوف او وجل . ونظرا لأنها ذات تركيبة تتحمل المسؤوليات فقد أرهقت نفسها كثيرا في حياتها العملية وامور البيت والزوج الأطفال الأربعة . بيتها قريب من ساحة أوسكودار. بعد فترة قصيرة ظهرت أختي من بعيد. كانت متوترة وقلقة وغاضبة جدا. كانت تتقدم نحوي بسرعة وهي تحث خطاها. تبكي من جهة وتعاتبني بشدة وهي ترتعش و عندما وصلت عندي عانقتني وأجهشت بالبكاء.

- حفظك الله ، لقد قتلتنا من القلق عليك، إلى أين تذهب وتترك عائلتك وأولادك؟ يبدو أننا لم نجر اذنيك جيدا عندما كنت صغيرا، لذلك فأنت تتصرف على هواك. كانت تعاتبني بشكل لذيذ.
- قلت لها ضاحكا: أنت والله محقة يا أختي ولكنك تأخرت... ها انتي تريننني الآن ،فقد عزمت ولن احيد حتى ولو قرصت أذني من جديد.
- في الحقيقة فأنا غضبت على زوجتك ايضا، لم سمحت لك بذلك؟ لوكنت مكانها لما أذنت لك بالذهاب أبدا.
- ضحكت مرة أخرى وقلت لها: هي تعرف أني لن اقوم باعمال سيئة، حسنا, تعالي لنجلس ونتحدث قليلا. سترين بأنك أنت أيضا ستسمحين لي بالذهاب.
- بالله ياحبيبي أنا لن آذن لك بذلك أبدا. لقد أصيبت العائلة بصدمة بسبب فعلك هذا. فأبي وأمي أيضا قلقان عليك كثيرا.
- لقد تحدثت مع أمي وقلت لها لا تقلقي، وقد شعرت بالراحة عندما سمعت صوتي هدأت.
- طبعا هما لن يقولا لك بإننا في حالة سيئة وإن معنوايتهما منهارة. والله أنا التقيت بهما، ولم يكونا على مايرام وليسا مرتاحين.
- حسنا, أنت محقة بأنهما لن يرتاحا أبدا، لذى ساعديني أنت حتى نخفف قلقهما، حاولي أنت أن تهدئي من روعهما.
- حسنا حسنا لنترك هذا الآن. ستؤذي نفسك بهذا الطريق، استعد رشدك وعد إلى البيت، كفى ذلك. لقد امسكت بك الآن ولن ادعك أبدا.
- اجل أختي العزيزة قد تكون عودتي صعبة، ولكن تعالي لنذهب سوية .

- أف أف! هل الوقت الآن وقت مزاح؟ أنا جادة في الأمر، سأتصل الآن بالسيد علي، وسنأخذك إلى البيت.
- حبيبتي نزهات أرجوك لا تفعلي هذا ، تعالي لنجلس قليلا ونتحدث، انظري شريك عديلي هنا, اتى لزيارتي ايضا تعالي لاعرفك به . قلت ذلك في محاولة لتغيير موضوع الحديث .

وبعد ان قام عديلي بالتعريف بشريكه حتى عدنا بسرعة الى الموضوع الرئيسي رغم تطرقنا إلى مواضيع أخرى.

- عندها خاطبتني بصورة مفاجئة : اخبرني, هل تظن نفسك بأنك المهدي المنتظر؟ بملابسك الغريبة هذه ما هذا الذي تفعله أنت ؟
- نزاهت أختي راجاءا لا تقولي هذا ، أنك تعرفين بان قواي العقلية لم تختل الى هذا الحد. كما أنك تعرفين أني لست من أولئك الذين يقومون بمثل هذه الادعاءات. كل إنسان يمر في فترات تغيير في حياته ، وقد يعاني من آلام من بعض الأمور. كما أنه قد يحاسب حياته التي عاشها ، وقد يقرر أن يعيش حياة جديدة، بل قد يقرر أن يغير حياته بصورة جذرية . هل بالامكان وصف هذا الانسان بأنه مجنون او مختلف.
- أنا لست وراء اثبات اي ادعاء . لكني فقط حاسبت نفسي و مغزى الحياة التي أعيشها، وأدركت بأن الحياة التي أعيشها الان ليست صحيحة وما علي سوى اجراء تغيير نمط حياتي الى الصورة الصحيحة. وما هذه الا خطوة من هذا القرار...لقد عملت طوال 40 سنة، وجمعت ما يكفي من الأموال، لكني في الحقيقة فطنت إلى أني لم أستثمر أي شيء لنفسي. والان فإذا ما مت فسأموت فارغ اليدين حتى لو كانت جيوبي مليئة بالأموال.
- لعل ذنوبي أكثر من حسناتي. إذن فما المعنى من حياة كهذه . عملت ليل نهار دون أن أسأل نفسي لم هذا العمل اذا ؟ اليوم أنا سعيد ومتمتع ولكن ماذا سأفعل لحياة ليس لها غد لها . لذا قررت أن أقضي حياتي الباقية بالطريقة التي اراها صحيحة.
- نحن لا نقول لك لا تفعل الخير ولا تساعد الناس، لكن تعال واستشر بعض العلماء وتحدث معهم، وأسألهم عن الذي يجب عليك فعله، وكيف يجب أن تقوم به. هناك عدة طرق لمثل هذه الأمور فلا داعي لما تفعله أنت.
- حسنا حبيبتي نزاهت ، لقد حاولت أن أشرح لك المشكلة ، لقد اخترت لنفسي طريق حياة جديدة. فإذا لم أحققها سأكون حقا قد خنت نفسي. قد لا تتوفر لدي الفرص والامكانات المتاحة لي اليوم ، قد لا تتوفر غدا. اليوم لدي هذه الإمكانيات وعلي أن أقوم بما يمكن القيام به دون أي تأخير وإلا سأندم على ذلك طوال حياتي، واتمرض ، و أكون حينها مختل العقل ...

استمر حديثنا على هذا المنوال لفترة ما. شعرت اختي نزهات بعدها بالراحة، وهدأ روعها عندما سمعت كلامي وأجاباتي عن أسئلتها وتوقفت. و أخيرا وفقت على أستمراري في الطريق دون ‘تراض يذكر رغم عدم اقتناعها كليا .
ودعت زواري، وعدت مجددا إلى الطريق بعد ان جلست قليلا أمام منتزه أوسكودار حيث تجرهت قدح شاي انطلقت بعدها نحو قاضي كوي. وعندما كنت في طريقي نحو حيدر باشا بدأت الشمس بالمغيب . خلال مروري أمام السوق الواقع في الجهة اليسرى قبل الدخول الى مركز حيدر باشا رأيت عدة شابات ينظرون نحوي . عندما التفت نحوهن حولوا انظارهن. كان مظهرهم يوحي بالقلق و الارتباك قليلا ، بعد ان نظرت اليهن عدة مرات و ما ان لاحظت التفاتهن فتحت ذراعي متوجها نحوهن عندها لذن بالفرار. عندما رأيتني مرتديا ملابس الإحرام البيضاء ظنوا بأني ميت بعث من القبر في ظلام الليل.
عندما اقتربت من مدخل السوق اختبأن في الزوايا المحاذية، مخفيات رؤوسهن يراقبون الطريق. كن خائفات و لكنهن مستغربات، يحاولن النظر خلسة لمعرفة ما يجري رغم خوفهن . كنت متأكدا باني لو فتحت ذراعي في مدخل السوق، واتجهت نحوهن لما استطاعت واحدة منهن أو اثنتان الهرب من الخوف، وربما يسقطن مغشيات عليهن. أنزلت يدي مبتسما لأني لم أرغب بتخويفهن ، وهززت يدي مسلما عليهن . عندها ارتحن وشعرن بالاطمئنان عندا رأين بأني انسان ، بعدها بدأن بالضحك على حالهن ...

اليوم الثاني- التدبير هو الأفضل...

بعد أن قضيت الليل في ساحة مسجد صغير في حي فنربغجة قمت في الصباح الباكر بحلق ليحتي، و أستعدت لمواصلة الطريق. بعد تجربة اليوم الأول علمت بأن السفر بالكثير من الأشياء سيكون صعبا لذا قمت بعزل بعض الأشياء غير الضرورية جدا و أرسلتها إلى البيت مع شركة شحن، كانت لوازم صغيرة مثل النعال وبطاريات جهاز الشحن وجهاز شحن البطاريات ولوحة شحن الطاقة الشمسية وأنارة رأس تضيئ لمسافة 60 الى 70 م. كما أن المناشير التي أخذتها لكي أوزعها في الطريق كانت تشكل ثقل 3 أو 4 كلغ على ظهري. كانت حقيبتي التي أحملها على ظهري بحدود 20-25 كلغ، وسيخف وزنها عدة كيلوغرامات بعد استغنائي عن بعض الحاجات . إستغنائي عن نصف المنشورات والحاجات الاخرى خففت الام عضلاتي و خصري و خففت حملي كثيرا.
شربت حبة مخففة للألم بعد أن تناولت إفطارا خفيفا. و قبل أن أبدأ السير أديت بعض الحركات الرياضية استعدادا للسفر ، و رغم اني جهزت نفسي للسفر و مارست الرياضة الا اني احسست بآلام في اقدامي وخاصرتي البارحة لعدم تعود بنيتي على سير 20 أو 30 كلم في اليوم تحت وطأة ثقل حقيبتي ظهري. فبدلا من الرضوخ لالام السير في بداية الامر

فسيكون من المفيد جدا تناول حبوبا مخففة للالام خاصة في 15 يوما الأولى لكي أكون أكثر تحملا، وليتعود جسمي، وإلا سأجد صعوبة في مواصلة السير، ولن استطيع رفع قدمي بسبب الالام خلال فترات الراحة. لذا كان علي اتخاذ جملة من التدابير المعقولة بالنسبة لي منذ بداية الأمر.

كنت أجيب بشكل مقتضب لمن يسألني أثناء سيري من الناس خلال مروري بينهم في حي قاضي كوي. شارع بغداد المزدوج هو واحد من أكثر شوارع اسطنبول طولا وإزدحاما . خلال سيري في شارع بغداد كان البعض من العاملين في المحل التجارية يهرعون نحو الباب عندما يروننني يندفع شخصان أو ثلاثة منهم وأحيانا 3 أو 4 أشخاص إلى الأبواب لينظروا إلي، ويحاولون فهم ما يجري، وكانوا يتشاورون فيما بينهم ويشيرون نحوي . كان البعض منهم يحاول قراءة ماكتب على الراية، و منهم من يلوي شفتيه للتعبير عن عدم فهمه و يهز رأسه. وكان البعض منهم يلتقط قطعة ورق ليكتب عليها عبارة " zurasudan.com " الموجودة فوق الراية.

كنت أواصل تقدمي في الرصيف. حيث واجهت صعوبة في السير على الرصيف في عدة نقاط. لانهم قاموا بتقليم أغصان الأشجار الموجودة في الأرصفة بشكل منخفضا جدا. ومن الطبيعي ان يجد اي إنسان طويل القامة مثلي صعوبة في السير على الرصيف دون ان ينحني لفترة طويلة. كان من الصعب علي أن أمر من هناك دون أن انحني جراء هذه الاشجار. كنت اجد صعوبة بالسير بسبب الراية التي علقتها على حقيبة ظهري ، فقد كنت اتعثر بالاغصان من حين لآخر وأتوقف. و عندما تعذر علي السير بهذا الشكل اضطررت لترك الرصيف والسير على حافة الطريق .

لم أكن أهتم كثيرا بالمارة أثناء سيري في الرصيف، بيد أني هنا بدأت بالفات نظر سائقي السيارات الذين يسيرون في الشارع لعدم تعودهم على رؤية شخص راجل في طريقهم . كان سائقو السيارات وركابها يعيدون النظر الي مرة اخرى عندما يلمحونني . كان سائقوا السيارات يخفضون سرعتهم ، ويجتهدون كي لا يصدموا السيارات التي تسير أمامهم ومن خلفهم مما تسبب في حالة فوضى في حركة المرور. صعدت فورا الى الرصيف خوفا من أن أتسبب في حادث مروري في حالة قيام احدهم بالضغط على الفرامل بشكل مفاجئ أو تحويل اتجاه سيارته بصورة مفاجئة .

أثناء سيري على الرصيف كنت أجلب كثير من سائقي السيارات. بعد أن تقدمت قليلا انتباني شك. هل فوضى حركة المرور هذه سببها شكل ملابسي أم بسبب الراية التي على حقيبة ظهري أم ليست سوى صدفة؟ ولكي أفهم الأمر قررت أن اجري تجربة، نزلت إلى حافة الطريق مرة أخرى . و بعد قليل رايت أن حركة المرور عادت الى الفوضى مرة اخرى علمت بعدها بأن هذا الأمر ليس صدفة فاضطررت لاختيار معاناة الرصيف على راحة السير على الطريق حتى لا أجلب انتباه السائقين و أتسبب في حادث مروري.

يوجد في شارع بغداد عدد كبير من المقاهي ومحلات بيع الحلويات والمطاعم، وكلها لها ساحات جلوس واسعة مفتوحة على الشارع. و نظرا لان اغلبية الناس يفضلون الجلوس في هذه الساحات المفتوحة، كنت أيضا أجلس في إحداها عندما أشعر بألتعب أو أحتاج الى أشياء كالأكل والشرب. ورغم أن نظام تهوية حقيبة ظهري جيدة إلا أنني كنت أعرق أثناء السير، واختار الأماكن المنزوية كيلا أصاب بضربة هواء عند جلوسي للراحة.
يحس بصعوبة في التنفس من الحرارة والارهاق وأن قواه قد خارت تلك هي اللحظات التي عشتها أنا، و من الصعوبة شرح لذة تناول المثلجات والمشروبات الباردة التي لا توصف في مثل هذه الحالات ، كذلك كنت أنا فكلما ألعق المثلج أشعر وكأن تعبي ودرجة حرارة جسمي ينخفضان بشكل ملحوظ. أني لا أتناول المثلجات لأول مرة في حياتي فقد كنت آتناولها بين حين وآخر . ولكني لم آتناول مثل هذه المثلجات اللذيذة والمنعشة منذ سنوات طويلة .
كنت قد تخلصت من التعب و الارهاق نوعما حين اتصل بي أخي الكبير علاء الدين. ترددت للرد عليه، لاني لا أعرف ماذا سأجيبه عند معاتبته لي، فتحت الهاتف وكلي خوف من حساسية الموقف.
أخي علاء الدين هو ألاكبر في العائلة. عمل في الإدارة المالية بعد تخرجه من الكلية، ثم احيل الى التقاعد بعد أن عمل سنوات طويلة. فتح مكتب مشاور مالي لأنه بطبعه لا يحب البطالة وخاصة بعد ممارسته المهنة بمدة طويلة. و نظرا لأن أخي يتمع بمزاج عصبي فإنه يثور بسرعة و لكنه يهدأ بسرعة أيضا . إنه شخص لا يحمل ضغينة لاحد ، كلامه عذب وبنية حسنة . انفعالي ودود . يهتم جدا بعائلته، ويضع دائما أولويات عائلته في صدارة اهتماماته. بل كان يهمل نفسه أحيانا لاجلهم. لا يتمالك اعصابه أحيانا أمام بعض الأحداث المهمة ويشهر عصبيته فورا. و لانه عاطفي المزاج كان يلين بسرعة. لذلك لم أرغب في لقائه في بداية الامر . هو دون شك غاضب عني لأني لم أخبره بخروجي إلى السفر سيرا، لذا تهربت من هذا اللقاء. بعد السلام والسؤال عن الأحوال سألني أخي:

- يارجل انا لم افهم الى الان كيف تقوم بمثل هذا العمل. يا بني إلى أين انت ذاهب هكذا دون أن تخبر أحدا ، أي عمل هذا ؟
- لا تسألني يا أخي . هل تعرف أني فكرت كثيرا بالامر و لكن تأكد لو كنت قد أعلنت عن نيتي لكانت ردات الفعل أشد صعوبة، ولم يكن احد يوفقني الرأي .
- بالطبع لم نكن نقبل ، الذي تقوم به ليس عملا مقبولا أبدا.
- حسنا ، إني خمنت رأيك هذا مسبقا . لذا لم أخبرك، ولم أخبر الكثير من الناس، والا لكنتم منعتموني من السفر. وكانت الامور ستزداد سوءا بالنسبة لي و لكم انه امر صعب ، لذا اضطررت إلى عدم إخبار أي أحد عن سفري، إني لم اكن ارغب بان تجري الامور بهذا الشكل.

- أراك حللت المشكلة ، إلى أين تذهب تاركا عملك وعائلتك وأطفالك، هل جننت يابني. قالوا لي بأنك ستسافر مشيا على الأقدام هل هذا صحيح؟
- نعم صحيح. سنتحدث هذا عند اول لقاء لنا انشاء الله . لا تقلق لقد اتخذت كل التدابير فيما يتعلق بزوجتي وأطفالي وعملي. أما أنا فالحمد لله بخير حتى أن حالتي يمكنني أن أقول إنها أفضل منك، صدقني تعال وانظر. قبل قليل تمتعت بتناول المثلجات في شارع بغداد، ماذا تريد أكثر من هذا أخي. إن شئت تعال هنا، لنتحدث هذا ونتقاسم همومنا.
- جيد، جيد، وكان كل شيئ مرتبط بتناول المثلجات؟ أستخدم عقلك وعد إلى بيتك فورا ؟ في الحقيقة فأني سآتيك قريبا، عندها سنرى ما الذي سيكون ...
- حسنا أخي، على الرحب و السعة سأنتظرك. اذا اتيت فسادعوك الى تناول الطعام و المثلجات ...

كنت أعلم بأني لن أستطيع أقناع أخي بالهاتف انه لن يقتنع أبدا طالما لم نتحدث وجها وجها. لذا حاولت جهدي أن لا اطيل الحديث وادخل في التفاصيل ، و ساشرح له الامر بالتفصيل عند قدومه إن شاء الله ونتحدث وجها لوجه وقد لا يعطيني الحق في ذلك، ويطن باني قررت ذلك في لحظة جنون . إلا أنه حتما سيقتنع بأن لدي هدف منشود ، وأني لا أَغامر .

بدأت بالسير من حي سعادية متوجها نحو حي كوزتبه، اتصلت بي زينب وشيماء ابنتا أختي، و أخبرتاني بأنهما في شارع بغداد، وتريدان رؤيتي، أخبرتهما عن مكان مناسب للقاء. لم يمض وقت طويل حتى جاءتا وعانقتاني.

بعد أن تحدثنا لمدة ونحن واقفين قررنا المشي معا . كنت أريد منهما أن تعيشا وأن تفهما هذه المشاعر قليلا و أن تشعرا بالراحة. في الطريق شاهدتا عن قرب نظرات الناس المستغربة واهتمامهم وأسئلة السائلين .

لقد عاينتا هذه الفجوة العميقة التي بين المناظر التي تحيط بنا و بين معنى الراية التي أحملها ، ورأتا بشكل ملموس محاولاتي لاكون الجسر الذي يحاول ربط هاتين النقطتين عمليا وعدم اهمية اهتمامي بشخصي .

خلال سيري لم يكن هناك أي شيء يدل على تشتين يوجه صوي عدى الوجه الذي أملكه والذي لم يكن باديا بشكل واضح . الذي يبان مني لم يكن سوى الملامح... هذه الملامح قد تكون لي أو تكون لشخص آخر لا فرق. الراية وحمولتي بقدرتهما المعنوية تحملان قوة و ضغطا كبيرا يضمحل من تأثيرها جسمي ... فلا فرق اذا ما تغير حامل هذي الرمزين كل يوم وقد لن ينتبه أحد لذلك .

ملابس الإحرام التي تحمل قيما كبيرة لم تكن تدع للكلام مكان وكذلك الراية الخفاقة التي تحمل معاني كثيرة . كانت هذه الرموز بحاجة إلى قلب وجسد ، لكي يحملانها و يرفرفا العلم . قد يكون هذا قلبي و جسدي أنا وقد يكون أي شخص آخر...أصبح هذا من نصيبي

الان ومن يعرف من الذي سيكون غدا . لذا فإني لا أشعر بالعار من حمل هذه الرسائل ، بل اعتبرها شرفا . واحمد لله عز وجل الذي أكرمني بهذا...

بعد أن مشينا فترة ما جلسنا مع ابنتي أختي نتحدث في إحدى المقاهي . و بعد أن استمعتا إلى غايتي وما سأقوم به اخبرتاني بأنهما لم يجدا هذا الجهد والسعي دون مغزى، وأنهما تدعمانه عن طيبة خاطر و تشعران بأنهما إشتركتا في هذا المسار . خرجنا من المقهى وبدأنا السير سوية من جديد. سارتا بجانبي والسعادة تغمرهما، بل لم يكتفيا بذلك و اتصلتا بأصدقائهما واستدعتاهم. جاءت إثنان من صديقتهما، ومشيتا معنا مدة و قمنا بالتقاط الصور.

لم يخجلن من السير معي رافعات رؤسئهن وهن في عمر الشباب الذين يكونون اكثر حساسية تجاه المظاهر التأثيرات الخارجية، بل سرن معي فخورات. كن يدركن بأنهن يمشين مع هذه الرسائل و الشعارات الإيجابية وليس معي ، وأنهن يساهمن في رفرفة القيم ، لأن القيم التي ترفرف هي القيم التي يؤمنَّ بها ويعشنها...

بعد أن مفارقة ابنتا أختي دخلت إحدى مقاهي الانترنت. و انزلت حقيبتي وارتبطت بالانترنت. تفقدت التعديلات الأخيرة في موقع "zurasudan.com"، وأرسلت بعض الرسائل، ثم شربت كأس عصير برتقال. خلال تناولي العصير اتصل بي أخي الاكبر مني خير الدين عبر السكايب.

استقر أخي خير الدين في أمريكا منذ زمن طويل وهو عضو في هيئة تدريسية باحدى الجامعات هناك. كان في صغره أكثر طفل شراسة في العائلة، وكانوا ينعتونه كما يقول المثل " العجل المشاكس سيكون ثورا عاقل"، حقا انه شخص ينطبق عليه القول. كلما كبر في العمر أصبح أكثر رصانة، و ها هو الآن أستاذا جيد في الجامعة. كنت أولي اهتماما كبيرا لاقواله و اعير أنتبهي إلى توجيهاته ومترحاته لانه يفكر باساليب علمية. تحدثنا حول مسألة السفر مشيا. وبين لي اقتراحاته وانتقاداته وأخيرا الامور التي تقلقه. لديه مخاوف كبيرة عن ما يتعلق بالإمان و المبيت طوال الطريق. ويعرف باني ساقضي الليالي في اماكن مثل المساجد و محطات البنزين.

- أنت قد قررت وستؤدي المهمة، اجل فهمت ذلك. كما اني على علم بانك لن تتخلى عن هذا بسهولة. ولا أحد الآن يعارض سفرك سيرا، ولكننا جميعا نريد الاطمئنان من صحتك وسلامتك.
- أنا مدرك هذ لذلك . وتحقيق هدفي هذا لا يعني البتة إفساد حياتي أو التضحية من أجل لاشيء، إنما أقوم بذلك لكي استطيع ان احقق الفائدة . لذا فإن على ان احافظ على صحتي و أن أكون سليما لأبقى على قيد الحياة. سأعمل كل ما في وسعي للحفاظ على صحتي وسلامتي، فلا تقلق يا أخي.

- كيف تنتبه إلى هذا! وكيف ستبقى سليما وأنت تقضي لياليك هنا وهناك؟ فالليل لصوصه وكلابه و مجرميه ، كيف ستحافظ على سلامتك وحيدا؟ هذا الامر يشكل أكبر مصدر قلق للعائلة.
- أعدك أني لن أبات في الأماكن غير الآمنة، وسأتجنب التصرفات التي قد تهدد صحتي. لذا فأني لن أتحرك بصورة عشوائية. ولن أخطو اية خطوات دون الاستعدادات والتحري الضروريان .
- حسنا و لكن هذا لا يكفي لطمئنتنا. فأنت بمبيتك في الخارج تعرض صحتك وأمنكإلى الخطر. ستفهم ما اقول عندما تفكر بعقل هادئ وستعلم بانك خاطئ. أنت لا تشعر بذلك الان لأن في عينيك غشاوة ، ولكننا نرى ذلك من مكاننا هنا، إننا جميعا غير مرتاحين. لن نقول شيئا فيما يخص سيرك. حاول أن تجد حلا يريح عائلتك ويريحنا جميعا، افعل شيئا، وقل شيئا يطمئننا، وإلا فلن ترتاح أنت ولن نرتاح نحن أيضا، وعليك أن تحسب حسابا لتأثيرات هذه الحالة عليك، لا يمكن أن تمشي الامور بهذا الشكل.
- حسنا أخي خير الدين، أنا لا نية لي بأن أدخل نفسي في مغامرة أو خطر لا فائدة منهما، سأفكر فعلا فيما قلته لي، وسأقيم الاوضاع مرة اخرى ، وسأسعى لإيجاد حل يريحني يريحكم أنتم أيضا.

بعد أن انهينا المحادثة عبر السكايب بدأت فعلا أفكر في ما قاله أخي. في الحقيقة كان القلق يساورني جراء المصاعب التي صادفتني في المبيت من أول يوم وكنت افكر بالمصاعب التي سأواجهها. لم تكن لي القدرة على الاعتراف بذلك أو لم تكن لي القدرة على ضبط احاسيسي . لم تكن لدي امكانيات النظافة والحلاقة وتغيير ملابسي و قضاء الحاجات الطبيعية و تأمين السلامة ليلا لقد شكلت مشكلة كبيرة جدا لي في الليلة الاولى، كما أحسست بحاجة الى شحن الهاتف والحاسوب لكي استطيع كتابة مذكراتي ، هذه الإمكانيات غير متوفرة في المكان الذي أتواجد فيه . في الحقيقة لم يكن لدي سبب مقنع لكي اقضي الليالي في العراء.

كنت قد قررت ألمبيت في العراء بهدف أن أعيش الحياة التي يعيشها المحرومين والمظلومين ولاجئي الحرب الأهلية و اعيش آلامهم ومآسيهم ، و غايتي القيام بفعل رمزي لانتقاد الأسباب التي دفعت هؤلاء الى ماهم عليه . لقد عشت هذا فعلا في اول يوم . و إذا ما أصريت على موضوع المبيت في العراء طوال مدة سفري التي ستستمر سنة واحدة فانني سافقد صحتي وسلامتي حتما . كان على معرفة خطورة الامر . لقد بدأت السير في طريق طويل وسوف كنت اجبر ان انام في العراء , ولكن لم الاصرار على المبيت في العراء عندما تخدمني الضروف ؟.

في حالة اصراري على قراري فاني قد اعرض الرسالة التي انوي إتمامها الى وقد كان لكلام اخي خيرالدين تأثيراته التي دفعتني الى التفكير بصورة ادق كان علي الاهتمام بصحتي

وسلامتي ما امكنني ذلك وفي عكس ذلك فإنني لن استطيع اكمال مهمتي و تحقيق اهدافي و قد اضطر الى ترك السير غدا . اضافة لذلك فإنني اذا لم ابات في المكان المناسب فسوف لن استطيع شحن حاسوبي و لا استطيع كتابة أي شيئ كما لن استطيع تتبع المصادر الاعلامية و لن استطيع الحفاض على نظافة جسدي اضافة الى انني قد اتعرض للسرقة او هجوم .

بعد ان فكرت طويلا قررت على عدم الاصرار في فكرة المبيت بالعراء وان قراري هذا سيساعدني في الوصول الى هدفي المنشود اضافة بث الطمأنينة في العائلة وفي نفسي ايضا . بعد ان قررت ذلك هاتفت أخي خير الدين واخبرته بانني بعد اليوم ساقضي الليالي في الفنادق والغرف المؤجرة وغير ذلك من التي اجدها في الطريق . كما وعدته بأنني سأحافظ على صحتي وسلامتي قدر ما استطعت. اعرب عندها عن اطمئنانه وسروره من قراري . في حالة عدم وجود هذه الأشياء بعد مدة ستنكسر عزيمتي وسيردعني ضعفي. فإذا لم تساعدني صحتي على الاستمرار فإنه لا يمكنني أن أقوم بأي شيء، وقد أكون وقتها مضطرا إلى التخليى عن نصف السير. إضافة إلى هذا في حالة عدم الإقامة في مكان مناسب فلن أتمكن من شحن حاسوبي، ولن أستطيع كتابة كتاباتي و القيام بالأعمال الإعلامية، حتى أني لن أستطيع القيام بالنظافة بشكل صحي، كما أني لم أكن متأكد من القدرة على مواجهة السرقة أو أي هجوم ضدي.

بعد ذلك اتصلت بزوجتي وأخبرتها بذلك. عندما قلت لزوجتي لاول مرة بأني سأسافر وسأذهب إلى السودان , لم تقل لي اية اقوال مثل " إذا كنت مضطرا للذهاب فاذهب. ماالذي سيحصل لنا وللأطفال، و كيف تتركنا هنا وحيدين ، ماذا سنفعل نحن بعدك ".بل قالت اني اثق بك وانا متأكدة بانك لن تقوم بعمل خاطئ" كلامها هذا زاد احترامي وحبي لزوجتي الوقورة وصاحبة القلب الأصيل لموافقتها دون تردد رغم المخاطر التي قد أواجهها ورغم المسؤوليات الكبيرة التي ستقع على كاهلها...
عندما أخبرت زوجتي بموضوع تدابير السلامة والمبيت التي اتخذتها قالت لي : " أنا أصدقك وأثق بك". في الحقيقة فإن اموري اصبحت أصعب ، فقد تركت لي المسؤولية . ولكنها قد تكون قد ذكرت ذلك لكي لا تتزعزع ثقتها بي تأكدها من أني سأفعل كل ما في وسعي من أجل أن لا أزعزع هذه الثقة... علي الآن أن أكون اكثر فطانة وحذرا.
بعد هذه المحادثة تأكدت بأن القرار الذي اتخذته عين الصواب . فإن هدفي ليس إلا الاعلان عن رسالة و دعوة . كنت ساخاطر بهدفي كما كنت لا احقق اية مكاسب عدى إزعاج نفسي أو إزعاج الآخرين . انشرح صدري واطمأن قلبي...
بعد أن تناولت الحلويات في إحدى الكافيهات التي دخلتها تركت مناشير لكل من الجالسين على الطاولة وغادرت المكان ، خلال استعدادي لحمل حقيبتي والانطلاق في الطريق وقفت سيدة من الذين قرؤوا المنشور وقالت وهي متوجة نحوي :

- أهنئك سيدي يسعدنا نرى بأن الافعال الحسنة لا تزال , هذا عمل جميل وحسن ، اننا معكم و ندعمكم .
- شكرا سيدتي، صدقيني بأن رؤية إنسان حساس أمثالك أمر جميل جدا، تبسم كلانا وواصلت طريقي...

حل المساء وكان علي أجد لي مكانا للمبيت . بدأت السير نحو غرف للايجار في حي فناربغجة كنت قد عثرت عليها في الانترنت، وصلت المكان حوالي الساعة 10.00 ليلا. و بعد أن استقريت أخذت حماما جميلا وارتحت. ما أن استقريت في الغرفة اتصل بي صديقي برهان قائلا بإنه يرغب بزيارتي من صديقه مع أخيه، أعطيته عنوان المكان.
و نظرا لانه يسكن في منطقة اسكودار وصلا إلي دون تأخر. كانت زوجة أخي عدنان قد إعدت لي فطائر وكعك لأجل الطريق وجلبوها معهم . لم تتح لي الفرصة لتناول طعام العشاء لتصبح الفطائر اللذيذة عشائنا التي تناولناها سوية. ومن ثم تناولنا الكعك الجميل مع الشاي.
بعد أن تحدثنا مع برهان وأخيه الاكبر حول ما أنوي القيام به وعن سبب قيامي بهذه المبادرة تحدثنا بعدها عن مواضيع عامة و المواضيع العائلية. أخذنا الحديث مع بعضنا فلم ننتبه الا وقد مر وقت طويل على تجاوزنا منتصف الليل. بدأت أتثائب بسبب الإرهاق عندها قال لي برهان:

- حسنا، انت متعب، كما أن الوقت متأخر و لا نهاية للكلام ، لنذهب نحن الان إذن.
- كلا، كلا لا تهتما لتثاؤبي فأنا لا احس بحاجة الى النوم الان ، ومهما حاولت ايقافهما الا انهما اصرا على تركي متمنين لي اللقاء مرة اخرى وإفترقنا عدت بعدها إلى غرفتي.

اليوم الثالث- تنبيه صديق

كنت قد مشيت البارحة بحدود 20 - 30 كلم . استيقظت في الصباح لأرى ساقي وعضلاتي و قد انتفخت. أديت فرض صلاة الصبح بصعوبة شديدة، تناولت بعدها حبة مسكنة للآلام، ثم عدت مجددا إلى النوم. عندما استيقظت في الساعة 9.30 أحسست بأن حالتي قد تحسنت قليلا. خرجت الى البهو لتناول فطور الصباح. قائمة الفطار في هذا المكان كانت غنية لا تتوفر عادة بمثل هذه الاماكن. تناولت الحليب الذي وضعت فيه اللوز والعنب المجفف و كمية من مسحوق الشوفان والقليل من العسل, ومن ثم أنهيت فطوري بكأس عصير فاكهة مع شريحتا خبز وطماطم و زيتون وقطعة من الجبن. عندما اكتب هذا سيقول البعض : انظروا الى هذا الرجل الذي يدعي استنكاره للفقر والمجاعة...

قبل مغادرة المكان قمت بكتابة مذكراتي اليومية. و بعد فترة من الزمان أخليت الغرفة، ونزلت إلى البهو .و ارتبطت بالانترنت في محاولة لإرسال بعض الرسائل و القيام ببعض التعديلات في موقع "zurasudan.com" إلا أني فشلت في الارتباط بالانترنت جراء عدم ملائمة جهاز البث . و لكي لا أتأخر عن مسيرتي فترة أكثر انطلقت في السير.
و زالت التشنجات من قدمي كلما تقدمت في المسير. توجهت نحو القسم العلوي لحي قلامش ونزلت نحو ساحلها .اصبحت مسيرتي اعتيادية. واتخذت طابعا يتكرر كل يوم. استفيق صباح كل يوم وأتقدم نحو هدفي. عائلتي و احبائي ايضا وافقوا على طريقتي هذه ، وبذلك انتهت بعض المعوقات .
لم يتبقى امامي سوى شيء واحد يقلقني وهو عدم امتلاكي القدر الكافي من المعلومات والبنى التحتية الإعلامية اللازمة لبث افكاري أمام الرأي العام في حالة وصولي إلى الهدف . كنت قد جهزت بعض الإستعدادات قبل البدء في السير ولكنها في الحقيقة كانت غير احترافية و غير كافية. كنت أمل ان أكمل النواقص خلال فترة سيري و قبل مغادرتي تركيا. كانت هذه الأفكار ترهقني، عندما وصلت حي مودا قام أحد الشبان من مجموعة مرت عبر الطريق برفع يديه في الأعلى وبدأ يصفق و يصيح

- حلال عليك، حلال عليك يا أخي. عندها توجهت نحوه قائلا ,
- شكرا ، شكرا أيها الشاب أنت تصفق، ولكن لعلي أقوم بعمل غير حسن، كنت ذلك مازحا .أجابني !
- مهما يكن ولن في اعتقادي فإنك تقوم بعمل جيد. عنده إبتسمت له مبتهجا لرؤيتي نموذج جيدا لحيوية الشباب، فأعطيته منشورا وواصلت سيري .

مرت بجانبي عدة سيارات خلال سيري وهي تزمر. في بداية الامر لم ابدي أي اهتمام بهم . و لكن عندما تكررت الحالة بدأت بالاهتمام .
رأيت بعضهم يزمر لي، مخرجا يده من زجاج السيارة ليحييني عرفت بعدها بأنهم يعبرون عن دعمهم ومساندتهم لي . لم أكن أتوقع ان تصل ردات الفعل الى مثل هذا القدر وأنا في اليوم الثالث من سيري . أظن أن البعض منهم يزمر لي ويحييني دعما لي وبعضهم ممن قدمت لهم المناشير أو رأى كلمة " زوراسودان" مكتوبة على الراية فتصفح الموقع في الانترنت. هذه التصرفات زادت آمالي فيما يتعلق بامكانية ايصال أهدافي للرأي العام رغم أن الوقت لايزال مبكرا جدا.
دخلت إلى مقهى انترنت في حي مودا على أمل تقييم الأوضاع من جديد . حين رأتني صاحبة المقهى و سألتني عن سبب هذا، فأعطيتها منشورا. بعد أن قرأتها اجابتني بسخرية و بحالة انفعالية:

- و ماذا بالنسبة الى الفقراء والجوعى في تركيا؟

قلت لها أن سيري إلى أفريقيا ليس إلا عمل رمزي، ويهدف إلى عرض مثل هذه الامور و تغيير هذا المسار وسماع أصوت المعذبين والجواع والالأم والفقر والظلم في العالم. لم أجادلها أكثر و عادت هي إلى عملها.

كنت أتعرض إلى ردود أفعال غريبة بعض الشيئ خلال مسيرتي.

كان البعض منهم يحاول منحي مبالغ ظنا منهم بأني متسول، و آخرون يبتعدون عني لاجل هذا .

وكان هناك من ينصحني قائلا: هل ذهبت إلى الشرق، هم موجودون هنا فلماذا تذهب إلى السودان؟

وهناك من يسأل : هل سيفتح حمام جديد هنا؟

و آخرون هل تقوم بالاعلان عن مصنع للمناشف؟

و يظنني البعض سائحا يسألني بالعربية أوالانجليزية.

و هناك من يظن بأني لا أجيد اللغة التركية عندها يبدأ بالهذيان بكلمات غير مفهومة.

بينما يناديني البعض الاخر من الجهة المقابلة للشارع بلهجة قروية ظانا باني اقوم ببيع بضاعة ما و يسألني صارخا : ما الذي تبيعه ياصاحبي هات لنرى ".

كما هناك من يقول : انظر إلى ذاك الشخص ما هذا اللباس، وماذا يبيع؟

وفي الحصيلة فإني الاقي امورا مبهجة...

اتصل بي أخي خير الدين وصديقي الوفي برهان الذي يهرع إلى أي عمل خيري دون تردد قالا كلاما متشابها تقريبا :

- إضافة إلى السودان هناك عدة دول تعيش الآن مصاعب كبيرة أيضا. وقد أوضحا أن سبب هذه المجاعة والتي تأتي في مقدمتها المجاعة والفقر في السودان لا يرتبطان فقط بالكسل و بالعجز الذي يعاني منه السودان وقلة خبرته ، أسباب هذه المشكلة غير ناجمة عن سبب واحد , هناك أسباب داخلية وخارجية عديدة. لذا عليك مراجعة رسالة عملك الخيري هذا والذي من المحتمل أن يدفعك إلى مغامرة خاطئة لان المجاعة والفقر والظلم موجود في جميع انحاء العالم أصلا.

و في وقت آخر اتصل بي صديقي ذو الكف لأجل موضوع مشابه لهذا. فعلاوة إلى علاقتنا في العمل فإن ذو الكف تربطني به صداقة قديمة إنه يعيش في ألمانيا. بعد أن علم بقرار سفري سيرا الاقدام بدأ بالبحث عن طريقة لمساعدة مشروعي و مالذي يمكن أن يفعله وكيف يفعل ذلك بشكل أفضل ليحصل على دعم لهذا المشروع في ألمانيا، و اتصل بي لكي يشاطرني الرأي. تحدث عن ان أحد أصدقائه الأكاديميين من أصول ألمانية يعيش في السودان بانه اخبره اوموراً مهمة للغاية. بعد أن قام بمراجعة الموقع والمشروع حيث قال:

السودان الان تقوم بحملة تنمية اقتصادية، وفي حالة عدم تغيير بعض النقاط و الخطابات في الموقع فإن ذلك سيؤذي السودان و سيظهر السودان وكأنه البلد الوحيد الذي يعاني من الفقر والجوع ، و ان هذا المظهر قد يثير القلق و يولد صورة سلبية لدولة تسعى إلى النمو.

بعد أن اخبرني ذو الكف بهذا الكلام حاول أن يشرح لي بأنه من الأفضل تعديل هذا الخطاب الذي يستهدف السودان مباشرة دون غيره .
عشت أفكارا وأحاسيس مشابهة خاطئة في أول يومين من مسيرتي. لقد ظن البعض من الناس بأنني سوداني و لا أهتم إلا بالفقر في السودان فقط.
إذا كنت أنا قد اخترت السودان باعتبارها دولة ترمز للفقر فإن هدفي الحقيقي إطلاق صرخة لاجل القضاء على الفقر والظلم في العالم كله . وقد يكونوا قد توصلوا إلى هذه النتيجة من خلال المقالات والكتابات الموجودة في الموقع الالكتروني وفي المناشير. و الظاهر بأن أسلوب كلامي الغير الواضح تماما هو الذي تسبب في الفهم الخاطئ. و إلا لما فهم الناس الذين يعيشون في أماكن وأصقاع مختلفة الوصول إلى قناعات مشابهة.
قمت على الفور بتعديل العبارات الموجودة في كل النصوص المكتوبة على اعتبار أن مشكلة المجاعة والفقر والظلم موجودة في العالم اجمع . كما استبدلت عبارة هدفي هو السودان بعبارة هدفي إفريقيا. ورغم أني قمت بمثل هذه التغييرات واذا لم أستطع تشكيل أي تغيير في هذه الإحاسيس فإنه بإمكاني تغيير حتى اسم الموقع الالكتروني "zurasudan.com" باسم آخر إن اقتضى الأمر. أرسلت النصوص التي أعددتها إلى خير الدين وبرهان وذي الكف وكرم من أجل مراجعتها وتصحيحها وتعديلها وطرح اقتراحات جديدة. مما جعلني اتراجع عن خطإ فادح بفضل أصدقائي.
وبدئي بالسير قبل إجراء التغييرات الضرورية ستكون بدون معنى و تعتبر إستمرارا في الخطأ لذا قررت البقاء في حي قاضي كوي 3 أو 4 أيام لأجل إعادة بناء المشروع من جديد والقيام بالتعديلات اللازمة ومن ثم أواصل سيري فور انتهائي.
حي قاضي كوي مكان مركزي مناسب للإقامة أو للانترنت. عندما حل المساء بدأت بألتقدم تجاه قاضي كوي لإبحث عن فندق أو غرفة للايجار . نظرت إلى الفنادق الموجودة في الأزقة الفرعية لشارع الكورنيش . رفضت أحدى الفنادق السماح لي بالمبيت فيها جراء ملابسي ضانين بأني متسول. كنت مرهقا جراء ثقل حقيبة الظهر. اشتريت كرزا من أحد الباعة الذين وجدتهم في الطريق و استعدت أنفاسي قليلا. تجولت بعدها في المنطقة و أخيرا وجدت امامي ما يشبه الفندق أو غرف للايجار حيث قررت المبيت .

اليوم الرابع- عاصفة فكرية

كنت أشعر بالام في جسمي كله عندما استفقت في الصباح. فقد كنت قد سرت البارحة مسافة اكبر من توقعاتي . كنت اسير مترنحا جراء عضلات رجلي المشدودة ،. كان مظهر الفندق منفر وقاسي جدا، إنه مكان غريب يشبه غرف الايجار الخاصة بالعزاب و العاطلين غريب لا أستطيع أن أصفه. لذا كان علي أن أبحث عن مكان آخر مناسب أفضل يمكنني الإقامة فيه لعدة أيام. خلال خروجي من الفندق للبحث عن فندق آخر بي كرم وسألني عن حالتي ومكان

تواجدي .وغرق في الضحك عندما حدثته عن المكان الذي أقيم فيه، قال لي إنه يعرف الفندق وأنه فندق تم ترميمه سابقا و ذو سمعة سسئة . ضحكت أنا أيضا وقلت له أنا أيضا لم يعجبني الفندق وها أنذا اغادره.
اشتاقت نفسي إلى شوربة ساخنة فطلبت شوربة عدس من المطعم المجاور للفندق. ولكوني مرهقا من البارحة فقد تلذذت كثيرا بهذه الشوربة مما دفعني الى طلب المزيد منها. بعدها استعدت طاقتي . لم أحمل اليوم شعاراتي . كنت أفكر خلال شربي للشوربة وبعدها في التطورات الأخيرة. لم اكن مرتاحا ابدا من الناحية النفسية . فقد أزعجني الفهم الخاطئ للرسالة التي كنت أرغب في إيصالها كذلك احتمالات إلقاء نفسي في مغامرات مجهولة. كان علي أن أسرع في مراجعة الموقع الالكتروني الموجود وللمنشورات التي في يدي. لأني لا أستطيع الاستمرار في حمل رسالة ناقصة لا تعبر عن مغزاها . لم تكن غايتي ارتداء ملابس غريبة والتجول دون أي معنى وكأني مهرج . لن أحمل الشعارات حتى تتوضح الامور وأنظم المناشير بالشكل المطلوب ، لأنني لا أهدف جلب انظار الناس هدفي هو نشر رسالة صحيحة ومقبولة...
على بعد 200 م تقريبا عثرت على فندق مناسب وقررت المبيت فيه، كان جيدا بالنسبة لثمنه و نظافته. كنت قد دفعت 25 ليرة للغرفة التي بت فيها البارحة كانت عبارة عن غرفة واحدة فقط بينما اجرة الفندق الجديد ثلاثين ليرة وتحتوي على غرفة رحبة ونظيفة بها هاتف وبداخلها حمام خاص واسع .
دخلت إلى مقهى انترنت لكي أقرأ رسائلي الالكترونية القادمة و المتعلقة بموقع الانترنت والنصوص المصححة. قرأت رسالة من أخي خير الدين و رسالة اخرى من برهان. وتكلمت مع أخي خير الدين عبر السكايب. وبما ان كل مكالمة معه كانت تستغرق مابين 1.5- 2 ساعة كنت حينها اصاب بالارهاق وانسحب لكي ارتاح. وعندما أسأله عن هذه الطاقة التي يتمتع بها يجيبني قائلا:

- نحن ندرس الطلاب 3 أو4 ساعات في اليوم بالجامعة، فساعة أو ساعتين من الحديث لا تتعبني ابدا .

وما ان رأيت أرتباط زوجتي بالسكايب اتصلت بها ، ردت علي قائلة بأن لديها زبائن كثيرين في الصيدلية الان وسنتحدث فيما بعد , أجبرت على قطع الاتصال ملويا عنقي. وفي نفس اللحظة اتصل بي ذو الكف من المانيا . أجرينا محاضرة ثلاثية بيني وبين أخي خير الدين الذي في أمريكا وذو الكفل حيث قيمنا فيها آخر الأوضاع.

كان أخي خير الدين يبدي اهتماما كبيرا لموضوعي مهملا الكتاب الذي يقوم بكتابته ويشاطرني المعلومات التي يظن بانها قد تساعدني في مسيرتي هذه منذ اليوم الاول الذي انطلقت فيه. وكان لتوجيهاته و اقتراحاته فوائد كثيرة توسع افقي وتهديني .

مرت الساعات وسنلتقي أنا وكرم وبرهان وإبراهيم في الساعة 19.00 للتشاور في مواضيع الاتصالات والصحافة و الإعلام والصحفية الخاصة بالمسيرة، ولمناقشة الاستراتيجية التي يجب اتباعها والنواقص وماسنقوم به. التقينا في الطابق العلوي في محل للحلويات في شارع الكورنيش . ورأيت بأم عيني بأن الامور التي كنت اظنها بسيطة في البداية كم هي معقدة ومتشعبة . قمنا من جديد بمراجعة كاملة للمشروع، وتحدثنا فيما يتعلق بالروابط والنصوص التي يمكن إضافتها والتي يمكن حذفها. توقفنا كثيرا حول المفاهيم الخاطئة و المخاطر. كما تباحثنا ضرورة تسجيل بدئي بالمسير بكاميرة و أثناء السير، وتطرقنا أيضا إلى القيمة الخبرية لمثل هذه المسيرة. لقد أصبح الامر بالنسبة لنا إعصارا فكري يتحسن نحو الافضل . كنا متعبين و لكن الأمر يستحق ذلك. قال كرم:

- نظرا لاني عملت بمثل هذا العمل 3 سنوات و لاني لا ازال أعمل في مجال الاتصالات يمكنني القول بأن هذا أشبه هذا العمل بمثل معروف جدا فإن هذا السير من حيث الهدف والشكل له قيمة خبرية تتجاوز العشر عضات انسان لقدم كلب .

تداولنا الآراء حول الدعم اللوجستي الذي يجب تنفيذه بعد السير. اتفقنا على إبقاء اسم زوراسودان وحذف com وتغييرها بـــ org. لان إسم وكان يمكن تقوية الاحساس وتسهيل العرض بتغيير زوراسودان باسم مفهوم يرمز إلى هذه المسيرة. وقد أمكن الدخول إلى الأدب باعتبار أن زوراسودان هي مفهوم قوي يرمز إلى المجاعة والفقر والظلم عبر الزمن. اتخذنا قرارا بضرورة عدم تغيير الاسم وعدم الاهتمام به. كما توصلنا الى قناعة بعدم جدوى إضافة السيرة الذاتية إلى الموقع في هذه المسيرة وعدم نشر المذكرات اليومية التي أكتبها في الموقع الالكتروني.

غادر إبراهيم و برهان وبقي كرم حيث دخلنا الى الفندق الذي أقيم فيه. بعدها اتصل أخي علاء الدين ليخبرني بأنه في فناربغجة وأنه يريد أن يراني. أوقف سيارته في شارع الكورنيش أمام سوق الالكترونيات، تعانقنا واحتضنا بعضنا البعض. أنا أعرف أخي الأكبر معرفة تامة ، كانت ملامح وجهه وتجاعيده توحي بأنه متوتر جدا الى درجة أنه لم يكن يهتم بمزاحي معه. كما قدمت جيزم ابنة أخي وبقيت تنظر لي بدهشة. وعندما رأوني فرحا وذو معنويات عالية اظهرا تعجبهما. كان كرم قد تعرف على أخي علاء الدين خلال قدومه إلى مزرعتنا. اقترح كرم أن نجلس في مقهى على الساحل. حيث جلسنا للتداول و اخبرتهما بأني في حالة جيدة وسعيد للغاية. وعندما تأدا واطمأنا قال لي أخي :

- و لم تذهب ماشيا ألا توجد طريقة أخرى؟ كان الاجدر بك التبرع أو المساعدة ما الجدوى من المسير ؟

حاولت ان اوضح له كل التفاصيل المتعلقة برسالتي و قناعاتي وأهدافي و الاسبابا التي دفعتني لذلك بعدها . بدا وكأنه إقتنع بالفكرة قليلا فتركت الامر للزمن...

اليومين الخامس والسادس – كل يغترف من هذا البحر بقدر حجم إنائه

كان يجب علي أن أرتب كل ماقررناه البارحة. فتحت حاسوبي وكتبت سيرة ذاتية قصيرة. بعدها قمت بتفقد كتابات الموقع الالكتروني و القيت نظرة للرسائل الالكترونية الواردة . و جمعت من المواقع الالكترونية بعض ألابحاث والمعلومات التي قد تفيدني. قرأت رسالة قادمة من أخي خير الدين عبارة عن توصيات ومعلومات ونصائح وتنبيهات تشير الى انه فكر بالامر بالتفصيل حيث يقول :

- تحديدك أهدافا صغيرة مع ترك نتائجها مفتوحة ستكون أكثر جدية وأكثر منطقية. فإذا توسع نطاق دعواك ستستمر في مسعاك وعندها ستتصرف انت حسب ما تتطلبه الامور.و لكن عليك في البداية تقديم رسالة مقنعة للناس تخبرهم بأنك محق في دعواك الجميلة وان بالامكان تنفيذها . وإذا لم يختذب الامر العامة عندها ستزعزع مصداقيتك انت وتفقد الكثير من مؤيديك .
- النية الحسنة لوحدها لا تكفي عليك النظر لردات الفعل التي تسببها رسالتك للاخرين لأنهم هم المهنيون بفهمها. أنت عملت في النشر الكتبا الجيد قد لا يحقق مبيعات جيدة دائما . هناك أسباب عدة لذلك قد تلاقيها في دعواك ايضا ، و لكي تحقق مبيعا اكثر لكتابك عليك التقيد ببعض الامور الضروية كالمحتوى والغلاف والتنظيم والموضوع ومستوى القراء وقدرتهم المالية لشراء الكتاب ، اضافة لذلك فإن مواضيع الساعة خلال اصدار الكتاب والحالة الاقتصادية ستلعب دورا فعالا في تحديد المبيعات .
- كما أن لهذا العمل مسؤليات اخلاقية حيث عليك اظهار مصداقيتك و صدق نواياك كما سيحاول البعض استغلال اوقاتك و جهودك و اموالك أن اردت ذلك أم لم ترد . واذا رأيت مثل هؤلاء من الذين يحبونك يحاولون تحييدك من هدفك قائلين يا جتين عليك أن تقوم بكذا وكذا فلا تعرهم اهتمامك لكي لا تضيع جهدك وجهدهم. فاظهر لهم بانك مصر على رأيك المحق وان الامر قد انتهى للتراجع و لا فائدة من الاصرار كما لا تعاندهم كثيرا .و لا تنسى بانك أنت أيضا إنسان. ولكن اظهر لكل من يراك بانك جاد أما اذا ما إستمر الناس مشاهدة نفس الصورة ومحاولاتك للتغيير عندها عليك الموافقة على ان عليك إعادة النظر في دعواك من جديد.
- ولا تنسى بان هناك بعد سياسي داخلي و خارجي لما يخص مواضيع الفقر والمجاعة وغير ذلك . فالفقر والجوع قد لا يكونان نابعان من قلة المصادر المالية مثلا كما تعرف ذلك بل قد تحصل المجاعة جراء النزاعات السياسية و القومية والمصالح . ولا تنس أيضا بأنها ليست هي المشكلة الوحيدة التي يعاني منها العالم، هناك أيضا مشاكل مثل لإنتشار الأمراض والموت.
- يجب عليك أن ترضى بأن هذه المسألة (الخاصة والعامة) لا يمكن حلها في يوم أو يومين أو حتى في سنة. فإن للسياسة والتجمعات المدنية والجمعيات الخيرية هي القادرة على إزالة مثل هذه المشاكل التي تتطلب جهودا مشتركة منها جميعا .
- الناس هنا يرغبون في القيام بأشياء، ويريدون مساعدتك فلا تهدر تلك الجهود . واحترم أفكارهم الخاصة بمساعدتك و ابدي لها اهتمامك فلا تخيب ضنك ولا ضنهم. و إهتم بأحاسيسهم وليس باحاسيس نفسك فقط عندها ستحقق نجاحا كبيرا في

رسالتك. لا تضغط كثيرا على نفسك وسيطر على احاسيسك عندما يستوجب الامر ذلك أما اذا لم يحدث ذلكعندها لا للحديث في الامر اصلا.

كنت أشاطر قسما كبيرا من أراء خير الدين . كنت أقبل بضرورة الانتباه إلى تقييمات وارشادات الأشخاص الذين أهتم بأرائهم و علي التفكير مليا في كل خطوة سأخطوها. كنت على قناعة تامة بأن علي أن أكون فطنا وحكيما فيما يخص هذا الموضوع وعلي النظر إلى النماذج التاريخية وبما تم القيام به اليوم. كنت أعلم بأن هذا العمل ليس سهلا البتة . كما كنت على دراية تامة بأن أتخاذ الاحتياطات الصارمة والتخطيطات المبالغ فيها ستسبب في إعاقة المسيرة . ولكن كان علي القيام ببعض الخطواط الجنونية والشجاعة في البعض من الامور التي قد تسبب لي بعض الاخطاء . وقد أحقق بعض الاهداف الجميلة الصغيرة و أعود إلى بيتي ، بل قد لا أحقق على أي شيء يذكر و لن أستطيع ألعودة إلى بيتي أبدا.

لكن كيف كان بإمكاني أن أعبر عن حبي و إشتياقي كما قال الشاعر : " إذا لم أحترق أنا ولم تحترق أنت من سيحترق إذن!" . كيف يمكنني أن أصف هذا الشعور دون أن أجربه أو أبذل أي جهد، كيف اطمئن نفسي . إني اعيش أجواءا كما تقول المقولة " إما أن اكون في عالم الفناء او لاشيئ في عالم الوجود " ...

كان علينا أجراء لقاء جماعي في المساء مع كرم وذي الكف وخير الدين عبر السكايب. اتصل بي كرم قائلا بانه قادم يحمل أخبارا سارة. اخبرني عن موافقة وكالة أخبار على الاهتمام بالدعوى بصورة جادة و ستنقل هذا العمل إلى وسائل الإعلام المرئية منها والمكتوبة. مطالبا اياي الموافقة وإبداء رأيي قائلا بانه من الضروري القيام باعمال مشابهة .

مضيفا بأن حساسية الموضوع واهمية الامر بالنسبة لتأثيراتها على حياتي العائلية و حياتي العملية ستضفي على المهمة اهمية قصوى قائلا " المهم هنا الشخص الذي ينفذ المسيرة ". هل سيكون عاطلا عن العمل ؟ أم سيكون طالبا؟، أم شخص ذو روح ارهابي فاقد لاماله ؟ ام سيكون إنسانا صاحب عمل و مقدرة وعائلة و يعيش حياة هادئة ومرفهة وذو مكانة محترمة في المجتمع ؟

كل هذه الامور لها تأثيرات على الرغبة و الموافقة .كل هذه الامور المهمة شجعتني على ضرورة القيام باجراء لقاءات و سحب افلام في بيتي و محل عملي ومحل زوجتي وطلب مني الاجابة.

في المساء اجتمعنا مع الأصدقاء. وجاء مراسل قناة الجزيرة في تركيا السيد فكري الذي قام بتصويري في اليوم الاول . قائلا :

- القنصلية السودانية تريد لقائك يوم غد في الساعة الواحدة بعد الظهر.
- قلت : خيرا إن شاء الله، على الرحب والسعة لكن هل تعرف السبب؟

- قال: أعتقد أنهم منزعجون من رسالاتك الخاصة بالسودان. ومن المتوقع انهم سيتحدثون معك في الامر.
- قلت:حسنا، لنلقاهم .

أما برهان فقد ذكر بان هناك جمعيات إنسانية خيرية قد تدعم مسيرتي هذه و سيقوم باجراء لقاءات معها. مضيفا بانه تباحث مع البعض منهم وتداولوا الافكار. وسيحدد لي موعدا للقائهم. تباحثت معه فيما يخص مسيرتي و مواضيع اخرى وقمنا بتقييم الوضع من جديد وعن الامور التي قد تساعدنا فيه هذه الجمعيات . إفترقنا قبل ان نتأخر كثيرا، عدت بعدها إلى غرفتي.

كان علي أن أفكر مليا في كل التفاصيل بدقة ، موضحا فكرتي بكل دقة. كنت على حافة بحر يستمد الكل منه حسب قدرته. لذا كان علي أن أشرح الأمر بالتفصيل و أوضح السبب الذي دفعني للهدف المقصود والغاية منه دون نقص.

اليوم السابع: كل حسب مقدرته

كنت ابحث وادقق أبعاد المجاعة والفقر في العالم و الفعاليات التي تتم للقضاء عليها. و اكتشفت ان الامر معقد و شائك الى درجة انها تصد حتى كل من يحاول المساعدة . المساعدات لم تكن تصل إلى المجاعى والفقراء ، و إن وصلت يصل القليل منها فقط .

المصالح السياسية البسيطة والمنافع الإقليمية العقيمة وحالة الإحباط ومشاعر الأنانية جعلت البعض عديمي الشعور بشكل كبير. وقد بدأ بعض الناس بتقبل هذا الفقر العميق وكأنه ظاهرة اجتماعية إتيادية . العالم مليئ بمشاهد تاريخية مؤلمة ومعبرة. هناك من الناس من يعتقد بأن بعيد المشاق زانها لن تمسه أبدا و سيعيش براحة ورغد...

كان الناس يلاقون صعوبة في الفهم. يتساءلون عن سبب ترك هذا الرجل عمله الجيد وبيته المريح و يسير نحو افريقيا بهذه الملابس ؟ الناس تسحق بعضها البعض من أجل أن يمتلك مالا، بينما هذا الشخص يختار طريقا شائكا ومتعبا بهذا القدر رغم أن له أملاكا لم ذلك ؟ لماذا يصر مثل هذا الانسان كل هذا العناء والانتقادات والاحتقار والمعايرة؟ لم التضحية بهذا القدر؟ أسئلة وأسئلة وأسئلة...

من المؤكد أن الامر ليس ضربا من الخيال أو المغامرة ، وقد يلاقي البعض صعوبة في الفهم على أنه ليس عمل مرغوب ...

إذا كان احدهم يود المساعدة فبإمكانه أن يتبرع بمقدار من المال ويرسله . أو قد يكون بإمكانه التبرع بقسم كبير من أملاكه أو بأغلبها كما ان بامكانه القيام بما هو أكثر من هذا. سيترك زوجته وأطفاله وعمله وبيته وسيضحي بكل الامكانيات التي يملكها لاجل هذا الأمر، ويخاطر بحياته ما الداعي لذلك اصلا ؟ لعلك قد لا تحصل على أي شيء من هذه بالمسيرة ...وبدلا من هذا المخاطرة و المسيرة التي قد تستغرق سنة اليس من الافضل ان تأخذ المبالغ

التي ستكلفها الرحلة و اضفت اليها مبالغ اخرى وارسلتها هناك لمساعدتهم ؟ لم هذا الدرب، ولماذا هذا الاختيار؟

و نظرا لاني كنت اظن ان فريضة الحج خاصة بالاغنياء لم أكن أتخيل بأني سأرى هذا مثل هذا الفقر. لفت انتباهي منذ الايام الاولى وجود الكثير من الفقراء و البؤساء حولي . كيف و لم جاء هؤلاء الناس هنا ؟. كان هناك زحام شديد في مساحة ضيقة. لقد كان المشهد المهيمن على المكان الفقر والحرمان . الحالة الموجودة كانت مناقضة لا تتناسب مع الحج. كيف حدث هذا ؟ حتى الشعوب القادمة من الدول الغنية ذابت وسط هذا الفقر المهيمن، وكأن الناس من عشرات الشعوب اختلطت فيما بينها و أصبحت كأنها أمة واحدة.

مواطنو بعض الدول وجدت طريقها للقدوم لأداء فريضة الحج، لعلهم استنفذوا كل امكانياتهم للمجيء هنا. هذا امر لا يمكن رفضه دون شك . و مرتبط بوجهة نظر الشخص إلى الحدث و طموحاته . بين الشعوب من يعتبر فريضة الحج موقع شرف أو مكانة أو فضيلة . و يعتبرها البعض دليل على بلوغ مرحلة الرشد والنضوج... وهناك من يرى الامر ضرب عصفورين بحجر يعتبرها زيارة و تجارة.

يقدم الأشخاص الميسورون طوال فترة الحج على فعل الخير باستمرار، يوزعون المواد الغذاية ليستفيد منها الفقير بل حتى الميسوري الحال ايضا.

لا اعرف كيف لفت الفقراء انتباهي خلال موسم الحج. لقد احتلت تلك الأقدام اثناء الطواف مكانة عميقة في قلبي ، تلك الاقدام النحيفة المرتعشة المتشققة السوداء. . آثار تلك الاقدام وجهدها و وقفتها... بشقوقها العميقة تدوس بقوة دون ان يصدر لها أي صوت...

حاولت أن أبني علاقة مع هؤلاء الأشخاص أصحاب هذه الأقدام السوداء. بعدها توجهت الى الشبكة الالكترةنية لمعرفة اوضاعهم وضروفهم المعيشية. ماعلمته كان مرعبا حقا. اجل كنت قد سمعت وقرأت عنهم لكنني لم استوعب الامر ولم يستقر في أعماق قلبي. أعدت النظر من جديد الى الأقدام والأجسام و التصرفات.

كنت أمعن النظر اليهم و اعود بعدها إلى الفندق . هناك أناس يتذمرون من طعام 50 فندق ويتشكون ، يأخذون طبق الطعام ويختارون الأطعمة التي يريدونها ويملؤونها ثم يلقون نصفها في سلة المهملات. بينما الجهة المقابلة تجد البعض منهم عاجز عن الوقوف على قدميه من شدة الجوع باذلا كل ما في وسعه لأداء فريضة الحج مرتعشا، يرد بابتسامة على الاذلال و الدفعات .

يكافح 13 مليون شخص سنويا المجاعة، ويموت مئات الآلاف منهم جراء الجوع والفقر و الامراض الفتاكة . و لا من أحد يسمع صرخات الملايين التي تئن تحت وطأة الظلم. الم نكن نحن قد تجردنا من مكاناتنا وموقاعنا ومستواتنا، الم نتجرد أيضا من ذاتنا ونلبس الإحرام. الم نلبس الإحرام لالغاء التفرقة مع إخواننا و الالتحام معهم متناسين نفسنا ، ولن نؤذي أحدا و لا نحقد عليه، وأن نؤثر الآخرين على أنفسنا. كان علينا ان نكون نحن وليس أنا...لقد حز في

قلبي هذا التناقض العميق. قد كان علي ان اكون أنا أيضا واحدا من أولئك الغرباء المحتقرين...
كنت أشعر أن حالات الظلم التي احسست بها في ذاكرتي قد بدأت تنساب نحو أعماق قلبي. لم تكن لدي القدرة على اهمال الامر و التغاضي عنه. وكأني لم أر شيئا أو لم يحدث أي شيء. لا يمكن أن أبقى بعد الان في موقف المتفرج ولا أن أصمت. كان علي ان افعل شيئا، كان علي أن أطفئ هذا الحريق ولو بدلو ماء ، فإن لم يكن فبطُأس ماء، فإن لم يكن فقطرة ماء على اقل تقدير .
كان علي أن أكون نملة، نعم نملة! وأن اعمل مثلها قدر مقدرتي ، قد تكون جرعة ماء أو ان اكون زائرا مجهولا يجهد نفسه لايصال هذا الماء...تماما مثل النملة.
كان يمكن أن أكون أنا من يحترق في هذا الحريق. وكان يمكن أن أكون أنا أيضا احد هؤلاء الذين ينتظرون بكل أمل زوال آلامهم بأي شكل من الأشكال. كان علي الجري , اجري قبل فوات الأوان، علي عمل شيئ ما دون أي تأخير. كان علي أن أصرخ حريق , حريق ، حريق ، اجل... حريق دون لهب ولا دخان...

الحريق
بساط وحقيبة وراية
ماذا الذي يريد أن يقول هذا الرجل ياترى
أيها الرجل هل أنت شبح
لماذا تتجول بهذا الزي
هل أنت مجنون أم متيم
أيها المسكين، المجنون العاجز
هل أنت الوحيد الذي تسلك الدرب وتسير
لا أدري ما الذي ستحل مسيرتك هذه

هل تركت الآم الجائعين لك أنت وحدك
ماهي قدرتك لكي تقاوم
ذلك الحريق الذي لم يستطع العالم إيقافه
لعل قلبي هو الذي سيطفئه...

اليوم الثامن: مزحة المخيم
جائني شريكي في العمل في الساعة السادسة صباحا، والتقينا في شارع الكورنيش بحي قاضي كوي. شرب كل واحد منا كاسة حساء وقمنا بتقييم اخير بما يتعلق بالعمل. لقد وصلت مباحثات الشراكة التي كانت مستمرة منذ 1-2 شهرالى مراحلها الاخيرة.وتباحثنا

التفاصيل بعد الاتفاق على الشراكة وطرق تطوير المبيعات في السوق و المراسلات المطلوبة وشراء المكائن الجديدة للمصنع وتبادلنا الافكار التي تخص مخطط المصنع و تجهيز الارضية المناسبة .

كان بالامكان أن يتسبب ذهابي في هذه الفترة بالذات في مشكلة بسيطة ولكن الاعمال المتبقية لم تكن اعمالا لا يمكن حلها بدوني . كل مافي الامر ان اعباء قليلة زائدة ستقع على عاتق الشريك ومستشارنا. كلاهما يدرك هذا وابدوا رضائهم خلال حديثي معهم سابقا .

بعد مغادرة شريكي القيت نظرة سريعة على رسائلي الالكترونية وأرسلت ما يمكن إرساله. وفي الظهيرة زارني عديلي أنور و صديقه مصطفى.

خاطبني عديلي قائلا:

- هيا بنا لنذهب ونتناول غدائنا سمكا
- حسنا , و لكن أنا الذي سيدعوكم ، اتفقنا ,لا اريد اي اعتراض.
- كلا هذا مستحيل، لا تصر على هذا والا ساخاصمك . السمك اليوم من عندي أنا.

و بعدما تأكدت بأني لا يمكن أن أقنعه

- حسنا ياعديلي، ولكن عليك دعوتنا الى تناول المخلل ومائه ايضا.

ضحكنا ، وذهبنا الى بائع السمك الذي يشويها في قارب مربوط على ساحل البحر حيث يأكل الناس على اليابسة واقفين أو جالسين على كراسي صغيرة في الهواء الطلق. لهذا القارب مايشبهه في منطقتي أمين أونو وفي أسكودار.

عندما جئنا إلى اسطنبول اول مرة منذ سنوات طويلة لم أنسى أبدا لذة السمك المشوي في القوارب التي في منطقة أمين أونو، و لم تمحي السنين تلك اللذة من ذاكرتي حتى ولو أكلت السمك في أفخم المطاعم. بعد أن تناولنا الخبز المحشو بالسمك سرنا نحو مسرح خلدون تانير وجلسنا هناك في احدى المقاهي القريبة من الساحل ذات ألاشجار الوارفة الظلال. حين قال لي عديلي :

- لقد خدعتني .
- عندما أخذت حقيبة الظهر كنت قد قلت لي: " سنمارس رياضة تسلق الجبال ونخيم لعدة أيام". ما الذي حدث؟
- اجل أنت على حق كنت انوي ذلك فعلا لاعدة ايام بغية التجربة قبل البدء بالمسيرة لكني وللأسف الشديد لم استطع تنفيذ ذلك لكثافة اعمالي, لا تؤاخذني.
- أنك كنت تعلم بأن غايتك الرئيسية ليس المخيم ,ولكنك لم تخبرني بانك أشتريت الحقيبة لأجل المسير، أنا اتحدث عن تهربك دون خبر.
- فهمت ياعديلي , لكني أوضحت لكم سبب عدم اخباري و اضطراري للخروج دون ان اخبر احد . و هذا هو سبب عدم ذكري حقيقة شرائي الحقيبة . لكن كنت فعلا فكرة ارغب بالذهاب إلى المخيم لاجل التجربة، وأنت تعرف أني لم أكذب عليك في هذا

الموضوع، و لا تزال الفرصة سانحة تعال لنقم بها بعد الان ، عندي الان الوقت المناسب...

اخترت حقيبة ظهري بعناية و أبحاث طويلة لأنني على وشك السير في طريق طويل ومتعب. وعندما فشلت هنا في العثور على حقيبة مناسبة لي اتصلت بذي الكف من برلين وأعطيته رقم هاتف بائع الحقيبة التي اخترتها من النت وطلبت منه أن يؤمنها لي. لم تكن الحقيبة التي اطلبها موجودة عندهم ايضا لذاطلب منهم جلبها. عملية جلب الحقيبة إلى برلين و إرسالها لي كانت ستستغرق فترة طويلة، بما يعني باني لا استطيع استلامها في اليوم المطلوب .

اتصلت بأخي في أمريكا وأعطيته عنوان أقرب بائع حقائب له . متعه الله بالصحة فقد اشترى لي الحقيبة. كان سيرسلها عبر شركة شحن، بعد ذلك قال لي بان كبر حجم العلبة التي ستشحن فيها فإن تكلفة إرسالها ستبلغ 200 دولار لذا فلا داعي لذلك لأن زوجته مقدر ستسافر إلى اسطنبول بعد 10 ايام وسيرسل الحقيبة معها . فقلت له " حسنا".

كانوا قد أشتروا التذكرة ولكنهم لم يحددوا بعد تاريخ الرحلة قائلين بأنهم لا يستطيعوا المجيء في وقت مبكر جراء كثافة اعداد المسافرين وعندما تم تحديد موعد الرحلة إتصل بي ليخبرني ذلك . فرجوته أن يرسل لي الحقيبة بواسطة شركة شحن. كنت سأتحمل تكاليفها بسبب ضيق الوقت . بعدها اخبرتني مقدر بان صديقا لها سيأتي إلى استانبول وستسأله ان كان بالامكان أرسلها معه . وافق صديق مقدر متعه الله بالصحة على جلب الحقيبة ، وسترسلها معه. وصلتني الحقيبة قبل ثلاثة أيام من سفري .

كنت انوي الذهاب إلى المخيم نهاية الأسبوع لاجل التدرب يومين بصحبة عديلي و لكن لم يحالفني . وكان قد علم قبل يومين من سفري بان سبب شرائي حقيبة الظهر هذع كانت للتهيئ للمسيرة . لذا كان يتمازح معي . لم نكن قد خيمنا من قبل و لكن موضوع المخيم اصبح موضوع مزاح بيننا .

اجرت وكالة الأخبار اليوم زيارة إلى المزرعة وإلى المصنع و صيدلية زوجتي وقامت بالتصوير هناك. ثم جاؤوا إلي حوالي الساعة الثالثة ، و اجروا معي حوارا سألوني فيه عن أهداف مسيرتي ، ثم قاموا بعدها بتصوير المسيرة . ونظرا لاني لا املك الخبرة اللازمة بهذا الشأن حيث اني فطنت الى اني لم أستطع أن أوضح الموضوع بالشكل المطلوب.

كنت اجهل طرقة صياغة الكمائن الموجودة في داخلي . حاولت التعبير عن غايتي ولكنها لم تكن كافية. كان علي بعد الان التهيئ بصورة افضل .

قبل أن ينتهي التصوير بقليل جاءني السيد عاشقين زميل عمل لكرم والتقط لي عدة صور. و عندما هدئت الأمور خرجت أنا وعديلي والسيد مصطفى والسيد عاشقين إلى مقهى الشاي للاستراحة حيث تحدثنا عن أهداف المسيرة وعن الأسباب التي اعاقت الشروع في السير.

اليوم التاسع: دهشة الأنانية

في الصباح أستحميت وغسلت ملابسي المتسخة. وحلقت ذقني وجمعت أمتعتي وخرجت الى خارج المبنى بعد أن دونت مذكراتي اليومية.
وعندما حان وقت الصلاة ذهبت لأداء صلاة الجمعة في جامع السلطان مصطفى الثالث في قرب محطة ارساء البواخر في حي قاضي كوي. كان الجو مغيما وكأنها ستمطر . اقترب وقت الأذان واخذت مكاني بين المصلين في الصف الثاني بالطابق العلوي. في الأمام مساحة تشبه الشرفة قد تتسع لـ 5 أو 6 مصلي . نبه امام المسجد المصلين الى ملئ الفراغات فيما بينهم قائلا بان الجو ينذر بالمطر و إن كانت هناك أماكن خالية فعليهم التزاحم قدر الامكان لكي يتسع المسجد لجميع المصلين. لم يتحرك سوى القليل منهم وكأنهم مرتاحون في أماكنهم ويحاول كل منهم المحافظة على مكانه وكأنه سيبقى فيه طول اليوم. قمت واقفا في محاولة للمرور إلى المكان الفارغ في الشرفة الأمامية.
أحد المصلين كان قد استند على جدار الشرفة مادا رجله اليسرى، و رجله اليمنى مائلة نحو اليمين مستغلا مكانا يتسع لشخصين، و امعانا في عدم أحراجه قلت للقريبين منه " هناك من بقي في الخارج هل بالامكان التزاحم قليلا". فكرت بذلك لعله يفهم القصد ويتيح مكانا لشخص اخر. لكنه لم يحرك ساكنا . نظر الذين حوله نحوي و ثم أداروا بوجوههم وكأن شيئا لم يقع حتى أنهم لم يتحركوا. عندما بقيت أنا في الوسط جلست القرفصاء بين صفين وانتظرت الأذان، عندما اذن المؤذن قمت واقفا و دخلت الصف وجلست في مكان فارغ يسع عدة أشخاص.
هل يدرك الشخص الذي لم يخل المكان إلى إخوته المجتمعين تحت المطر مفهوم صلاة الجمعة و هل يدرك معنى صلاة الجماعة اصلا . اني لست واثقا من معرفته صلاة الجماعة ان كنت تعتبر الذي معك في الصف اخاك فما الفرق بين استغلال مساحة كبيرة او التزاحم! عجبا! عجبا عجبا! كيف يستطيع شخص اما الوقوف في صف المصلين دون ترك انانيته .

بعد خروجي من صلاة الجمعة اتصل بي كرم . حيث سنلتقي كما قررنا البارحة. التقينا أنا وكرم وأفق، بعد ذلك عرفوني بالسيد م.نديم. تحدثنا معا عن المسيرة وعما يمكن القيام به في هذا الاتجاه وعن الخطط التي سنطبقها لكي تكون اكثر تاثيرا و مثمرة. تحدثنا بصورة حرفية وعقلانية لكي نحقق الهدف المنشود. و ما علينا الابتعاد عنه كي لا نفشل في مسعانا .
تشاورنا في الامور الأساسية وفي الصعوبات المحتملة لتحريك الرأي العام و المساهمة في إخماد هذا الحريق. افترقنا بعد الاتفاق على اللقاء للتشاور مرة اخرى يوم الإثنين.
لم اكن قد آخذت معي خلال مغادرتي البيت ملابس احتياطية. كنت بحاجة إلى بنطال صيفي وقميص أبيض كي ألبسهما في الليل وفي الأماكن التي أقيم بها. تجولت في سوق قاضي كوي واشتريت قميصا و بنطالا مناسبين.

اليوم العاشر: استضافة القنصل

كنت قد خططت للبدء بالرحلة خلال 3 أو 4 أيام ببعد اكمال التجهيزات الضرورية و لا تزال هناك بعض النواقص. كان علي البقاء في قاضي كوي 5 أو 6 أيام أخرى لأجل إكمال كل النواقص قبل الاستمرار في الطريق. خلال هذه الفترة حاولت ترتيب بعض اللقاءات التي علي القيام بها في اسطنبول خلال هذه الفترة .

كنت قد اشتريت جهاز تسجيل رقمي صوتي يستوعب 30 ساعة بغية تسجيل كل ما يعترضني في الطريق و الاجتماعات التي اجريها لكي اكون أرشيفا للرحلة . كان جهازا ذو جودة صوتية عالية وخصائص جيدة. حاولت كثيرا لنقل الملفات الصوتية المسجلة الى الحاسوب و لكني فشلت . قمت بتحميل كل شيئ و دققت دليل الاستخدام من جديد وأعدت المحاولة دون فائدة. و لأجل حل المعظلة ذهبت الى سوق الالكترونيات في قاضي كوي. وزرت 4 أو 5 محال تصليح الا انهم لم يفلحوا أيضا.

كنا قد حددنا موعدا للقاء القنصل السوداني الا انه اجل اللقاء لهذا اليوم. كنت سألتقي بالقنصل السوداني في الساعة 6.30 مساءا في منطقة أمين أونو. لهذا مازال لدي متسع من الوقت فذهبت إلى المكان الذي اشتريت منه جهاز التسجيل الصوتي في حي سركجي القريب بحدود الساعة 5.00 مساءا. شرحت للمسؤول المشكلة التي اعاني منها. لكنه فشل ايضا في حلها فأرسلني مع عامله إلى مختص في الاكترونيات بالطابق العلوي.

فتحت الحاسوب المحمول و أعدنا تفحص الروابط. قال لي بعد أن جرب عدة مرات إن البطارية على وشك الانتهاء وأنه يتوجب عليك شراء بطارية جديدة والقيام بتجربتها. اشتريت على الفور بطارية جديدة. وعندما وضعت البطارية ظهرت إشارة تنبيه تقول " وجد جهاز جديد" وقمنا بتحميل شريحة تحميل USB. بعد ذلك قمنا بنقل الملفات الصوتية. لقد كانت المشكلة في البطارية. لقد كانت قوة البطارية قد انخفضت بنسبة 75% إلى 80%. لم يكن الخلل في الحاسوب الذي لم يعمل بسبب عدم توفر الطاقة الضرورية. لقد كان الأمر بالنسبة لي غريبا بسبب تعرضي لأول مرة إلى مثل هذا النوع من العطب أو المشكلة التقنية.

بعد أن انهيت عملي ذهبت إلى المقهى التي تشرف على البحر في حدائق قصر طوب قابي حيث جلست جانبا لانتظر بعد قليل اتى برهان واخبرني بان السيد القنصل وصل وانه جالس في مكان ما هنا . صعد برهان المرتفع للقائه، ثم عاد بعد قليل قائلا إنه جالس فوق , ذهبنا نحوه و ادينا التحية بعد التعارف.

نقلت للسيد القنصل الهدف والمخطط الرئيسي لهذه المسيرة. استمع إلي واطمأن بعد أن عرف غاياتنا من ذلك. و قال ماتم نقله إلينا ومافهمناه مختلف تماما عما ذكرتموه. نحن نقاسمكم الرأي بهذا الموضوع بل مستعدون لدعمكم بكل ما في وسعنا. و اضاف الى انه عمل مع منظمة انسانية لمدة ثلاث سنوات لذا فان لديه دوافع اخرى للمساعدة والدعم.

واضاف قائلا "كنا نظن أنكم تتحدثون عن وجود مجاعة وفقر في السودان فقط وأنكم ستقومون بارسال قافلة إلى بلدنا تحمل مساعدات غذائية بكميات كبيرة ".
ذكرنا له بأننا نظن أن عبور مثل هذه القافلة الدول و العقبات الروتينية و البيروقراطية امر صعب جدا كما ان هناك إجراءات الطريق. كما تحدثنا عن القلق الذي اصابه قبل لقائنا جراء تفكيره بالاضرار التي ستصيب السودان خاصة اتمارت انتشار سمعة المجاعة للبلد و لكنه لم يجد اية حاجة لتفاصيل اكثر بعد ان استمع واطمئن وطمأننا ايضا حيث كنا نتخوف من انزعاج السودان من مشروعنا هذا، وتعهدنا له باننا لن نقوم باية فعاليات او انشطة تضر بسمعة السودان .
في هذه الأثناء جاء السيد فكري وبعده جاء كرم. أتى السيد القنصل معه بمترجم سوداني متخرج من قسم الكيمياء بجامعة يلدز. طلبنا من السيد القنصل صورا ووثائق ومعلومات كي تساعدنا . و وعدنا بانه سيبذل كل ما في وسعه لتجهيزها جتى يوم الإثنين. تبادلنا الاراء وارقام هواتفنا النقالة والارضية اضافة الى عناويننا الالكترونية لكي نتعاون ونتبادل الآراء. و قدم لنا جملة من المقترحات والتوصيات. كما نصحنا بالحصول على تأشيرات الدخول للدول التي سامر بها من الآن . ووعد بالمساعدة إذا كانت هناك أية حاجة للحصول على تأشيرات ذات صلاحية 6 أشهر أو سنة.
لقاؤنا مع السيد القنصل كانت مهمة جدا جراء توصياته و آرائه الصائبة ، لاجلي و لاجل اظهار حسن نيتي.
ودعنا بعضنا بحدود الساعة 8.00 مساءا. كنت ِسألتقي بزوجتي وأطفالي, اتصلت بها حيث اخبرتني بانها تركت السيارة الان في موقف للسيارات في أمين أونو قرب مبنى غرفة تجارة اسطنبول ، و ركبت الباخرة المتنجة الى جي قاضي كوي. اخبرتها باني في حديقة كولخانه وسأركب الباخرة بعد قليل و نلتقي في قاضي كوي، واخبرتها بانتظاري قرب باب مرسى البواخر.
كنت قلقا من ردة فعل الأطفال. عندما رست الباخرة وتقدمت نحو المحطة. كانوا بانتظاري في الجهة المقابلة. وعندما رأوني هرعوا إلي وعانقوني بقوة. كانوا هادئين وسعداء للغاية. علامات القلق والحزن لم تكن ظاهرة على وجوههم ، كانوا مفعمين بالنشاط والحيوية. كنت أحاول أن أسمعهما في نفس اللحظة و أجيبهما أيضا في نفس اللحظة. كانت زوجتي مرهقة قليلا. فقد بقيت بدون نوم في الايام الاخيرة بسبب كثافة العمل واستعدادات الأيام الأخيرة.

أخذتهم معي وذهبنا لتناول الطعام. كان الأطفال يستغربون المسيرة و الحياة التي ساعيشها و يريدون معرفة كل شيئ . اكتفيت بالنظر اليهم دون استطيع شرح الامر بصورة صحيحة ، لقد كانت لديهم الكثير من المواضيع للحديث عنها . تحدثوا عن نتائج الامتحانات و العطلة المدرسية و الحديقة والاعمال التي قاموا بها والتي سيقومون بادائها بالتفصيل . بعدها تحدثت مع زوجتي عن البيت و مشاكل العمل وعما سيقومون به. قالت إنها شرحت البارحة تفاصيل

مسيرتي لحماي وحماتي واخبرتني عن الدهشة التي اصيبا بها ولكن ردة فعلهم كانت ملائمة و هادئة . يبدوا ان تصرف حماي و حماتي الهادئ اسعد زوجتي وطمأنها لانها كانت تتوقع منهما ردة فعل قوية . وكانت قلقة و منزعجة مخافة عدم ارتياحهما للرحلة . لقد شرحت لهما بالتفصيل الاجراءات و التدابير المتخذة و وضع البيت و تدابير السلامة المتخذة و التدابير الأخرى حيث استطاعت طمأنتهم.

اتصلت بحماي وحماتي صباح اليوم الذي سأخرج فيه إلى المسيرة. انهم يعيشون في مدينة كوموجيني اليونانية. لذا لا يستيطعون المجيء بسرعة عند حدوث أي امر طارئ. وبما أنهم بعيدون فسيزيد قلقهم اكثر. ردت حماتي على الهاتف وعرفت منها أن حماي قد ذهب إلى المدرسة لأنه مدرس هناك . قلت لها باني سأسافر قريبا وقد تستغرق الرحلة شهرين أو ثلاثة. أخبرتها بان الرحلة عمل خيري لأجل الانسانية و لا علاقة لها مع عملي الحالي. و طلبت منها عدم القلق على زوجتي وأطفالي لاني اتخذت كافة التدابير الضرورية.
قالت لي: " ليكن خيرا إن شاء الله و ليمهد الله طريقك للخير" . غير أني لم أستطع اخبارها عن الحقيقة بكل وضوح. كنا سنخبرهم شيئا و شيئا الى أن يتعودوا على ذلك، وإلا فلن يهدأ لهم بال من شدة القلق و الحزن . مما يسبب قلقا لي ولزوجتي . لأجل ذلك قامت زوجتي البارحة بشرح موضوع المسيرة لهما بشيئ من التفصيل، مما تسبب في طمانتهم وعندما رأت ارتياحهم ارتاحت هي ايضا .

نظرا لاني كنت قد قررت قضاء تلك الليلة مع الأطفال، غادرت الفندق الذي اقمت فيه لفندق آخر مناسب .

اليوم الحادي عشر: تذكر بالصبر

بعد أن تناولت فطور الصباح مع زوجتي وأطفالي أعددنا أمتعتنا وغادرنا الفندق. و تحولت أنا إلى فندق اكثر تواضعا قريب ، بعدها تجولت أنا وزوجتي وأطفالي في السوق وفي الساحل حيث تحدثنا بمواضيع مختلفة . ثم ودعتهم إلى باخرة أمين أونو حوالي الساعة 12.00 ظهرا .
بعد مدة قصيرة اتصل بي يالجين أحد موظفي شركتنا . قائلا بانه جاء من المصنع لزيارتي ومعه 12 - 13 من العاملين. التقينا في مقهى على الساحل. الأشخاص القادمون هم: يالجين ، يوسف ، متين، زكي، جمال، سليمان، إحسان، مصطفى وأشخاص آخرون و معهم ابن عمي عبد الرزاق...
شرحت لهم قسما من الأمور التي دفعتني للمسيرة. و أجبت على الأسئلة التي تراود اذهانهم . انتابتهم الدهشة عندما رأوا أني لم اترك الامر وأهرب . حاولت ان انصحهم بان يكونوا اكثر

عقلانية و يقيموا الامور بصورة منطقية مع الحفاض على القواعد الرئيسية . واوضحت لهم باني اتصرف ضمن هذا الاطار .

قلت لهم بان الاحاسيس المعنوية التي نعيشها امور شخصية بحتة و ليست كافية للتحرك و قلت لهم باني حاولت التخططت لهذه المسيرة بكل عقلانية و منطقية و أردت أن أريهم بأني لست معتوها ممن يدعون النبوة و لست المهدي المنتظر وإنما أنا إنسان يشعر بالبؤس والجوع والألم والظلم في داخله ويسعى للحد من هذه الالام . وقد تكون مسيرتي هذه سببا في إيقاض بعض القلوب النائمة وقد أعود إلى البيت خاوي اليدين ...
بعد قليل جاء السيد متين المستشار العام للشركة. تمشينا سوية وتحدثنا امورا تتعلق بالعمل والمسيرة. والتقطنا عددا من الصور. في هذه الأثناء حضر شريكي والسيد أرجان بائعنا في أوكرانيا. بعد قليل ودعني العاملون في الشركة و انصرفوا لحالهم .
بقي السيد متين وشريكي عاكف والسيد أرجان معي . و تداولنا من جديد مشاكل التصنيع و طاقة العمل بعد التغييرات و التركيبات الجديدة. بعد انهائنا النقاش الذي استغرق 2 – 3 ساعات اتفقنا على إطار معين . وقمنا بتثبيت مخطط السكن و الاستثمارات العاجلة التي يتطلبها العمل. و سيتم تطبيق العمل على هذا المنوال على ان نلتقي مرة أخرى ونقوم بتقييم اخر للوضع . كما قررنا ان نستمر في تطبيق المخطط في حالة نجاحه وتطويره أو اعادة النظر فيه إذا كان غير مناسبا.
عندما بدأ الظلام انصرف شريكي. وبقيت و السيد متين حيث تحدثنا عن الماضي و الحاضر. و التغييرات التي حدثت في الأشهر الأخيرة، وعن الأذى و الالام التي عشناها جراء سوء فهمنا والمحن و المصاعب التي انزلقت لاتجاه مغاير تماما في الشهرين الأخيرين خاصة ، تحدثنا عن جميع هذه المشاكل التي اتعبتنا وتحولت إلى وأمل وتفاؤل و تقدير . وعن الايمان و العزيمة والصبر التي تحلينا بها والتي ساعدتنا على تقاسم امالنا و سعادتنا .

حل الظلام و بدأ الناس يحاولون الوصول إلى ألاماكن التي يرغبون الذهاب اليها باسرع ما يمكن . منهم من يجري نحو الباخرة ومنهم إلى سيارات النقل الصغيرة منها والكبيرة. كنا نتقدم منسابين بين سيول بشرية. لم يرغب السيد متين في ركوب الباخرة. وكان يريد الذهاب إلى اسكودار في حافلة صغيرة ومن ثم ينتقل الى المترو ومنها إلى بشكطاش. وقال إنه يريد أن يعيش ذكريات الحنين إلى الماضي، وأن هذا النمط يعجبه كثيرا. عندها حولنا وجهتنا لهذا وأوصلناه إلى محطة الحافلات الصغيرة في أوسكودار وودعناه هناك...

اليوم الثاني عشر- لا تراوح مكانك
عندما التقيت بشريكي صباحا ذكر لي بان موضوع اشراك شريك جديد الى الشركة اتضح اكثر وأنه بدء بالتجهيزات اللازمة . و اقترح اقتراحا مضحكا من الصعب قبوله. عندها

سألته عدة اسئلة و لكنهة يم يجاوبني عليها بصورة مطمئنة. لذا اخبرته بانني سأفكر بالامر وسأجيبه بعد اتخاذ قراري .
ورغم أني فكرت في هذا الموضوع طوال أمس إلا أني لم أر في هذا الاقتراح الذي أتى به شريكي أي منطقية يمكن القيام بها. أعاد شريكي الاتصال بي اليوم طالبا مني اخباره بقراري، و تجهيز وكالة نقل للحصص . اخبرته بانني لم أتخذ قراري بعد و لازلت حتى الان أقيم الموضوع. لقد أزعجني الموضوع . كان علي التشاور مع احدهم في أول فرصة سانحة وأتخذ قراري .
كان اليوم هو الإثنين العاشر منذ بدئي المسيرة و لا زلت في اسطنبول. لقد استغرق امر تخطيط و تنظيم البرنامج زمنا طويلا لوضعها حيز التنفيذ. التقيت بكرم مساءا وطلبت منه أن نتخذ قرارنا النهائي فيما يتعلق المخطط، وبعد أن جلسنا مع بعضنا برهة اكملنا تجهيزاتنا وذهبنا لمقهى شاي قريب . كان كرم قد تولى مهمة اتصالات واعلام المسيرة. و بذل جهدا كبيرا للحصول لتحقيق هدف هذه المسيرة منذ البداية . و لا يزال يحاول ليلا نهارا دون كلل، يجهد نفسه لاختيار كل ما يناسب المسيرة ينفذها.
السير لوحده لن يكفي . كان علينا اضافة بعض المضامين، و علينا أن نضع مخطط اعلامي تفصيلي فعال ، و علينا جذب المؤسسات الاعلامية مثل القنوات التلفزيونية والصحف والجمعيات الخيرية و نحاول اشراكهم لتحقيق نتائج مرجوة من هذه المسيرة. في البداية لم ننجح بتحقيق اية نتيجة تذكر جراء جهلنا بهذه الامور. وكان كرم يردد باستمرار " علينا أن ننجز هذا العمل بحرفية وروح شخص هاو".
مضت سنين طويلة وانا لا اسمع كلمات ، راوح مكانك ، و، عادة سر، مع النشيد الملائم للسير . كان علي أن أتجرد من المراوحة في مكاني وتجهيز مخطط مناسب دون ان اراوح في مكاني .

بعد مشاورات طويلة توصلنا إلى قرار:

1. علي تخصيص سيارة وسائق ليقودها.
2. تشكيل فريق انتاج، و تأمين مرافقتهم لي طوال الرحلة على ان يتم نقلهم بتلك السيارة. يتشكل فريق الانتاج من مصور ومراسل ليقوم بتسجيل فترة المسيرة كلها وتحويل كل الأحداث التي تواجهنا و التي تحمل صفة الاخبار وإرسالها إلى وكالات الأنباء.
3. تشكيل فريق دعم لوجستي في اسطنبول. ليقوم بتقديم الإخبار الخاصة بنا للصحافة ويكون على تواصل مستمر معها.

قررنا تنفيذ هذا المخطط. على ان يتولى كرم يوم غد ترتيب مسألة تجهيز فريق الانتاج مع ترتيب موعد مع وكالة أنباء لاجراء لقاء معها. وفي حالة عدم تمكننا من الحصول على أي نتيجة سنقون بزيارة وكالات الأنباء الأخرى. كما أننا سنتعرف غدا على شخص او شخصين من فريق الدعم اللوجستي، على ان أتولى أنا مهمة البحث عن سائق السيارة.

كان علي القيام بالاستعدادات اللازمة لأن تشكيل مثل هذه الفرق ستكلف مبالغ كبيرة . لذا علي ابتداءا من يوم غد مراجعة إمكانياتي وتثبيت الخطوات الضرورية لأجل توفير التمويل المطلوب. و في حدود الساعة 1.30 بعد منتصف الليل اوصلوني للفندق و غادروا الى بيتهم.

اليوم الثالث عشر- أيٌّ واحد ؟

كان يوما هادئا. وكنت أتحرك بهدوء. كانت لدي بعض النوقص , جورب أبيض، ملابس داخلية، بنطال رياضي أبيض و معطف واقي من المطر.
كنت بانتظار تنفيذ المخطط الذي قررناه. و عند المساء التقيت بكرم حيث سنلتقي مع وكالة أخبار. و اتصل بي بعض الأصدقاء والمعارف. لقد أقلقهم سيري لوحدي، وأن لا أكون مع مجموعة. كنت اقول لهم دائما باني لست وحيدا ولن أكون وحدي. كنت أحاول أن أوضح لهم أنه يجب علي أن أكون وحدي جراء ضرورة العمل، وأن على المسيرة ان تكون مختلفة شكلا ونمطا. ل1ا علي أن أبدو وحيدا .
من الصعوبة ايضاح الجري وراء المثالية و تعبير حالة المتعة تلك بالكلمات. كيف لي شرح هذا الامر الذي لا اعرفه انا ايضا.
هل كان الامر كم من اكتشف منجم ذهب و يحفر باستمرار للعثور عليه، وينقله إلى داره ليتقاسمه مع احبائه ، أم انه كعامل منجم عاد خاوي اليدين؟ . اجل ! فقد كان الامر هكذا او لم يكن هكذا . لأنه يضم القليل من الأنانية والقليل من الطموح.
هل كان يهفو نحو شيء ما يحبه أكثر من كل الأشياء التي يحبها؟ اجل هذه هي الحقيقة كلا, قد تكون كذلك تماما , لان ترك الاحبة تعني : تركهم لحالهم , ولكن الامر ليس كذلك ... لم تكن الأسئلة التي تراودني تكفي لطمانتي , مقارنات ...
أو كمن يترك احبائه فترة لإطفاء حريق نشب في بيت جاره. اجل هذا هو ، ولكنه ليس تماما قد يكون كله أو أكثر من ذلك ... أيه اذن أيه؟

من الوحيد؟

من القائل انه لايمكن سلك الدرب وحيدا,
هل هناك على الأرض مخلوق دون حماية,
السائرون معي يكتبون دون اخطاء ,
كما ولدت وحيدا و ضعيفا ,

من القائل انه لايمكن سلك الدرب وحيدا,
الكل يعمل لنفسه و يتحدث دون حساب
لا تحتاج لإنسان قد يرفع مناخيره باستهتار,
كما اعيش انا و حيدا وضعيفا ,

من القائل انه لايمكن سلك الدرب وحيدا,
هل نحن داءما معا بدون قرار في هذه الحياة ,
لا تكون الهموم ذنوبا حتى تمس الانسان
تكون وحيدا و ضعيفا مثل يوم وفاتي

وحيد
هل أنا وحيد، أم ان النمل متهور
ها انذا الف وادور كالنحلة المستهترة
أصرخ فوق بحر واسع اصرخ دون بزق
في الحقيقة فان الازدحامات هي الوحيدة ...

تم تأجيل لقائنا مع وكالة الأخبار ليوم غد جراء سوء الفهم. في هذه الأثناء قمنا بترتيب وتصنيف و اجراء التعديلات الضرورية الجديدة للموقع. وأرسلنا النصوص التي سيتم ترجمتها. وبدانا بإعداد المقالات الناقصة.

اليوم الرابع عشر- لا عمل يتم لوحده: درس في الحياة

اتصل بي السيد متين حوالي الساعة العاشرة. وتشاورنا فيما يخص مكائن المصنع . اتصلت بالمهندس الميكانيكي الذي سيصنع احدى الآلات التي فكرنا في صناعتها. اخبرته باننا نريد أن نرى نموذجا للماكنة التي ننوي طلبها منه ان كان قد صنع مثلها . اجابني بان هناك ماكنة في منطقة ديل اوفاسي بمدينة كبزة، وأن بإمكاننا رؤيتها هناك. وأعطاني اسم المسؤول الذي سألتقي به ورقم هاتفه. حاولت أن آخذ موعدا لكي نرى هذه الآلة انا والسيد متين.
ذكرت اسم الميكانيكي لاتصل بطلب منه، وعرفت بنفسي وبشركتي، وتركت لهم رقم هاتفي ورجوتهم الاتصال بي في هذا الموضوع إن كان موافقا أو لا. ولم يمض وقت طويل على المكالمة حيث إنهم اجابوا بانهم لا يسمحون لنا بذلك يسمحوا بذلك لانها من اسرار الشركة. شكرناهم وقررنا البحث عن حل آخر.

اتصل بي عديلي ظهرا قائلا إنه في قاضي كوي. جائني بعد أن أخبرته بالمكان الذي أتواجد فيه. وبعد أن جلس قلت له إني جائع لأني لم اتناول فطوري لهذا الصباح بعد . واقترحت عليه ان نتناول أي شيء. تناول كل منا قطعة خبز محشوة بشاورما الدجاج ومعها علبة لبن رائق. بعدها شربنا الشاي في مقهى ، و استاذنته لانصرف لأجل اللحاق بموعدي مع وكالة الأخبار. بعدها ركبت الباخرة المتوجهة الى بشكطاش منها الى حي مجيدية كوي. ذهبت إلى الوكالة مع كرم الذي التقيت به . شرحنا لهم الامر بشكله العام تحدثنا عن أفكارنا والأشياء التي نخطط للقيام بها. واستمعنا بعدها إلى آرائهم ومقترحاتهم. و طلبوا منا امهالهم يومين أو ثلاثة، ليقيموا الأمر ويقرروا رايهم ساء وافقوا ام لم يوافقوا عليه ووعدونا بالنظر الى الامر بجدية وعن امكانية تقديم الدعم الإعلامي.

خرجنا من المبنى بعد انتهاء اللقاء وأثناء ركوبنا السيارة رأى كرم موظف الحراسة الذي كان يمشي بعكازين يعرفه من قبل. و عرفني به على أنه إنسان جيد حنون ومخلص في عمله وشريف.. عندما رآه في هذه الحالة ذهب إليه قائلا سلامتك .

- قال: لقد سقطت، حدث تفطر في راحة عظام قدمي جراء السقطة . و قام الطبيب بتجبيسها وساشفى قريبا إن شاء الله.

حاول بعدها ركوب السيارة. وكان حراس ثاني وشخص اخر يطلبان منه عدم ركوب السيارة . قال الحارس الثاني بان الشخص الذي معه سائق وان بامكانه المساعدة في الذهاب والاياب. ولعدم معرفتي بهم تابعت الموضوع عن بعد . تحدث كرم معه قائلا :

- لا داعي لذلك أبدا، فأنا سيارتي هنا سأوصلك حيث ما تريد الذهاب اليه .
- أنا سأذهب إلى المطار، هناك دواء أمانة علي أن أستلمه من أحد الأشخاص القادمين من أرضروم لإعطائه إلى أخ كبير أحبه كثيرا. وهو الآن بانتظاري هناك.
- أخي لنذهب بسيارتي أنا ونأخذ الدواء ونرجع. وأنت كم تريد أن تبقى هناك.
- قال سلمك الله يا كرم، باستطاعتي الذهاب .

ركب السيارة ونحن جميعا نتابعه بنظرات مفعمة بالدهشة وكأنه رجل آلي. ترك العكازين إلى جانب و ادار المحرك . كانت السيارة واقفة في الجهة المقابلة للطريق. وبما أنه سيخرج إلى الطريق كان عليه أن يدير المقود جيدا إلى اليسار ويستمر في الطريق. جمدنا جميعا و استرينا بالنظر وكاننا اما مشهد في فيلم.

خلال تشغيله السيارة واستمراره في الطريق مرت سيارة أخرى، فضغط على مداس الوقود وانطلق، وعندما انتبه إلى السيارة التي ظهرت أمامه فجأة أراد أن يضغط على المكبح في محاولة لمنع الاصطدام ولكنه لم يستطع رفع رجله بسبب إصابتها على العكس من ذلك ضغط على مداس السرعة بدلا من المكبح. صرخت أنا ظنا مني أنه سيصطدم بمكان تواجد سائق السيارة الثانية. و لكن و الحمد لله كانت السيارة سريعة نوعما فضرب خلفيتها. و

لامسها و انحرف نحو مدخل الخان الواقع يمين الطريق ضاربا العمود الحديدي للمدخل حتى وصل الباب و حطو اطاره .
هرعنا نحوه. انه لم يصب بأي سوء، تضرر القسم الأمامي للسيارة حتى المحرك، تناول عكازيه ونزل من السيارة. كان خجلا ومذعورا. كانت السيارة تعود لمدير الشركة التي يعمل بها. لذا فانه كان اكثر انكسافا و اكثر بؤسا. وخجلا. يريد الابتعاد عن هناك باسرع وقت . و طلب من الحارس الآخر سحب السيارة. بعدها ركب سيارة وذهبنا سوية الى المطار لأخذ الأمانة. و رغم محاولتنا أن طمئنته و تخيف حزنه إلا أننا لم نفلح في ذلك. كان يحاول قول: " قمت بهذا لكي لا أكون عبئا على أحد، و لكي لا اؤذي احدا ضغطت على نفسي ". تصرف كذلك تحرك لثقته بصحته القوية حتى ذلك اليوم .
كان يظن أن هذه العاهة المؤقتة لا يجب أن تعيقه عن العمل. كما ان هناك شخص في المطار بانتظاره . لقد كان قد نفذ آلاف الأعمال حتى ذلك اليوم بنفسه . و فكر بانه سينجح في هذه أيضا . ولكنه فشل...

اليوم 15- 24: نهاية الدرب

كنت قلقا في الايام القليلة الماضية. فقد ظللت أفكر طوال هذه المدة باقتراح شريكي الذي لم أفهمه ولم ألمح فيه الفائدة و الارباح و المعجزة التي تحدث عنها. و نظرا لان شريكي موافق على ذلك فكان علي ان افكر بانه يحقق ارباحا و اجهدت نفسي ثلاثة أيام ظنا مني بأني ساجد الفائدة المرجوة . و كلما سألته سؤالا كان الجواب عكس ماكنت اظن . مما اعاقني من أتخاذ القرار .
وبينما أنا أتقلب في تلك الحالة جاء القدر الالاهي حيث مر بي السيد متين بنفس اليوم وكان مرتابا، فقد أزعجه ما سمعه و الأحداث التي رآها بعينه. وعندما فاتحني بالموضوع اخبرته بانني لا زلت امتلك حصصي، و لم أعلن بعد بيعها ، بل لم أتخذ أي قرار بهذا الشان ، لأن الامور غير واضحة تماما في هذه المسألة، ومن غير الممكن الموافقة عليها. و سألته عن رأيه بالمقترح. اجابني قائلا :

- أنت محق، هذا اقتراح غير وارد . إحذر كي لا تقع بهذا الخطأ. كنت اظنك وافقت وانتهى الامر . و إذا كنت قد فعلت هذا لكنت سكت و تمنيت الخير .

وعندما اطمأننت بان هناك شخص اخر يشاطرني الرأي الذي اجهدت نفسي ثلاثة ايام بالبحث عن المكسب المرجو . وبعد ان ودعت السيد متين اتصلت بشريكي حيث التقينا في اليوم التالي واخبرته عن رفضي للمقترح ولكنه رفض قراري قائلا بانه تم البت في الامر و لا فائدة من اعتراضاتي و اصر على رايه . كان يطلب مني تحويل 40 % من مجموع حصتي في الشركة و البالغة 50% دون أي تعويض. على ان يتم تحصيل 50% من مبيعات

حصتي خلال سنتين و تضاف الكمية المتبقية لرأس مال الشركة بما يعني باني لن استلما قرشا واحدا هذا البيع.
وبينما كنت أحاول اعداد اموري لكي استمر في المسيرة من جهة ، كنت أحاول تصحيح عملي الذي بدأ بالانحلال و الفوضى . عندما رايت بأني لن أستطيع اقناع شريكي بالتخلى عن هذا القرار اقترحت عليه استشارة إلى أحد أقاربه من التجار . و اخبرته باني ساوافق على مقترحه ان وافق قريبه . وكنت آمل تراجعه . وافق على الاقتراح وذهبنا واستشرنا.

قال السيد سلطان لشريكي بانه لا يمكن المواقة على هذا الاقتراح و انه غير منطقي. بعد هذا اللقاء ورغم أنه تردد قليلا إلا أنه لم يتراجع عن قراره. عندما رفض شريكي اقترحت عليه شراء كل حصصي مقابل سعر منخفض على ان تدفع لي خلال سنتين، لم يوافق على هذا أيضا. وعندما رفض شريكي شراء حصصي كلها عرضت على الراغبين بالشراكة شراء حصصي كلها بثمنها الاعتيادي مع بعض التخفيضات. عندها اجابوني بانهم إذا دفعوا لي رؤوس أموالهم فلن يتبقى لديهم المال الكافي لتشغيل الشركة. ومهما فعلت واقترحت إلا أنهم رفضوا دفع اية مبالغ .
ورغم أني لم أنقل حصصي بعد إلا أن الأشخاص الذين سيكونون شركاء في الشركة بدؤوا فعليا في إدارة الشركة. يعينون عمالا جدد وأبطلوا قسما من تصاريح باعتنا معلنين شرائهم للشركة في كل مكان . كما اشتروا اسطولا من 50 سيارة للتسويق والهيكلة الجديدة ، وكانوا يستعدون لعقد اجتماع عام يشارك فيه الباعة لأجل تشويق و التعريف بالمرحلة الجديدة.

رغم اني لم ابع حصصي الا إنهم كانوا يتحركون في الشركة كما يشاؤون لأني لم أعد موجودا في الشركة بصورة فعالة . كنت قبل أن أبدأ المسيرة قد حولت صلاحيات الإدارة العامة لشريكي مما دفعه الى التصرف استنادا الى هذه الصلاحيات.
لقد كان سندي المادي الذي يمكن أن أحقق به أهداف المسيرة وما بعدها على وشك أن يطير من يدي . وكنت لا استطيع التراجع مهما فعلت. كنت أعلم بأني اذا ما رضيت على هذه الحالة واستمريت في الطريق فلن يمر وقت طويل، وسأجد نفسي في نصف الطريق دون أموال او مبالغ.
وصلت الاستعدادات الاعلامية و التجهيزات الاخرى للمسيرة إلى مرحلة معينة، وكنت أقترب كل لحظة الى المرحلة التي تؤهلني للمسيرة. وعندما حدث هذا الامر كنت عاجزا عن القيام بالحملة الختامية كنت عاجزا عن وضع النقطة الاخيرة على الحروف. بقيت تحت وطئة عملي من ناحية وبين مثلي العليا من ناحية أخرى. فلا أنا أستطيع أن أتراجع إلى الوراء ولا أستطيع ألاستمرار في مسيرتي.

لم اسلك الدرب لكي اتراجع ، ولم افكر في التراجع لحظة واحدة . لكن هذه الحالة التي لم اكن أتوقعها أبدا صعبت اموري جدا و دفعتني الى حل المشكلة قبل مغادرتي اسطنبول والاستمرار في المسيرة بعد ذلك، لكني عجزت عن حلها رغم محاولاتي لعدة أيام.
جلب لي السيد متين وأنجين اقتراحا قالوا فيه :

- لن تحل المشكلة طالما انت بعيد و دون تدخل . عليك أن تعود وتتدخل باعتبارك صاحب العمل. انك لن تحل المشكلة منى هنا مهما فعلت .
- اجل أدرك هذا و لشريكي الحق في التصرف كما يريد و لكني اتخذت قراري في عمل ما ولا أفكر بالتراجع ابدا. سأبقى هنا فترة أخرى من الزمن، وسأحاول ايجاد حل مناسب . لدي أصدقاء محامون سأشاورهم وآمل أن اجد حلا.
- من الصعوبة حل المشكلة بالطرق القانونية خلال فترة وجيزة. و سيجري الذي يجري الى ذلك الوقت . نحن لا نقول لك إلغ المسيرة. ولكن ارجع لفترة قصيرة ، تواجد في الشركة 3 - 5 أيام أو قل أسبوعا، تواجد هناك وبعد أن ترتب أعمالك عد إلى مسيرتك واستمر فيها.

رفضت تلك الاقتراحات في البداية و رغم اني قلت لهم بإني لا أفكر في التراجع. الا انني قيمت الامور من جديد مفكرا بما عشته خلال الايام العشرة أيام التي قضيتها اقتنعت بأن الحل الذي اقترحوه هو الحل الامثل و الأكثر منطقية والاقصر زمنا.
اجل ! العودة لفترة قصيرة و وضع الأمور في نصابها كان منطقيا . وكان بإمكاني مواصلة مسيرتي بكل ارتياح بعد حل المشكلة واتخاذ التدابير الوقائية منعا لتكرار مثل هذه المعوقات خلال أسبوع أو عشرة أيام. وبعد أن اتخذت قراري اتصلت بهم واعلمتهم بأني قررت العودة لفترة قصيرة.

اليوم 25- الحل الأخير

في ساعة مبكرة من صبيحة يوم الإثنين الموافق 27 يونيو حزيران ذهبت إلى المصنع دون أن أخبر أحدا ، ودون أن أعلم شريكي والعاملين و حتى عائلتي . و نظرا لأنهم لا يتوقعون عودتي في الصباح الباكر أخذت أوراق الشركة من وحدة المحاسبة وعندما جاء شريكي استعدت من جديد صلاحيات الإدراة العامة.
بعدما استعدت بشكل رسمي الادراة العامة للشركة اجريت اجتماعا مع المرشحين للشراكة، وأريتهم الوثائق، وأخبرتهم بأني ابتداء من هذه اللحظة استلمت صلاحيات إدارة الشركة. وأخبرتهم أني فسخت كل العقود المعقودة معهم وعليهم البحث عن أبواب جديدة أخرى.

كاسر السلسلة

بعد أن اديت صلاة الجمعة في مسجد السلطان أحمد لبست ملابس الإحرام في زاوية الساحة الوسطى، وعلقت على حقيبة ظهري راية كتب عليها "zurasudan.com " وسرت حاملا داري فوق ظهري. ولكن , كنت قد اخطأت في حساباتي واجبرت على العودة بعد 24 يوما، لأني نسيت حسابا كبيرا أثناء تخطيطي .لان :
أثناء سيري في الطريق ظهرت مشكلة في عملي لا يمكن حلها عن بعد او عبر الهاتف . التجارب المؤلمة التي عشتها مع شريكي أثناء سفري زعزعت ثقتي فيه . وحاولت تصليح الامور خلال ثلاثة اشهر بعد عودتي من الرحلة. لم اكن أفكر ابدا بترك جهودي الكبيرة لعملي الذي أسسته بعرق جبيني . كنت أحب عملي الذي طورته وكبرته مثل ابني .
جربت انواع الحلول ورأيت المآزق التي قد تولد إذا ما وثقت في شخص ما و وضعته مسؤولا على العمل. كان يجب علي أن أجد حلا مناسبا. لان سفري الذي خططت له منذ عدة شهور وتركته عائدا لأجل عملي و سجنت نفسي مرة اخرى لاجل هذا الموضوع اشهر عديدة.
كان علي أن أتخلص من هذه القيود. في تلك اللحظة رأيت الحقيقة التي تجنبت الاعتراف بها حتى لنفسي. انا لا أستطيع أن أضحي بعملي ولا أستطيع أن أتخلى عنه. بيد أن الأدعية التي دعوتها للتخلص من انانيتي والابحاث التي قضيتها متتبعا حبات الذرة واليوم الذي فكرت فيه الهجرة. اتذكرها كلها وكانها حصلت اليوم فإما نفسي أو نيتي... انها حسابات عسيرة.
فكرت في عدد من النماذج بشرية المناضلين من أجل معتقداتهم ومثلهم العليا. هؤلاء الأشخاص الذين يتصدرون التغييرات والتحولات...الذين ساروا في طرق لم يسلكها الجميع، الأشخاص الذين رضوا و اختاروا الطريق المر والشاق... فكرت في هؤلاء وتصالحت مع الحقيقة التي تنظم القواعد والأمور العامة والعارضة. كان علي ألمجازفة بالبدل الذي علي دفعه و ما يجب علي ألتخلي عنه، و الوصول في نهاية الامر الى الهدف المنشود .

اتخاذ القرار هو أصعب من آلام الولادة. لحظة القرار الذي كنت على استعداد للتضحية بعملي من اجله والذي استمر بالالام و التخبط تلك اللحظة التي تحول ذلك الجبل العملاق الى تلال صغيرة و العقبات التي ضخمناها كالجبل، تلك اللحظة القرار التي تمتعنا فيها بالحرية. أنا لم أنس وعدي وقراري وقسمي ولم أخن نفسي. فقد كسرت قيود الشهوة والأنانية، وفي نهاية الامر لم استطع من السير عدى خطوات قليلة قليلة في هجرتي. هذا الإحساس زاد من حيويتي ، وغمرني بطاقة هائلة ، وهكذا استطيع الجري بعد الان .

3

جولات البحث

بكاء على لوبنغولا، أنت اليوم لوبنغولا ...!

ورودس اليوم حي من أجلك...!

مثل سائر

السودان من أمامي وإلى جانبي

كنت مستعداً للرحلة بعد استراحة اسمترت أكثر من المعتاد إثر إنهاء الشركة إجراءات تسليم المشروع في شهر أغسطس من عام 2006. ففي تلك الفترة رأيت بعض النواقص في رحتلي التي انتهت قبل أن تبدأ.

لكن ليس من المنطقي التقدم نحو هدف محفوف بالغموض ومحكوم بالاحتمالات. كنت عازماً على البدء بجنوب السودان وإقليم دارفور. وفي حال لم أجد ما كنت أبحث عنه هناك -وهو احتمال ضعيف- فكرت في مواصلة البحث في دول إفريقية أخرى.

وبعد أن عرضت نيتي على ذي الكفل وهو صديق مقيم في ألمانيا كان قد زار السودان من قبل ضمن فريق مكلف بتقديم المساعدات في إفريقيا، بعد ذلك بفترة وجدت نفسي في مكتب السيد جميل وهو محام في الخرطوم.

السيد جميل مواطن تركي، وقد أجاب على أسئلتي كافة وبكل رحابة صدر. وعندما أعلمته برغبتي في الذهاب إلى دارفور أو جنوب السودان، نبّهنا بأن التأشيرة التي حصلنا عليها لدخول السودان لا تكفي للتجول في كافة أنحاء البلد، مشيراً إلى أنها تشمل الخرطوم فقط.

وأكد لنا ضرورة حصولنا على وثائق أخرى شبيهة بالتأشيرة للوصول إلى تلك الأقاليم، وذلك بسبب أن البلد في حالة حرب أهلية وتلك المناطق مناطق أزمة. هذا إضافة إلى أنه كان يلزمنا إيجاد سبب منطقي تقبله السلطات السودانية للحصول على تلك التراخيص.

لكن توضيح الفترة التي سنبقى فيها، وتحديد الأماكن التي سنزورها وسنقيم فيها نقطة نقطة، وكتابة ذلك في استمارات طلب الترخيص، كل ذلك كان نوعاً من العذاب "الوثائقي". وأضاف المحامي جميل أنه ليس من المؤكد الحصول على الترخيص حتى وإن تم تجاوز تلك الإجراءات.

وقد قيل لنا إن مرافقة مواطنين سودانيين للمنظمات الإغاثية من شأنه تيسير الحصول على التراخيص اللازمة وتسهيل العبور إلى دارفور وجنوب السودان، وذلك بسبب انعدام الأمن على الأوراح والممتلكات في تلك المناطق بالنسبة للسوادنيين أنفسهم ناهيك عن الأجانب.

والتحق محمد بالسيد جميل ليشاركه شرح الإجراءات المتّبعة هناك. وقد أكدّ كلاهما أن كافة الجهود المبذولة للوصول إلى تلك المناطق يمكن أن تبوء بالفشل لمجرد أسباب شخصية. غير أنني لم أكن أنوي الاستسلام. ولم يكن لدينا أي جهة توصلنا إلى الهيئات الإغاثية في الخرطوم لتساعدنا على إنهاء الإجراءات بسرعة.

طلبنا من أصدقائنا المساعدة للحصول على ترخيص بطريقة أيسر للوصول إلى جنوب السودان أو دارفور. وانطلقنا في متابعة الأجراءات اللازمة في يوم الأحد الذي يصادف أول أيام الأسبوع هناك. ثم قررنا الذهاب إلى أثيوبيا بدلاً من البقاء ننتظر في السودان.

تنوي أمراً فيُكتب لك آخر

هنا أثيوبيا، موطن ذوي الوجوه الصفراء. قيل لنا أن الكلمة تعني البلد الذي يتكلم أهله الأمهرية. كان المطار الذي نزلنا فيه أوسع من مطار الخرطوم وأكثر جودة وتنظيماً.

ويحس المسافر هناك أن المطار دولي لما يتمتع به من نظام وتوجيهات وتصنيف للمسافرين. ويستطيع المرء الحصول على تأشيرة الدخول إلى أثيوبيا من المطار، كما أن دخول الأجانب وتجوالهم في أثيوبيا يتم بسهولة ومن دون مشاكل. وتتميز الإجراءات الإدارية هناك بأنها أكثر جدية وتنظيماً، ذلك لأن القواعد والوضوح يزيدان من سرعة الإنجاز. وقد نجحت أثيوبيا في تحقيق ذلك بعكس سائر الدول الإفريقية.

تُعدّ أثيوبيا من بين الدول الأكثر فقراً في العالم، وتقدَّر قيمة الدولار الواحد في تلك الفترة بـ 8,7 بر. ويمكن أن يلاحظ المرء مظاهر الفقر منتشرة في كل مكان تقريباً في العاصمة أديس أبابا. وقد وصل التلوث إلى درجة عالية، حيث كنّا نختنق بدخان عوادم السيارات وتكتوي عيوننا بتلك الغازات السامة في الشوارع المزدحمة. ويبلغ عدد سكان أثيوبيا 80 مليون نسمة، وتقدر نسبة المسلمين منهم بـ 50 أو 55%، والمسيحيون بنسبة 25 أو 30%، فيما يشكل الوثنيون نسبة 10 أو 15 بالمائة. غير أن البعض يعتبر أن نسبة النصارى تراوح بين 50 و55%، ونسبة المسلمين تتراوح بين 25 و30% فيما تبقى نسبة الوثنيين في مستوى 10 أو 15 بالمائة. وأنا لا أعلم أي الإحصائيتين صحيحة.

تتراوح الأجرة الشهرية للعامل هناك بين 300 و1500 بر، فيما يتروح مرتب الموظف بين 500 و1500 بر. ومن الطبيعي أن هذه المرتبات تتعلق بمن يستطيع العثور على عمل في هذا البلد. إذ أن المتعلّمين وأصحاب المهارات والصناعات يمكنهم إيجاد العمل. لكن الذين لا يمتلكون تلك المزايا فكثير منهم يرضى بالعمل بـ2 أو 3 بر في اليوم.

كانت العاصمة أديس أبابا تسمّى "جيلّي" وهي كلمة كلمة تعني مدينة الحمامات المعدنية. ثم أطلق عليها فيما بعد اسم يحمل معاني الخضرة والجمال، فكلمة "أديس" تعني حديث و"أبابا" تعني زهرة، أي الزهرة الجديدة.

اتخذت اديس أبابا من اسم "الزهرة الجديدة" فرصة لتنتقل من وضعية المدينة ذات الأحياء الفقيرة المتداخلة، لتضيف إليها طوقاً من الأحياء الخضراء الجميلة ينتاسب مع اسمها الجديد.

لا تتجاوز درجة الحرارة في العاصمة الـ30 درجة، وهي تحمل اسماً يتناسب مع هذا البلد الجميل الذي يحلو فيه العيش. وعلى عكس الفكرة السائدة عن الحرارة الحارقة في إفريقيا، فإنك تجد في أثيوبيا برداً يعطيك فرصة الاستمتاع بحرارة المدفأة.

أثيوبيا بلد الحضارة القديمة. حكمتها سلالات مختلفة. وسيطر عليها نظام شيوعي طيلة 37 سنة. ومنذ ثورة عام 1991 وهي جمهورية فدرالية تدار بشكل ديمقراطي. لم تشهد أي حرب لتحريرها من الاحتلال، ذلك لأنها الدولة الإفريقية الوحيدة التي بقيت مستقلة ولم تعرف استعماراً أجنبي البتة.

أثيوبيا هي ما كان يعرف قديما بالحبشة. إنها موطن بلال الحبشي أول مؤذن في الإسلام. ومن منطقة "كافّا" في أثيوبيا انتشرت القهوة في مختلف أنحاء العالم، لتصبح في تركيا رمزاً للمذاق الرائع الذي يختصر الزمن أربعين عاماً.

وهنا علمت أن القهوة التي نشربها اليوم بمذاقات مختلفة، يطبخ الأثيوبيون حبوبها وهي خضراء ويشربون ماءها قبل 300 عام. وبعد ذلك بدأوا يحمّصون حبوب القهوة ويطحنونها ويشربون ذلك الطحين مغلياً في الماء. وكانت إحدى الطرق الصوفية في اليمن قد ابتدعت في القرن الـ14 هذه الطريقة في استخدام القهوة. ويرجَّحُ أن هذه الطريقة قد انتقلت من الحبشة إلى عدن فالقاهرة ثم مكة. وانتشر شرب القهوة بهذا الشكل في كافة أنحاء جزيرة العرب.

وفي عهد السلطان سليم الأول تعرّف أهالي إسطنبول على القهوة. وكان والي اليمن اوزدمير اوغلو عثمان باشا يعشق هذا الشراب الساحر، قد أحضره إلى قصر سعد آباد بالآستانة. فأعجب آل عثمان بالقهوة وأنشأوا لها مقاهي وأطلقوا موجة من حب القهوة عمّت العالم.

مازالت أثيوبيا تعيش قصتها القديمة. ربما لأنها مازالت تستخدم تقويم الإسكندرية المتأخر عن بقية أنحاء العالم بـ7 سنوات. ويضم العام في هذا التقويم ثلاثة عشر شهراً، يحتفلون في الشهر الثالث عشر بعيدهم السنوي. وإضافة إلى التقويم المختلف لدى الأثيوبيين توزيع مختلف لساعات اليوم. ففي حين يبدأ اليوم في كافة أنحاء العالم في منتصف الليل، تجد اليوم يبدأ هنا مع شروق الشمس. فعندما تكون الساعة في تركيا السادسة صباحاً، تكون الساعة في أثيوبيا الواحدة صباحاً، ذلك لأن الشمس قد أشرقت حينها. ولأن اليوم يبدأ بشروق الشمس، فإن الحياة هنا تبدأ بعد العالم بست ساعات تقريبا.

ومن الأمور الجديدة التي حصلت عليها في تجربتي المختلفة في أثيوبيا هي تلك الأصوات التي تطلقها مكبرات الصوت في الساعة الثالثة 03:30 من كل ليلة. وقد زادت دهشتي عندما علمت أنها عبادات ليبية تصدر عن كنيسة تقع وراء الفندق الذي نقيم فيه. ومن الطبيعي أن تصيبنا الدهشة من صلاة التهجد في الكنيسة. فقد كنّا نظنّ أن صلاة القيام خاصة بنا نحن المسلمين. وقد ازدادت دهشتنا عندما سألنا عن أصل تلك العبادة وأسبابها. فقد قالوا لنا: "لقد ضيعنا دنيانا ولذلك علينا ألاّ نخسر آخرتنا"...!

ومازلت في رحلة البحث كي لا أضيع. كنت أتجول في الأحياء الفقيرة المجاورة وأتحدث إلى الفقراء والمحتاجين. فأبتعد عن أديس أبابا 100 كيلومتر لأطّلع على الحياة العامة للناس ربما أجد ما كنت أبحث عنه هناك.

لا تعاني أثيوبيا من حرب أهلية ولا من أي مشكل مترتب عنها. فرغم الفقر المدقع في هذا البلد، فإن ظل المروحية العسكرية الذي أبحث عنه لم يقع على هذه الأرض. والناس الذين ينتظرونني والذين أسعى إلى الوصول إليهم ليسوا في هذا البلد. لذلك عليّ أن أواصل السير.

وبعد ساعتين من الطيران رجعنا إلى الخرطوم. ففي بوابة الجوازات كانت المفاجأة، حيث أخذ الموظف جواز السيد ذي الكفؤ قال له: قف جانباً وانتظر، إنك لا تستطيع الدخول.

ولأن صديقي لا يعرف العربية تحدثت أنا مع الموظف، وقلت له في حيرة:

- أنا رفيقه، لقد أتينا مع بعض، ما المشكلة؟

- هات جوازك أنت أيضاً لننظر في الأمر.

مددت إليه جواز سفري، فأمعن النظر في تأشيرة الدخول وقال:

- إنكما لا تستطيعان الدخول بهذه التأشيرة. تنحّيا إلى جنب وانتظرا. وبعد عبور البقية سأشرح لكما الأمر.

انتظرنا عبور الجميع إلى أن التفت إلينا الموظف وقال:

- لقد حصلتما على تأشيرة لدخول السودان. ودخلتما السودان ثم ذهبتما إلى أثيوبيا. والتأشيرة التي لديكما صالحة لرحلة واحدة. ولا تستطيعان الدخول بهذه التأشيرة. وتحتاجان إلى استخراج تأشيرة مرة أخرى.

- ولكن التأشيرة التي حصلنا عليها صالحة إلى تاريخ لاحق. أليس من الواجب أن تكون صالحة خلال هذه الفترة؟

- لا إنها صالحة للدخول مرة واحدة. ولن تستطيعا الدخول من دون الحصول على تأشيرة جديدة.

- طيب، كيف يمكننا الحصول على تأشيرة هنا؟

- يمكنكما العودة إلى أثيوبيا وتقديم طلب تأشيرة من هناك.

ولم تفلح محاولاتنا لإقناعه ولو بالاتصال بأصدقائنا ومعارفنا في الخرطوم.

لقد كنّا أشبه بأبطال نكتة حقيقية. ومن الطبيعي أن تحافظ الدول على قواعدها وأمنها وخصوصياتها، وكذلك عدم ثقتها في الأجانب. ولذلك يمكن تفهّم هذا الموقف والقبول بالتزامهم بالحدود والضوابط، وبالشك في كل من يتكلم لغة لا يعرفونها ويحمل ثقافة وقيماً مختلفة عمّا في تلك الدول. لكن ما عشناه في ذلك اليوم لا يمكن أن تستوعبه عقولنا. وأنا أقصد تلك الذهنية التي تعمل على حماية بلدها من الخارج لتلحق أضراراً دائمة بالبلد من الداخل، وهم يفعلون ذلك بكل طيش وغفلة.

لقد رافقتنا شرطة المطار إلى بوابة الطائرة للعودة من حيث أتينا. إنها المرة الأولى التي أتعرّض فيها إلى مثل هذا الموقف. ولا أحد منا كان يعرف ماذا سنفعل. وعند صعود الطائرة تبادر إلى ذهني أن نسألة المضيفة فقالت:

- إن الطائرة ستتجه أولاً إلى القاهرة لتأخذ عددا من الركاب ثم تعود إلى أديس أبابا. ويمكنكما الحصول على تأشيرة من قنصلية السودان.

- طيب، ألا يمكننا الحصول على التأشيرة من القاهرة؟

- لا يمكنكما النزول في القاهرة، لأنه ليس لديكما تأشيرة لدخول مصر، لذلك عليكما الذهاب إلى أديس أبابا.

تواصلت معنا حالة النكتة والعجز المطلق. فطرنا إلى القاهرة ثم أديس أبابا. وانتظرنا ساعات طويلة في المطار. وكلفنا التأخير الحاصل إلى حد تلك اللحظة 3500 دولار. وقررنا الانتظار حتى الصباح. وفكرت أنا في الاتصال بالسفارة التركية، أما ذو الكفؤ فكان سيتصل بالسفارة الألمانية. وذلك لكي نتحرك حسب توصيات السفارتين. ومع تدخل السفارة في الأمر اكتفينا بدفع جزء من تكاليف بعد طرح غرامة البقاء في المطار. وبذلك كانت التكلفة الزائدة المترتبة عن خطأ بسيط في التأشيرة 2488 دولاراً، وحمدنا الله كثيراً على إنقاذ 1760 دولاراً كانت ستضيع منا بلا سبب.

وفي الفترة التي قضيناها في أثيوبيا فشلت الجهود المبذولة من أجل الذهاب إلى دارفور أو جنوب السودان. وبقينا مرة أخرى عالقين بسبب "مظلمة الوثائق" التي تعرضنا لها. فشغلنا أنفسنا في الفترة التي بقينا فيها في الخرطوم بزيارة المناطق القريبة التي تقطنها المهاجرون والفئات الفقيرة مثل التجمعات السكنية في مانديلا مايو. غير أننا لم نجد أرضية مناسبة للمبادرات التي نسعى لتحقيقها وذلك بسبب كثرة الأيتام هناك. ولم يبق أمامنا غير العودة.

خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الوراء

وما كان الذهاب ذهاباً، ولا العودة العودة. ففي كل خطوتين أخطوهما إلى الوراء، أتقدم إلى الأمام بقوة أكثر. ففي العودة الأولى قد قمت بحل النصف من هجرتي. وفي هذه المرة زدت يقيناً بأن الأمر سيكون كذلك. فبحث بكل ما أوتيت من قوة عن الطريق والمؤسسات والأشخاص الذين يمكنهم مساعدتي، واجتهدت كثيراً كي أصل إليهم. وبالاستعانة بفكرة ألقاها إليّ الفلسطيني فكري شعبان مدير مكتب قناة الجزيرة في تركيا، فقد أتيحت لي الفرصة للوصول إلى شخص ساهم في تقديم خدمات إنسانية لملايين الناس بشكل مباشر أو غير مباشر. إنه الدكتور عبد الرحمن الصميت مؤسس جمعية العون المباشر... وفي الحقيقة لم أسمع به من قبل.

الدكتور السميط متزوج وأب لخمسة أطفال، وقد ولد في الكويت عام 1947 وتخرج في كلية الطب بجامعة بغداد، وواصل تخصصه في كل من كندا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد قرأت عنه أنه عمل في مستشفيات كندا وبريطانيا بين عام 1974 وعام 1980م.

وابتداءً من عام 1983 أوقف حياته لمكافحة مشاكل الجوع والفقر في القارة الإفريقية. ثم أسس جمعية العون المباشر وتولى فيها خطة الرئيس والأمين العام. وساهمت فكرة التعرف على الصميت في بعث بصيص جديد من الأمل.

انتظرت الدكتور الصميت على أحر من الجمر، فهو يعرف تركيا جيداً، وقد قبل دعوة تلقاها من بعض الهيئات الإغاثية في تركيا. وبعد أيام من لقائه وحديثه عن تجربته في المجال الإغاثي، أخبرته بفحوى الأعمال التي أريد أن أقوم بها في إفريقيا، وأنني أبحث هناك عن منطقة بعينها في تلك القارة. وذكرت له أنني أريد الذهاب إلى دارفور وجنوب السودان، فقال لي:

- لا داعي للذهاب إلى السودان وبذل طاقتك هناك بلا فائدة. ففي القارة الإفريقية كثير من الدول التي تعاني من ظروف صعبة. فاذهب إلى هناك واعمل... ولماذا السودان بالذات؟

- فأجبته: "أنا أبحث عن مناطق صالحة وتعاني من أوضاع صعبة وتحتاج إلى المساعدة. وأتصور أن دارفور وجنوب السودان تتوفر فيهما تلك الشروط. وأفكر في تقديم الدعم للناس في تلك المنطقة إذا استطعت الذهاب إليها. ولذلك أريد الذهاب إلى السودان". ولم أحدثه عن محاولات البحث عن منطقة زوراسودان.

- فقال لي: "لقد أنشأنا عددا من المشاريع في السودان مثل المدارس ودور الأيتام. ولكننا أوقفنا مكتبنا وعلقنا نشاطاتنا هناك منذ فترة. فالسودان هي البلد الوحيد الذي اسحبنا منه".

أثار كلامه فيّ الدهشة، فلم أكن أنتظر مثل هذا الجواب. فما سبب انسحابهم من السودان وهم يعملون في كافة أرجاء إفريقيا؟

وواصل الصميت كلامه: "نحن نقدم الخدمات في أكثر من ثلاثين بلداً إفريقياً. وفي مثل هذه النشاطات الدولية تعترضنا مشاكل وعراقيل، وهو أمر روتيني. ورغم أن بعض الدول تسعى لتسهيل عملنا، إلا أن الإجراءات في حد ذاتها مشكلة. ففي كينيا مثلاً تم ترحيل كامل فريقنا العامل هناك مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وقد تجاوزنا تلك المشكلة بعد سلسلة من الجهود واللقاءات المكثفة. لكن المشكلة في السودان تحمل أبعاداً مختلفة جداً. وسأعطيك مثالاً على ذلك من دون الدخول في التفاصيل. ففي السودان قطاع الطباعة ضعيف والقدرة الشرائية لدى الناس متدنية. وتوجد مشكلة في توفر المصاحف هناك. ورغم أننا نقوم بإدخال المصاحف وتوزيعها في الدول ذات الديانات المختلفة، إلا أننا في السودان لا نستطيع فعل ذلك ونصطدم بمشكلة الجمارك. ورغم أن بعض المسؤولين يؤكدون لنا أنهم تدخلوا لحل المشكلة، إلا أن رأينا عكس ذلك في كل مرة يطلب يعاند فيها موظفو الجمارك في طلب دفع الضريبة الجمركية. وقد عشنا مثل تلك التصرفات غير المسؤولة عندما احتلوا بعض المدارس ودور الأيتام التي بنيناها هناك، بذريعة أن القوات العسكرية تحتاج إليها. ولم نجد فرصة حتى لإخلاء تلك المباني من محتوياتها. وعندها فقط تيقنت أننا لن نستطيع العمل في السودان مرة أخرى"...

وأمام ما سمعته من الدكتور الصميت تيقنت أنني ليست لي دراية أو تجربة لأعقّب على كلامه أو أعلق عليه. وفي تلك اللحظة سقطت كل أحلامي في الماء. فكيف ستتحقق أحلامي وأهدافي وخططي وهجرتي؟ وبقيت طوال الليل أتقلب في فراشي وأنا أفكر في تلك الأمور. ثم حدّثت الصميت عن رغبتي في زيارة عدد من الدول الإفريقية الأخرى لنفس الأهداف، وإن لم أستطع الذهاب إلى السودان في هذه المرحلة. وعندما أفصحت عن رغبتي في الاطلاع على نشاطات جمعية العون المباشر والاستفادة من تجربتها على أرض الواقع، سرد لي الدكتور الصميت قائمة من الدول التي يعملون فيها، ووعدني بالمساعدة بعد أن تتضح وجهتي.

ولم يمض وقت طويل حتى اتخذت قراري بأن أذهب إلى كينيا وأوغندا وتنزانيا. وبعد فترة قصيرة قام الدكتور الصميت بإعلام مسؤولي مكاتبه في الدول التي أريد الذهاب إليها، فأخبروه أنني أستطيع القدوم وقتما أشاء وأنهم سيخصصون لي دليلاً وسيقدمون لي كافة أنواع الدعم اللوجستي. وبهذا الشكل سأتمكن من الذهاب إلى أماكن لم أكن أتصور أحداً غيري ذهب إليها في دول لا أعرف لغاتها وجغرافيتها وثقافتها، وبهذا الشكل سأتمكن من زيارة الناس في المناطق الريفية المعزولة في تلك البلاد. وبدعم من الدكتور الصميت أصبحت أمتلك الفرصة لاقتناص النتائج التي أبحث عنها خلال أقل من عام، بعد أن كنت سأحصل عليها بطرق أخرى في عشر سنوات على الأقل.

في طريق طويل ودقيق...

وبتوصية من الدكتور الصميت حددت طريق الرحلة الذي يمر من كينيا ثم أوغندا فتنزانيا ومنها إلى بركينافاسو والنيجر. وباستثناء تنزانيا كنت قد زرت كل تلك الدول في مناسبات سابقة مختلفة. في تلك الدول أنماط حياة تبعث فيّ الحزن أحياناً والأمل أحياناً أخرى. ففي داخلي يستقر دعاء بأن أكتب في المستقبل عن ذكريات وأحداث عشتها في ذلك الطريق الطويل الدقيق الذي سلكته ليل نهار على مدى عامين أو أكثر.

وفي المحصلة فقد وجدت في كل تلك الدول التي تجولت في أصقاعها من مراكز المدن إلى أقاصي أريافها البعيدة، وجدت فيها شعوباً تبعثني على الاطمئنان. ولكنني لم أجد في أي بلد من تلك البلدان أي أثر لأصحاب "زوراسودان". إلا أنني لن أيأس، لأنه مازال أمامي كثير من الدول الإفريقية التي تستحق الزيارة والبحث.

وبناءً عليه أعددت الخطة من جديد، وحددت البلدان التي سأذهب إليها هذه المرة. كنت أريد أن أذهب أولاً إلى تشاد، ومنها إلى مالي أو مالاوي. وقد وقع اختياري الأول على تشاد لأنها واحدة من أفقر دول العالم، وتشهد حرباً أهلية. اتخذت قراري وبدأت في إعداد العدّة للذهاب إلى تشاد...

الدكتور الصميت ذلك الصديق العزيز الذي عثرت عليه في وقت متأخر، قد اضطر لترك العمل الميداني عام 2008 بسبب مشكل صحية كان يعانيها من بينها إصابته بمرحلة متقدمة من داء السكري. ثم توفاه الله في شهر أغسطس من عام 2013م. كان من أهل الخير والنضال، وتلك وراءه في إفريقيا آلاف الآثار التي تشهد له رحمه الله، من بينها تمويل 9500 دار أيتام وتوزيع 95 ألف منحة دراسية وتأسيس 200 مركز لتعليم النساء و860 مدرسة و4 جامعات وحفر 9500 بئر ماء وإنشاء 102 مركز إسلامي و5700 مسجد جامع.

في عام 2007 حان موعد عيد الأضحى، وكنت أستعد للذهاب إلى تشاد، وعندما بلغني أن الفريق الذي سيذهب إلى السودان لتوزيع الأضاحي، سيزور قسم منه إقليم دارفور، ذكّرت أصدقائي مراراً وتكراراً بألاّ ينسوني في تلك الرحلة. وكنت أنتظر منهم الرد وكان قلبي يقفز فرحاً وتتصارع التساؤلات بداخلي عن تلك المنطقة. ولم تكن لي نية في أن ألعب دور قائد قافلة العجائب. ولأنني كنت أعلم الأذية التي ستلحقني من "إجراءات الوثائق" فقد واصلت استعداداتي من دون أن تثني تلك الأذية من عزيمتي.

وأثناء الاستعداد للرحيل نحو تشاد، بلغني خبر كدت أطير به فرحاً مفاده أن الفريق الذي سيذهب إلى دارفور قد أضاف اسمي في قائمته. وأحسست نفسي أحلق في الهواء من شدة الفرح، ذلك لأنني ظفرت بخطوة كانت أكبر مما كنت أتصور.

لا أعرف هل سأجدها أم لا، ولكن مجرد الاقتراب منها ينتابني بإحساس قوي يقول لي إنها هناك، إذ أنني في هذه المرة سأحصل على تأشيرة السودان بعد الانتهاء من الإجراءات اللازمة خلال عشرة أيام فقط. وبعد جهد جهيد وصلنا إلى الخرطوم يوم الخميس الـ20 ديسمبر 2007، وكنت أحد أعضاء فريق يتألف من سبعة أو ثمانية أفراد. وقررنا أن يذهب قسم منا إلى دارفور، أما القسم الآخر فسيتوجه إلى منطقة كسلة في شرق السودان. وتلقينا تعليمات بأن نشكل فريقا من ثلاثة أو أربعة أشخاص، كان من بينهم شخص واحد أعرفه من قبل وهو طوران، أما الآخرون فقد تعرفت عليهم للمرة الأولى حينها.

دائما أسير في الليل

بعد أيام قليلة وعند الانتهاء من الإجراءات اللازمة، ألقيت نظرة على التذاكر التي بين يدي، فلم أكد أصدق نفسي، فقد طارت بنا طائرة روسية قديمة في رحلة داخلية إلى مطار نيالا حيث كان في استقبالنا

موظفو جمعية التضامن الخيرية وأخذونا إلى مركز الجمعية. هؤلاء الأصدقاء الذي سيكونون لنا مساعداً ودليلاً، هم في الحقيقة موظفون في هيئة خيرية محلية تم إنشاؤها في نيالا لتكون شريكاً للهيئات الإغاثية الأجنبية العاملة هناك.

سكان نيالا يقارب عددهم المليون، ونصفهم تقريباً من النازحين الذين فروا من الحرب الأهلية الدائرة في المنطقة ليسكنوا في مخيمات تحيط بمركز المدينة. ولا يوجد في نيالا أي أثر يدل على أنها مدينة كبرى، فلا يوجد فيها فنادق الأمر الذي اضطرنا إلى السكن في مقر الجمعية. ولا يوجد كهرباء في هذه المدينة التي يعيش أهلها في الظلام رغم استخدام البعض مولدات تزيد من ثقل التكاليف المالية. ولا يوجد بالمدينة طريق معبد باستثناء طريق رئيسي واحد رأينا عليه طبقة من الأسفلت المتآكل. ولهذه الأسباب وغيرها لم نشعر بأننا في مدينة كبرى.

تعرفنا على السيد عبد المجيد نائب رئيس جمعية التضامن. وكان مكلفاً بمرافقتنا طيلة الفترة التي سنباشر فيها نشاطاتنا. وقد استقينا منه معلومات عن الخطة التي أعدتها الجمعية لنتبعها هناك.

يعيش نحو 2.5 مليون لاجئ في مختلف المخيمات في إقليم دارفور، وكلهم يحتاجون إلى المساعدة. أما الذين يعيشون في المدن والقرى بالإقليم، فقسم كبير منهم يعاني حالة من الفقر تجعل من الصعب تمييز من يحتاج فعلاً إلى المساعدات الإنسانية من العائلات ذات الحالات العاجلة. وكان من الطبيعي أن يتم إعطاء الأولوية للذين يسكنون في المناطق القريبة، وذلك بسبب أن كمية الأضاحي التي سنوزعها أقل بكثير من عدد المحتاجين، وأنه من الصعب الذهاب إلى المخيمات والتجمعات السكنية البعيدة.

وكانت مخيمات كلمة ودرج أكبر مخيمات اللاجئين وأقربها إلى مدينة نيالا. وقد قيل لنا أن في كل واحد من تلك المخيمات يقطن مائة ألف لاجئ على الأقل. مما يجعلها خارجة عن السيطرة والمراقبة باعتبار أن عدد سكانها يقارب عدد سكان بعض المدن. النسيج السكاني في تلك المخيمات مختلط جداً، ويعاني الناس هناك من اضطرابات وآلام وصدمات عميقة بسبب الحرب الأهلية، فمنهم من رأى بأم عينه مقتل بعض أقاربه. ومن يدخل إلى تلك المخيمات بشكل اعتباطي، ويتحرك من دون أن يعرف الهيكلية الداخلية هناك، يمكنه أن يتعرض لمشاكل غير متوقعة. ولهذا السبب كان من الواجب علينا ربط علاقات مع الأعيان ورؤساء القبائل المسؤولين عن المخيمات بهدف ترسيخ الثقة المتبادلة معهم. وكان من الممكن أن ينقلب الخير إلى ضرر إذا حاولنا الدخول إلى هناك والنشاط وتوزيع المساعدات من دون أخذ التوازنات داخل المخيمات بعين الاعتبار. ولذا فقد التقى مسؤولو وقف التضامن قبل عيد الأضحى بعدد من الأعيان المسؤولين عن بعض المخيمات والتجمعات السكنية المختلفة، وطلبوا منهم تحديد العائلات الأكثر فقراً وحاجةً ليستفيدوا من الأضاحي التي سيتم توزيعها. وبعد التحقق والتثبت وإعداد قوائم بأسماء المحتاجين،

أعلمونا بأنه تم تحديد العائلات المحتاجة وأماكن توزيع المساعدات عليها. وبعدما تكون اللحوم جاهزة للتوزيع، كان سنستدعي من وردت أسماؤهم في القوائم التي تم إعدادها تحت إشراف أعيان المنطقة، لنعطيهم نصيبهم من لحوم الأضاحي، غير أن الأمور التي تبدو في الظاهر بسيطة، لا يمكن تنفيذها بسهولة، بسبب بعض الاختلافات العميقة التي تظهر في بعض الأحيان على السطح، وحينها ندرك فداحة الوضع في تلك المنطقة.

بعد أداء صلاة العيد، بدأنا في الإعداد لتوزيع الأضاحي. غير أن الأصدقاء المسؤولين لم يتركوا لي أي كثيراً من العمل بسبب اعتنائهم بعملية التوزيع بأنفسهم، فاكتفيت بالمشاركة في أوقات الضرورة. وكان من المفترض أن يتم توزيع كمية من الأضاحي إلى مخيمات اللاجئين، ولتذهب كمية أخرى إلى بعض التجمعات السكنية القريبة من نيالا. وتم الاتفاق على أن يستغرق التوزيع يومين أو ثلاثة بسبب تعذر إنهاء المهمة في يوم واحد. إذ أنه ليس من السهل نقل المواشي إلى أماكن التوزيع وذبحها وتقطيع اللحوم وفرزها وتوزيعها. ففي بعض الأماكن ذبحنا خمس بقرات أو عشرة كاملة، وقطعنا اللحم وصنفناه وقدمناه إلى المحتاجين بشكل منظم، وقد أخذ كل ذلك منا وقتاً طويلاً.

أمضينا يومين أو ثلاثة من أيام عيد الأضحى نتجول بين المخيمات والتجمعات السكنية المحيطة بمدينة نيالا، ونقوم بتوزيع لحوم الأضاحي على المحتاجين هناك. وفي تلك الفترة كنت أشاهد الناس والمنطقة، وأجتهد في الحديث مع الأهالي وأسألهم عن الأحداث والحياة المعيشة، في محاولة مني لفهم قضية دارفور وأهالي دارفور. والتقيت بكثير من المظلومين والمحتاجين من سكان الإقليم. فمئات الآلاف منهم يحلمون بالعودة إلى قرى وبلدات كانوا يحلمون بالعودة إليها لكنها لم تبق موجودة على الأرض.

إضافة إلى أنها ليست مكانا مناسباً للعيش البشري، فإن تلك المخيمات التي تم إنشاؤها على مساحات شاسعة وممتدة، تذكرنا بسجون الهواء الطلق التي تم إعدادها لهؤلاء المجبرين على العيش في تلك المخيمات.

فهل لهؤلاء الناس بصيص من الأمل وهم يعيشون في خيام صغيرة متهالكة تحت الشمس الحارقة وليس لهم أرض يزرعونها أو عمل يرتزقون منه. فنصف أهالي دارفور تقريباً يعيشون في هذه المخيمات، ومئات الآلاف من هؤلاء محرومون من الرحمة والعدالة، وقد أصبح من السهل عليهم بمرور الزمن أن يسقطوا في دوامة الحقد والكراهية والعدوانية.

أهالي دارفور ذوو أدب وإيمان وكرامة ويتحلون بالثقة وحب العمل. غير أن الحرب الأهلية قد طحنت فيهم كثيراً من تلك الخصال الحميدة، ولم يبق لهم اليوم من الحياة الكريمة التي كانوا يعيشونها في السابق إلا النزر القليل. فها هم يحاولون المواصلة العيش في تلك الأكواخ والخيام مستعينين بما يجود عليهم أهل

الخير من مساعدات إنسانية. ففي مثل هذه الظروف ينشأ جيل من الناس غاضب ويفتقر إلى هوية والتعليم والغذاء وموارد الرزق. هذا إضافة إلى أن هذا الجيل يمكن أن يحكم إقليم دارفور في المستقبل القريب.

ورغم ما رأيته طيلة أربعة أيام من مظاهر البؤس والفقر في نيالا والتجمعات السكنية القريبة منها وفي المخيمات على وجه الخصوص، فإنني لم أستطع اتخاذ أي قرار حول ما إذا كانت تلك هي الإشارات والمعايير التي أبحث عنها. ولم أر في كل الدول التي زرتها أكثر احتياجاً ومظلومية من أهالي درافور. ففي الدول الأخرى يعاني الناس من الفقر بسبب الإدارة الخاطئة وانعدام العدالة الاقتصادية وأسباب أخرى جهوية وشخصية. لكن أهالي دارفور يحاولون البقاء على قيد الحياة في تلك المخيمات المتهالكة، في حالة من اليأس والعجز، بعيداً عن مواطنهم وقراهم وبلداتهم، يعانون الألم والحسرة جراء الخسائر التي تكبدوها في الأرواح والممتلكات بسبب الحرب الأهلية. وأعتقد أن أهالي جنوب السودان يعانون من نفس الوضعية. وقد عاينت بنفسي في دارفور شعباً يعاني الآلام والحرمان ويحتاج إلى الدعم والمساعدة.

في الحقيقة لقد لاحظت في دارفور كثيراً من الخصائص التي تتماشى مع المعايير التي كنت أبحث عنها. فقد عاش أهالي هذا الإقليم حرباً أهلية. ومازال عنف تلك الحرب مؤثراً في السكان إلى الآن. ويوجد هنا آلاف المتضررين من تلك الحرب الأهلية الذين أحرقت قراهم وأفنيت بلداتهم. وتجوب المجموعات المسلحة كافة مناطق الإقليم. وكلما وجدوا فرصة ينفذون عمليات قوية. وأصبح من العادي رؤية البعض يتجول في المدينة بالأسلحة الثقيلة. ويعيش في المنطقة ذاتها كل من الظالم والمظلوم والمعتدِي والمعتدَى عليه. والناس هنا يعانون أوضاعاً صعبة إضافة إلى عجزهم عن تجاوزها. ويعتمد الناس في المنطقة على "الذرة" كغذاء رئيسي.

كنت في تلك الفترة أسبح ضد التيار وأجتهد للخروج من الدوامة. وكان يقهرني منظر إخوة لي هناك حال الواحد منهم أسوأ من الآخر. وقد ترك الملايين من المسلمين إخوانهم في ذلك الظلام البائس، وكان الأجدر بهم أن يحتضنوهم كما تعانق الشمس البراري. وقد تركتهم أنا أيضا في تلك الظلمات.

وعندما أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية، أجد في نفسي نوعاً من التردد لكما هممت بأن أقول هذا هو المكان الذي أبحث عنه. إذ يجب أن يكون هناك جنود كالجراد يهاجمون الناس ويسلبونهم ممتلكاتهم. ورغم أنني أبحث عن ناس يعانون البؤس، إلا أنني وجدت ناساً لا يحنون الرؤوس للباطل ولا يثقون في غير الله. وكأن شيئاً ما ناقص هنا.

بدأت أستحثّ الأمل بداخلي ربما أجد في جنوب السودان ذلك المجتمع الذي لم أجده في دارفور. وإن كان هذا الأمل ضعيفاً إلا أنه ساعدني على التخلص من اليأس والقنوط. وكان يحاسبني في أعماق قلبي، إذ لم أكن مقتنعاً بأن أدير ظهري وأذهب، بعد أن رأيت كل هؤلاء المظلومين والمحرومين. وبعد تردد كان

يلف حالة من المد والجزر بداخلي، تيقنت أنه ليس من الصواب أن أبقى هنا. فلدي هدف محدد، وعليّ التركيز على ذلك الهدف من دون أن أضيع الوقت.

تعالوا نتذكّر إحدى طرائف جحا، أو بطل المزاح في تركيا نصر الدين خوجا...

أضاع جحا يوماً حماره، فقام يبحث عنه. قضى وقتاً طويلاً يطوف بين الأودية والروابي. وفي أحد الأيام رآه أهالي القرية يبحث عن حماره في سفوح إحدى التلال وتغمره الغبطة والفرح، فقالوا له:

- ماذا حدث لك يا جحا؟ كيف تبحث عن حمارك وأنت تنشد وتغني؟

فأجابهم قائلاً:

- لم يبق لي مكان أبحث فيه إلا هذه التلة. وأتمنى أن أجد حماري وراءها. وإن لم أجده هناك فستسمعون مني صرخة لم تسمعوا مثلها من قبل...

لقد وجدت نفسي أعيش النكتة ذاتها. لم يبق لي غير جنوب السودان، وأتمنى أن أجد ضالتي هناك. وإن لم أجد في جنوب السودان ما أبحث عنه، فستسمعون مني صرخة لم تسمعوا مثلها من قبل...

كان عبد المجيد وأصحابه في حالة متقدمة من الأرق والإجهاد. إذ كانوا ينامون في وقت متأخر من الليل ويستيقظون باكراً، بهدف إنهاء برامج توزيع الأضاحي في الوقت المناسب ودون أخطاء بالتنسيق مع عدد من الهيئات الإغاثية المختلفة. وقد بلغ الأمر بعبد المجيد أن تنطبق أجفانه تلقائيا إذا أطال أحدهم الكلام أمامه. وكان يصعب عليه فهم المتحدث والرد على كلامه.

كنا مضطرين للمغادرة بعد يومين. وتم إعداد تذاكر الطائرة، وبدأنا الاستعداد للرحيل. وكنت حزينا ومغموما لأنني سأعود بخفي حنين. لكنني حاولت ألاّ أكشف لمرافقي عن حزني وهمي، وكنت أجبر نفسي إجباراً على مشاركتهم الحديث.

العثور على الأثر بعد بحث طويل

تناولنا طعام العشاء واحتسينا الشاي. كانت الساعة العاشرة تقريباً، وكنت أنا وطوران نجلس في الساحة مع أحد الأصدقاء. دخل علينا أحدهم وكان طويل القامة نحيفاً. إنه أمير حسين رئيس جمعية التضامن. جلس إلينا وتجاذبنا أطراف الحديث. كان سمح الوجه بشوشاً. سألناه لماذا لم نلتق به إلى اليوم؟ فقال:

"نحن شركاء مع عدد من الهيئات الإغاثية في كل من قطر وتركيا وألمانيا. وقد قسمنا العمل بيننا كي نتمّ برنامج الأضاحي في وقته. ولذا لم أجد فرصة للقائكم، لأنني كنت مشغولاً مع الهيئات الإغاثية الأخرى. وقد انتهينا اليوم من البرنامج، وها قد جئت لرؤيتكم".

تعرفنا على أمير في هذه الجلسة. حدثناه عن أنفسنا وعن تركيا. وحدثنا هو عن ماضيه وعن دارفور، وبدأ يحدثنا عن ذكرياته عندما ذهب إلى غرب دارفور عام 2006 لحفر بئر كان قد تبرع بتكاليفها أحد القطريين من أهل الخير. لقد تحدث عن المنطقة بكل ثناء وتقدير، إلى أن جلب انتباهي من دون أن أشعر، حين قال:

"باعتباري أعرف دارفور جيداً إذ تجولت فيها كثيراً، فإنني أجزم لكم أنني لم أر في حياتي بلدة مثلها. فقد تأثرت كثيراً بأخلاق أهلها، حتى كتبت فيها مقالاً عندما رجعت من إحدى زياراتي لها.

لقد أثرت تلك البلدة في نفسي، حتى أنني لن أنساها طول حياتي. تعرفون أن الحرب الأهلية قد تسببت في تهجير كثير من الناس من قراهم وبلداتهم. هناك منطقة واحدة في دارفور مازالت قائمة ويقيم فيها أهاليها من الأفارقة المحليين ولم يتم إحراقها ولم يهجرها سكانها. إنها ليست تجمعاً سكنيا صغيراً، بل هي بلدة كبيرة تحيط بها مجموعة من القرى.

تلك البلدة تسمى اومشالايا، ويعود الفضل في إنقاذ تلك البلدة من الهلاك إلى كثير من الناس يأتي على رأسهم رئيس قبيلتهم الشيخ زكريا الذي وضع خطة لإنقاذ البلدة مع عدد من رؤساء بقية القبائل وأعيانها.

الناس هنا مسالمون ومهذبون جدا، إذ لا يمر بك أحد من دون أن يلقي عليك السلام، سواء كان رجلاً أو امرأةً أو حتى صبياً. إذا عزمت على عمل ما يدعون لك بالخير، ويعاملونك بكل محبة واحترام. ويردون على السيئة بالحسنة وليس بالسيئة.

ويمكن أن أقول إن تلك البلدة هي الأكثر أمنا وسعادة بين بلدات دارفور. ورغم أنهم لم يكونوا يستطيعون الاختلاط بالسكان في سائر المناطق بدارفور، كان مسلحو الجنجاويد يدخلون أسواق هذه البلدة بسهولة ويقضون فيها مآربهم ويذهبون، من دون أن يتعرض لهم أي أحد. ولا يمكن ملاحظة مثل هذا المشهد في أي منطقة أخرى في هذا الإقليم. الناس يتجولون داخل حدود اومشالايا دون أن يحملوا السلاح، ويجمعون الحطب ومارسون الزراعة".

كلما تحدث أمير عن هذه البلدة، كلما زادت دهشتي وإعجابي. وزادت من فضولي أجوبته على الأسئلة التي كنت أطرحها عليه. فاستمعت لما يشرحه عن المنطقة بكل انتباه.

وعندما بدأ شرح الاستراتيجيا التي وضعها وطبقها رئيس قبيلة اومشالايا الشيخ زكريا لتجنب الحرب الأهلية، أحسست بنفسي وكأنها قد انتُزعت من أعماقها لتخرج من ظلمات دوامة الغموض. فقت في نفسي: إنها هي وإنهم هم! وإن صحّ ذلك فإنني وقد عثرت على أولئك الذين أبحث عنهم. ربما يكون الوقت مناسبا كي أطير نحو نور الحقيقة. غير أنني كنت أجد صعوبة في إخفاء إعصار الفرحة الذي يثور بداخلي. لكن شيئاً من الشك ظهر لي فجأة وأنا في هذه الحالة النفسية أستمع لأمير وأسأله. ألا يكون ما يحدثني عنه مجرد مسرحية؟ وحينها ألقى ذلك الشكّ بظله على الفرحة والغبطة التي كانت قد انتابتني. فأنا أعرف أن بعض الناس في إفريقيا يؤلفون قصصاً وحكايات لاستعطاف مشاعر الرحمة هادفين من وراء ذلك للحصول على الدعم المادي. ومن الطبيعي والمنطقي أن أفترض أن تلك القصة ضرب من الخيال، لذا قلت لأمير:

"لماذا لا تساعدون الناس هناك ولا تقدمون لهم الدعم ماداموا يعيشون بالشكل الذي تتحدث عنه".

وعند سماع جوابه بدأت أقتنع بأن ما يتحدث عنه حقيقة. فقد قال:

"لقد ذهبت العام الماضي إلى هناك بناءً على طلب وتوصية من أحد فاعلي الخير بهدف حفر بئر على نفقته. وكتبت مقالة لأول مرة في حياتي عن بلدة، عندما رأيت أن تلك البلدة فيها من الخصائص ما يميزها عن غيرها. وبدأت أتحدّث عن البلدة وخصائصها مع كل من أتوسّم فيه فائدة تعود عليها وعلى أهلها. لكنني لم أجد إلى الآن من يهتم بتلك البلدة ومن هو مستعد لتقديم العون لأهلها".

فقلت له: "إذا أردت أنا أن أقدم الدعم وأزور تلك البلدة فهل هذا ممكن؟".

فكان جوابه: "تلك البلدة بعيدة جداً، إنها في أقصى غرب درافور. وتحتاج إلى فترة تتراوح بين 3 و5 أيام للوصول إلى هناك بسبب الحرب الأهلية. والطرق الموصلة إلى هناك غير آمنة، وخصوصاً بالنسبة للأجانب فإن المخاطر تتضاعف. وحتى القوات التابعةى للأمم المتحدة ليسوا في مأمن من الخطر رغم سفرهم في مواكب وقوافل. وهم يتعرضون أحياناً إلى هجمات واعتداءات. ولا يمكن للأجانب التوجه إلى المنطقة من دون حماية عسكرية. ولذلك فليس من اليسير أن تذهب إلى هناك".

وكان يجيب على ذلك وعلى كل سؤال سألته إياه بأجوبة متشابهة، ولم يشعجني على الذهاب إلى هناك. وكنت أريد أن أصدّق ما يقوله ولكنني لم أحصل بأي شكل من الأشكال على الأجوبة الكفيلة برفع الشكوك التي بداخلي. واستأذننا أمير وغادرنا لأن الساعة كانت قد تأخرت جداً. وبقيت وحدي مع حمل ثقيل من الخيالات والشكوك.

كانت تلك أطول ليلة قضيتها في دارفور. لقد كانت تشبه آخر ليلة قضيتها في الكعبة المشرفة. وها إنني أواجه لوحدي من جديد عشرات التساؤلات. لكنني أحس نفسي هذه المرة على عتبة الباب الذي كنت أبحث عنه ذلك اليوم. فإما أن أتقدم خطوة إلى الأمام وأدخل وأرى، وإما أن أضع نصب عيني تلك التحذيات والمخاطر وما يروى عن المنطقة فأحجم. وفي الصباح قررت قراري. في البداية سأطلب تلك المقالة التي كتبها أمير حول تلك البلدة، فإن كانت سلّمني منها نسخة من دون مماطلة، فذلك يعني أنه يجب علي أن أضع بعين الاعتبار صحة ما حكاه لي عنها. وفي هذه الحالة لن أعود مع أصدقائي، وسأضحي بتذكرة العودة، وسأقوم بما يجب كي أذهب إلى البلدة التي حدثني عنها أمير، في سبيل الوصول بهذا الأمر إلى نتيجة قاطعة.

كنت أفكر في عدم استبعاد تلك البلدة من خياراتي ما لم أرها بأم عيني وأسمع من أهلها بأذني. وحتى وإن لم يصحّ ما يروونه عنها فإنني سأعود منها مستريح البال لأواصل البحث عن ضالتي. ولكن إن كانت تلك القصة صحيحة فسأكون من أسعد الناس في هذا العالم وأكثرهم حظا. لقد كنت أقف على عتبة الباب الذي أبحث عنه؛ فإما أن يُفتح، وإما أن أعود أدراجي إلى الوراء.

وحالما جاء أمير صباحاً طلبت منه مقالته التي كتبها عن تلك البلدة. فأخذني إلى حاسوبه داخل الغرفة وأرانيها. فوضعت منها نسخة في ذاكرتي المحمولة، وقرأتها فوجدت أنها عبارة عن القصة التي حكاها لنا الليلة البارحة. ولم أستطع البقاء أمام هذا الدليل القوي على الحقيقة من دون أن أفعل شيئاً. فبادرت بإخبار أصحابي عن قراري الأخير:

"أيها الأصدقاء، لقد كنت أبحث عن أحد الشعوب منذ زمن طويل. وقد طفت من قبل ستة بلدان من أجل العثور على أثر لهؤلاء الناس. ولم أجد إلى اليوم دليلاً أقوى من الذي وجدته الآن. إذ عندما استمعت إلى أمير، انبعث بداخلي أمل قوي بأن أعثر على الناس الذين أبحث عنهم في البلدة التي حدثنا عنها. ولهذا السبب ليس من الممكن أن أعود معكم. إذ أن عليّ أن أذهب إلى هناك وأتأكد من صحة ما يروى عن تلك المنطقة".

لقد توقعت أن يعتبروا قراري هذا ضرباً من الجنون والهذيان، بحكم أنهم لا يعرفون عني وعن ماضيّ وعن هذا الموضوع الشيء الكثير. وبالفعل فقد استاؤوا مما ذكرته لهم، وقالوا لي:

"لقد أتينا هنا معاً ومن الضروري أن نعود معا. وقد قال لك أمير إنه ليس من اليسير الذهاب إلى هناك. وتستطيع أن تعود معنا ثم تأتي مرة أخرى إلى هنا بعد أن يجهّز لك أمير الأمور لتذهب حيث تشاء".

فرددت عليهم:

"لم أكن على يقين من أنني سأجد الفرصة مرة أخرى للقدوم إلى هنا بعد العودة هذه المرة إلى تركيا. لكن ليس من الممكن العودة الآن، بعد أن سمعت ما سمعت عن تلك البلدة، وخصوصاً مادامت الفرصة قد أتيحت لي هذه المرة لآتي إلى هنا.

لا أحد يضمن لي هل أعود إلى هذا البلد ثانية إذا غادرته الآن. ورأيت أنه من المعقول البقاء هنا والبحث عن سبل الانتقال إلى تلك البلدة.

فقالوا: "سيتم إلغاء تذكرة العودة، وستنتهي الفترة المسموح لك بالبقاء خلالها في هذا البلد. وعندها يمكن أن تواجه مشاكل كبرى. ولذلك فنحن نريدك أن تعود معنا".

رغم إصرارهم على العودة معهم أكدت لهم أنني مصمم على الأمر، وأن لن أستطيع مغادرة هذا البلد من دون التأكد من صحة ما سمعته عن تلك البلدة ورؤيتها عن كثب، وأنني مستعد لكل شيء، وطلبت منهم ألاّ يقلقوا عليّ أبداً".

لم أكن لأرجع إلى بلدي بعد أن اقتربت كثيراً من زيارة زوراسودان بدعوة من أهلها

كان أمير وعبد المجيد يجلسان إلى جانبنا في المكتب، فتوجهت إليهما قائلاً:

"أخي أمير، لقد أثر فيّ كثيراً ما قصصته لي البارحة عن تلك البلدة. وأريد أن أذهب إلى هناك. لقد تحدثت مع أصدقائي، وأنا لا أفكر في العودة معهم إلى تركيا. وأنا أريد أن أبقى هنا لترافقني أنت أو أحد غيرك إلى تلك البلدة للتعرف على أهلها".

بدت على كليهما علامات الاستغراب، وبقي كل منهما ينظر إلى الآخر برهة. ولم يعرف أي منهما ماذا يقول لي، إلى أن نطق أمير:

"سنذهب إلى هناك في وقت مناسب إن شاء الله. لكن الذهاب إلى هناك في هذه الفترة صعب جدا".

فقلت: "أعرف أن الأمر لن يكون يسيراً، لكنني أريد أن أعلمك بأنني جاهز لكل شيء".

فقال: "إن الرخصة التي حصلت عليها لزيارة درافور تصلح لفترة محددة. وأعتقد أنها تنتهي بعد يومين أو ثلاثة، ومن الصعب أن نمدد لك هذه الرخصة من هنا، هذا إضافة إلى أن الرخصة لا تصلح لزيارة غرب دارفور، فهي صالحة لزيارة مدينة نيالا والمناطق المحيطة بها فقط، أما غرف دارفور فيحتاج إلى استخراج رخصة أخرى، وذلك أمر صعب جداً".

فقلت: "أنا أعرف ذلك، هو صعب ولكنه ليس مستحيلاً، ويكفي أن نحاول الحصول على رخصة، من فضلكم أنا أرجو منكم أن تساعدوني في هذا الأمر بما تستطيعان. لأنني إن عدت الآن إلى تركيا فيمكن ألاّ أتمكن من العودة إلى هنا مرة أخرى".

فقال: "يمكن ألاّ تتمكن من الذهاب إلى تلك البلدة حتى وإن تحصلت على رخصة. فالطريق إلى غرب دارفور خطير جداً، ويزداد خطورة على الأجانب أكثر. ثق أن اتباع الأجبني الطرق العادية محفوف بالمخاطر، حتى أن بعثة الاتحاد الإفريقي والأمم المتحدة في دارفور تذهب إلى هناك تحت حماية عسكرية مكثفة. فكيف يمكننا نقلك إلى هناك والحال أنه لا يمكن للأجانب الذهاب إلى المنطقة من دون حماية مسلحة مشددة".

فقلت: "أنا أريد الذهاب مهما كانت صعوبة الأمر وخطورته. إذ أنني لن أستطيع أن أجد مثل هذه الفرصة إذا تركت الأمر الآن. أنا لا أستطيع أن أتراجع بذريعة الخطورة. علينا أن نفعل ما بوسعنا، وأن نتخذ كافة التدابير الممكنة، وإذا عجزت عن الذهاب رغم ذلك، أو أصابني مكروه، فسأكون راضياً بقدري المحتوم. لكن ليس من المعقول الاستسلام والانسحاب من دون بذل أي محاولة".

يوم الغد كان موعد عودتنا إلى الخرطوم، وكان أمير واثقا من أنني لن أعدل على ما أنا عازم عنه. لذا لم يصرّ عليّ كثيراً وقال: "طيب سننظر في الأمر غداً إن شاء الله...".

في صباح اليوم الموالي استعد أصدقائي للسفر، وأصرّوا عليّ مرة أخرى بأن أذهب معهم. فاعتذرت منهم وأكدت لهم أنني لن أعود إلى تركيا قبل أن أحلّ هذا الأمر. كانت تظهر على وجوههم علامات الحزن على تركهم إياي وراءهم، ووسط هذا الإحساس دعتهم في المطار.

بقيت مع أمير وعبد المجيد

قلت لهما بابتسام: "لن يبق لكما أي طريق للخلاص مني بعدما بقيت هنا وسافر أصدقائي. والطريق هو أن توصلوني إلى غرب دارفور. وكلما تم الأمر بسرعة كلما تخلصتم مني بشكل أسرع".

تبسم الجميع وقالوا: "إن شاء الله سننظر في الأمر".

لقد بدت عليهما علامات الاستغراب والقلق لأنهما يواجهان مثل هذا الموقف للمرة الأولى. ومن يعلم فيم كانا يفكران إزاء هذا الموقف غير العادي.

أما أنا فلم أكن أشعر بالخوف ولا بالقلق. فقد كانت فكرة الذهاب إلى تلك البلدة والرغبة في الاطلاع على مدى صحة ما يُحكى عنها، قد تغلبت على كل إحساس بداخلي. لم أكن أفكر في شيء وكأنني لن ألتفت وأنظر حتى وإن احترق العالم ورائي.

بعد العودة من المطار أوصلوني إلى البيت الذي كنا نقيم فيه في نيالا. ولم يظهر أمير في الجوار خلال ذلك اليوم. وفي اليوم الموالي زارني أكثر من مرة وحدثني عن خطورة الطريق المؤدي إلى غرب دارفور وكان يذكّرني بذلك طيلة الأيام التي بقيتها في نيالا، مؤكداً استحالة الذهاب إلى هناك كما في الجولات السياحية، وعدّد لي كثيراً من الأسباب من بينها أنه لا يمكنني الذهاب من دون مرافقة موكب عسكري. ولكنني كنت أقول له في كل مرة إنني مستعد لاقتحام كافة المخاطر وتحمل العواقب، ورجوتهم أن يقدموا لي ما يلزم للذهاب إلى هناك. حتى إنني اقترحت عليهم البحث عن أي طريقة لتجاوز العراقيل التي يتحدثون عنها مثل استئجار مروحية أو اتباع أي طريقة أخرى مناسبة أكثر. وأكدت لهم أنني جاهزة لتحمل تبعات ذلك مادياً ومعنوياً.

لقد كانوا يفكرون في إنني سأعدل عن الأمر وأستسلم. ولذلك لم يستعجلوا البحث عن حل. وحاولوا بشكل دائم إقناعي بأن الأمر صعب، وذلك في سبيل أن أقلع عن الأمر. لكنهم بدأوا يبحثون معي عن سبيل للذهاب إلى تلك البلدة، عندما رأوا عزيمتي وإصراري ورغبتي الشديدة في الذهاب.

وللذهاب إلى تلك البلدة كان من الواجب في البداية تمديد رخصة دخول درافور، ثم استخراج رخصة أخرى لدخول غرب دارفور. ولم يرغب المسؤولون في إعطائي رخصة للذهاب إلى غرب دارفور بذريعة أن الطريق خطيرة ولا يمكن سلوكها من دون حماية عسكرية. ويعود موقفهم هذا إلى خشيتهم من أي حملة تضليل إعلامي في حال أصابني أي مكروه. وقد طلب كل من أمير وعبد المجيد من المسؤولين الذين يعرفونهم مراراً وتكرارً، ووضعوا وسطاء لبعض الناس المؤثرين من أجل الحصول على الرخص نريدها. وقدموا لهم أسماءكافة الكفلاء الضمانات اللازمة. فحاولوا في البداية مماطلتي وإبطاء العملية في انتظار أن أتراجع عن هدفي، لكنهم هذه المرة اجتهدوا كثيراً من أجل أن تصل هذه المسألة إلى نتيجة.

وبعد أسبوع تقريباً جاءني أمير ليبشرني قائلاً:

"لقد استخرجنا أخيراً على رخصة لزيارة غرب دارفور. وقد تم إعداد كافة الأوراق والإجراءات الخاصة بنا، وسنذهب معاً إلى هناك إن شاء الله، ويمكننا الانطلاق إلى هناك متى شئنا".

لقد عشت فرحة العيد. إذ أنني لم أكن أنتظر أن نتوصل إلى نتيجة خلال هذه الفترة القصيرة. ومن خلال متابعتي للتطورات كل يوم عن كثب، فإنن أعلم جيداً المصاعب التي تعرضا إليها والعوائق الإدارية التي

في هذا البلد. ورغم أن عملية إقناع المسؤولين بالقيام بأمر لا يريدونه تستغرق وقتاً طويلاً، إلا أن صاحبيّ لم ييأسا واجتهدا كثيراً وعملا على تجاوز كافة العراقيل الإدارية والأمنية للحصول على الترخيص. وقد عبّرت عن عميق شكري لأمير على هذه العزيمة والإصرار، وسألته عن الطريق الذي سنسلكه قائلاً:

"إنك تعرف أن الطريق الذي سنسلكه خطير جدا في هذه الفترة. ويبدو أنه من غير الممكن الذهاب على متن سيارة خاصة. ولا توجد للأسف إمكانية اصطحاب قافلة عسكرية. ولذلك فإن أنسب وسيلة يمكننا امتطاؤها في مثل هذه الحالة هي حافلات النقل العمومي".

فقال لي: "لا يوجد لديّ أي مشكل، ونحن نستطيع الرحيل إلى أي مكان. لكن لدينا مشكلة واحدة وهي أنك أجنبي. لذلك فإن الذهاب إلى غرب دارفور بالحافلة هو الأنسب، ذلك لأنهم لن يلاحظوا وجودك في الحافلة بسهولة. وعليك ألاّ تنزل من الحافلة أثناء المرور بالمناطق الخطرة. وسأكون إلى جانبك على كل حال، وبهذا الشكل تكون نسبة المخاطر أقل".

فقلت له: "أنتم تعرفون ظروف البلد أكثر مني، وليس لدي أي مانع على ما ترونه مناسبا".

فسألني: "هل تستطيع تحمّل وعثاء السفر؟ والحال أن الحافلات غير مريحة لأنها في الأصل شاحنات تم تعديلها لنقل المسافرين كي تتقاوم وعورة الطريق، إضافة إلى أن الرحلة تستغرق يومين أو ثلاثة على أقل تقدير".

فقلت: "نعم أنا أتحمّل كل ذلك فلا تقلق. وتصرف بالشكل الذي تراه مناسباً. ولا فرق عندي بين الحافلة والشاحنة والحصان والجمل. والأهم عندي أن نصل إلى هناك في أقصر وقت ممكن. ولا مشكلة لديّ في الذهاب بالحافلة مادمت ترى أنها أكثر أمانا. ولا تهمني المصاعب والعراقيل. وإنا أعتقد أنني سأتحمل ظروف الطريق بإذن الله تعالى".

فقال لي: "حسناً إذن، سأبدأ الآن في إعداد ما يلزمنا للرحلة".

4

الوصول إلى ساحل الأمل

"يجري نبع بين أصفهان وشيراز يحتار الناس من إبداع الحق تعالى إياه. وهو مشهور بنبع الزرزور. ونقلوا بالتواتر أن من يملأ جرة من ذلك النبع ويأتي بها إلى مكان يتعرض لهجوم الجراد آكل المحاصيل، من دون أن يضع الجرة على الأرض أو ينظر وراءه، فإن أسراباً من الزرزور تأتي وتأكل ذلك الجراد".

معرفتنامه / إبراهيم حقي الأرضرومي، ص 235

●الانطلاق

كان السفر بين المدن خطيراً جداً بسبب الحرب الأهلية. ولذلك فإن الحافلات والشاحنات التي تنتطلق من مدينة نيالا تجتمع في إحدى الميادين ليصل عددها إلى عشرين أو خمسين عربة ثم تتحرك في آن معاً. وتحمل كل شاحنة أو حافلة على متنها على الأقل حارسين اثنين مسلحين. وتتحرك العربات واحدة تلو الأخرى، وتطوي الطريق طيلة النهار من دون أن تتوقف إلا لاستراحات قصيرة. وقبل حلول الليل تصل إلى أقرب تجمع سكني لتنتظر الصباح هناك، ولا تسير تلك العربات في الليل أبدا.

ولأن الشاحنات التي تذهب من الخرطوم إلى دارفور تكون عموماً محملة بالبضائع، فإن احتمال تعرضها للاعتداءات كبير. ومن المؤسف أن تتشكل أحياناً أرتال عملاقة بها 300 أو 500 عربة، بحيث تكون العربات التي في المقدمة والأخريات التي في المؤخرة على متنها وحدات مسلحة بواقع مسلحين اثنين على الأقل في كل عربة. وليتشكل هذا الرتل تنتظر الحافلات والشاحنات أحياناً عشرة أيام أو حتى أسبوعين، ثم يتحرك الجميع معاً عندما يكونون مستعدين للرحلة.

ومن الطبيعي أن يكون لوحدات الحماية المسلحة تلك تكاليف مالية. هذا إضافة إلى الإتاوات الباهضة التي يتم دفعها في نقاط التفتيش حتى الوصول إلى الهدف. وحاصل الكلام أن الطريق الذي يستغرق عادة يومين أو ثلاثة يتم سلوكه أحياناً في شهر كامل. وتنعكس مصاريف الطريق تلك بشكل طبيعي على تكاليف البضائع التي تصل إلى هناك. وقد وصل الأمر إلى أن بياع المنتوج الذي يكلف 10 دنانير في الخرطوم بـ20 أو 30 ديناراً في دارفور.

لم أكن أفكر في أي شيء سوى الوصول إلى المكان الذي أبحث عنه في أقرب وقت ممكن. ولم آبه بالظروف الصعبة والمخاطر وبمختلف الاحتمالات. وبعد سنوات ذكر لي أمير وعبد المجيد أنهما لم يكونا يريدان القيام بهذه الرحلة في تلك الأيام وأنهما كانا مجبرين على ذلك بسبب إصراري على السفر. وكنت حينها على يقين بأنهما لا يريدان الذهاب.

وقبل أن تلهب شمس الصباح الأجواء، ذهبنا إلى الميدان الفسيح الذي تنتظر فيه الشاحنات والحافلات. كان الجو ضبابياً وبارداً. وكانت النساء ينصبن المقاعد الخشبية ويوقدن النار لإعداد الشاي في تلك المقاهي التي تملأ أرجاء الميدان. ومع الشاي والقهوة وضعن أوعية مليئة بالتوابل المحلية على تلك الطاولات المعدنية المعوجة التي يبلغ طول الواحدة منها متراً. وبدأت أكواب الشاي المكدسة في الميدان

تستعد حينها لاستقبال يوم جديد، وذلك بالاغتسال بين تلك الأيادي الصغيرة الموشاة بسخام الفحم. وكانت مراجل الألومنيوم تنتظر على النار وقد ذاب في مائها الحليب المجفف، ليتم تقديمه لمن يفضّل احتساء الحليب صباحاً. أما فحم الحطب المتّقد فوق هشيم القتاد، فكان يقدّم عرضاً رائعاً من الألعاب النارية حين يتطاير الشرر منه وهو بين الأثافي.

وعندما بدأ برد الصباح اللاذع يلامس أجسادنا، وجدت نفسي في لحظة أنا وأمير نفرك أيدينا قبالة النار التي لا يمكن مقاومة جاذبيتها في تلك اللحظة. ولم يستطع مقاومة نار الموقد كذلك كلٌّ من إبريق الشاي ومرجل الألمنيوم الضخم المليء بالماء والحليب المجفف. وكانت ثلاث أو خمس مجموعات من المسافرين من بين الزوار المبكرين لمقهى الميدان الدافئ والملون. فطلبنا الشاي والحليب لنا ولهم واحتسيناهما في جو من الأحاديث الدافئة. وبدأت حرارة الشمس ترتفع شرع العشرات من الناس يتسابقون نحو المواقد المتّقدة في المقاهي المنتشرة في خمس نقاط على الأقل يميناً وشِمالا.

لقد تم في وقت سابق شحن قسم كبير من حمولة الشاحنات، وها هي تنتظر موعد انطلاق القافلة. وكانت الحافلات والشاحنات الفارغة والممتلئة جزئياً، تستعد لذلك الموعد في لهفة واضطراب كبيرين. فيجري ملء الشاحنات بكل ما تستطيع أن تحمل، فيعانق ارتفاع الشحنة عنان السماء كي تنزل تكاليف نقل البضاعة. حتى يظن الرائي للوهلة الأولى أن كل شاحنة تحمل أختها على ظهرها. وبالإضافة إلى الركاب تم تحميل الحافلات كذلك بالبضائع، إذ رُصفت عليها أمتعة يبلغ ارتفاعها مترين أوثلاثة. وتم تربط تلك الأكداس بشكل محكم كي لا تتناثر في الطريق.

وتم استغلال الفضاء الداخلي للحافلات بالقدر الأقصى. فبعد أن يُترك للراكب منفذ للتنفس، يتم ملء الممرات وأسفل المقاعد وكافة الفضاءات الفارغة بالأمتعة المسافرين.

وبعد تحميل كافة الأغراض، يصعد رجلان مسلحان على مقدمة كل حافلة وشاحنة. وبعدها يصعد كل من لا يستطيع دفع ثمن تذكرة السفر كاملاً من العجائز والنساء والأطفال، ليتمسّكوا بتلك الحبال الغليظة التي تربط البضائع فوق الحافلة. وبعد أن يدفع كل منهم نصف تكلفة التذكرة، يسافرون أياماً على هذه الحالة معرّضين أنفسهم لحرارة الشمس والغبار والرياح الحارقة.

أما نحن فقد كنا جاهزين للسفر بعد أن امتلأت حافلتنا تماماً بالركاب والبضائع. وانطلقت عندما وصل ميلان شعاع الشمس إلى 45 درجة. وتلا أمين دعاء السفر بصوت مرتفع يسمعه الجميع. ثم بدأت همهمات المسافرين متبادلين الأدعية بالسلامة من وعثاء السفر ومخاطره.

كانت ملامح الخوف والقلق ظاهرة بوضوح على وجوه المسافرين. فقد شهدت المنطقة حرباً أهلية ضروساً قتل فيها عشرات آلاف البشر. والآن يقطع المسلحون الطرق في القفار والجبال وينهبون الناس ويحرمونهم من سفر آمن. ومن المعروف أن الكثير من وسائل النقل يتعرض لاعتداءات في الطريق حيث تزهق الأرواح وتنهب الممتلكات. ويتحدث البعض عن أن المجموعات المسلحة تنصب نقاطاً للتفتيش في

طريق القوافل، ويطلبون من كل مسافر إتاوة تتراوح بين 3 و5 دنانير سودانية أي ما يعادل دولاراً أو دولارين. ومن يرفض دفع الإتاوة أو لا يستطيع الدفع يعنّفونه ويلقون به من فوق الحافلة. ومن الطبيعي أن تشهد مثل تلك الأحداث شجارات. وأحيانا لا يقبل المسلحون أن يدفع مسافر الإتاوة بدلاً عن مسافر آخر. وبما أن المسافرين على علم بمثل تلك الأحداث، فإن القلق على أرواحهم وأموالهم يسيطر عليهم طيلة الرحلة التي لا يعرفون كم يوماً تستمر. وحسب ما قيل لنا حينها فإنه من غير الممكن أن نصل إلى نقطة النهاية قبل يوم أو يومين، في حال سارت الأمور من دون مشاكل. ويمكن للرحلة أن تستمر أسبوعاً أو أسبوعين، في حال تعطل بعض الحافلات، أو تعرض القافلة لأي تهديد في الطريق أو ظهور أي عراقيل أثناء الرحلة. ومادام الأمر هكذا فإنه من الطبيعي أن يسيطر القلق والتوتر على الناس.

●في أمان الله يا نيالا...

تركنا مدينة نيالا لوحدها وهي تغرق في سحابة من الغبار الذي أثارته الحافلة. وبدأت أتقدم نحو أملي ونحن نتمايل بين الحفر في الطريق. ووجدت صعوبة في التنفس داخل الحافلة الملئية بالناس والسلع بسبب قلة الهواء وارتفاع الحرارة. وكنت أنتظر لحظة الاستراحة بفارغ الصبر لأريح قدميّ الحبيستين بين المقاعد الضيقة. ولكي أتفادى الدوار والمغص لم أشغل ذهني بأي شيء سوى ما يحدثني عنه أمير.

وبعد مغادرة نيالا بقليل، تم إيقافنا في إحدى نقاط التفتيش، حيث تتم مراقبة أوراق كل من يريد السفر خارج نيالا. إذ لا يسمحبالخروج من المدينة إلا لمن أوراقه كاملة. وبعد عبور نقطة التفتيش بنيالا، وبعد 5 أو عشرة كيلومتر بدأت عمليات المنع من العبور وقطع الطريق بأغصان الأشجار الطويلة وعجلات السيارات القديمة. فتضطر حافلتنا للتوقف كل مرة، ويتوجه السائق إلى أولئك المسلحين الواقفين تحت الأشجار أو الجالسين في خيام، ويتحدث معهم قليلاً ثم يعود ويواصل طريقه. وعندما تكررت هذه الحركة أكثر من مرة وجهت السؤال إلى أمير قائلاً:

- بعضهم يضع قطعاً من الحطب هنا وهناك ليقطع علينا الطريق، ثم ينزل السائق ويتحدث مع المسلحين ثم نواصل الطريق. ماذا يعني ذلك؟.

فأجابني أمير بالقول:

- هذه نقاط تفتيش مختلفة، يقومون فيها بتفتيش المارين من هنا في أوقات مختلفة. وهم يأخذون إتاوات معينة من السائق.

وبعد ذلك تيقنت من أن هؤلاء ليسوا عسكريين رسميين، إنما هي نقاط تفتيش تنصبها المجموعات المسلحة التي يقال لها "جنجويد". وقد وجد هؤلاء الناس لأنفسهم مصدر رزق مستفيدين من أجواء الحرب الأهلية والفراغ في السلطة. إنهم يأخذون مبلغا يتراوح بين خمسة وعشرة أو عشرين ديناراً سودانياً حسب حجم العربة التي يوقفونها. وكل عربة مجبرة على دفع هذه الإتاوة. وإن لم تدفع لا يمكنها أن تمر. وقد

تعودنا على الأمر بعد أن مررنا بأربعين أو خمسين نقطة من نقاط التفتيش تلك على طول الطريق. ويحرص الجنجاويد على أن يكون على متن كل وسيلة نقل اثنان على الأقل من عناصرهم المسلحة، ذلك لأنهم لا يهاجمون أي عربة تقع تحت حماية الجنجويد. وبموجب اتفاقية سرية تكون هذه العربات في أمان نوعاً ما. لكن الأمور في هذا الوضع المتأزم بدارفور لا تسير كما يجب. إذ أن بعض هؤلاء الناس المتشبعين بروح الجريمة يظهرون في أي لحظة ليقطعوا الطريق منتهكين النظام العام. لكننا كنا نتقدم ورأسي بين إبطيّ في وضعية مضحكة بسبب ضيق المقعد الذي كنت أجلس فيه.

وضعية الاستعداد الدائم والرأس بين الإبطين ليست جديدة على أهالي دارفور. إذ أن أياً منهم لا يحس نفسه في أمان بسبب أنهم يعيشون منذ فترة طويلة كثيراً من المصائب مثل الدم والموت والحرق والهدم والسلب والنهب والتهجير. فكل واحد منهم بلا شك قد عانى بنفسه بعض تلك المصائب، وإن لم يكن هو فواحد من عائلته أو أقربائه أو جيرانه أو معارفه. هذا بالإضافة إلى أن كثرة ما يرويه الناس من تلك الأحداث، تجعل الجميع في وضع الاستعداد تحت تأثير تلك الحكايات. أما أنا فقد أغلقت أذنيّ عن مثل تلك الأحاديث الرهيبة، لأواصل طريقي فاتحاً أشرعتي في بحر أحلامي.

كانت نقاط التفتيش التي أوجدها غياب السلطة تفتقر إلى التحكم. ففي بعض النقاط رأيت رجالاً غضوبين عصبيين يحبون الشجار ولا يعرفون التعامل بإنسانية مع الناس. ويبدو أنهم لا يترددون في استخدام الأسلحة الثقيلة التي بحوزتهم عند أدنى مشادّة أو خصام. ولذلك فإن السائق والمسافرين يحرضون على اجتناب أي سلوك يمكن أن يؤدي إلى شجار، ينفذون ما يطلبونه منهم من دون اعتراض. وينتظرون أول فرصة للابتعاد عنهم من دون الوقوع معهم في مصيبة.

●ستشتاق إليهم طيلة العام

كنت أستفيق من أحلامي كلما اجتازت الحافلة طريقاً قليل الأشجار لتدخل في منطقة باردة وكثيفة الأشجار، لأبقى في حيرة من أمري إزاء ما أراه هناك. لقد دخلنا منطقة تغطيها أشجار عريضة الأوراق مازلت أذكر أنني درست عنها في مادة الجغرافيا. وبعد قليل رأينا بعضهم يبيع الفواكه على طرف الطريق الذي يشق الغابة، فتوقفت الحافلة للاستراحة. فسألت أميراً عن هذا المكان فأجابني:

- هذا جبل مرة، وهو المنطقة الأكثر اخضراراً في دارفور.

ثم أردف مبتسماً:

- لو شفت مرة، جبل مرة، يعاودك حنين، طول السنين.

وحقيقةً فإنه من غير الممكن للعيون التي ترى هذا المكان، ألاّ تحنّ لهذا المنظر بعد تعودها على رؤية الأراضي في نيالا وعلى طول الطريق إلى هنا.

كان جبل مرة يستخدم في الماضي مصيفاً للوافدين من مختلف أنحاء السودان، أو مكاناً للنزهة اليومية يرتادونه في أيام الصيف الحارة. وإضافة إلى أنه غابة جبلية، فإن الينابيع العذبة الباردة قد حولت المكان إلى مركز جذب سياحي مهم. وزادته جاذبية وجمالاً أشجار الحمضيات تلك التي تغطي المنطقة، فتفيض البركة من جبل مرة بتأثير من مناخه المعتدل. لكن المناطق المرتفعة من الجبل قد تحول إلى ملاذ للمتمردين ومكان مناسب للتدريب على القتال، مستفيدين من تلك الغابات الجبلية. ولهذا السبب فإن قسماً كبيراً من هذه المنطقة يقع تحت سيطرة المتمردين.

لم أكن أعرف أن ألذ برتقال أكلته في الأعوام الأخيرة، كان في تلك الأكياس التي لدى هؤلاء الأطفال الذين ينتظرون القوافل. وربما كان سر لذة ذلك البرتقال والزنباع الذي أكلته هناك يعود إلى ما أصابني حينها من شدة العطش ووعثاء السفر. لكننا غادرنا المكان من دون أن نستمتع باستراحة طويلة. ويبدو أن الحراس نبهوا السائق لنغادر جبل مرة بسرعة بسبب وجود بعض المخاطر حولنا.

ما أن عثرنا على واحة حقيقية غادرنا جبل مرة مثل السراب وطعم برتقاله مازال عالقا في حلوقنا. وواصلنا طريقنا المليء بحفر كفوهات البراكين أشبه ما تكون بسطح القمر. وكنا نتوقف للاستراحة في الأسواق العشوائية التي نراها على جانبي الطريق قريبا من التجمعات السكنية. ليس من الغريب أن تصادف مثل تلك الاستراحات في طريق على غير العادة في رحلة غير معتادة. فمن الطبيعي أن يحدث كل شيء في هذا الطريق على وجه الصدفة. لكن أكثر شيء استصعبته في هذه الرحلة هو مشكلة قضاء الحاجة. إذ هي المرة الأولى التي أستخدم فيها مراحيض مسيجة بالقصب تجعلك تحس وكأنك تقضي حاجتك في العراء. وكان من الصعب عليّ كثيراً أن أقضي حاجتي في مرحاض غير نظيفة مستخدماً نزراً قليل من الماء.

وكي أخفف عن نفسي هذا العناء، كنت أشرب قليلاً ولا آكل كثيراً حتى لا أضطر لمواجهة تلك المشكلة إلا عند الضرورة القصوى.

مسألة الطعام من المشاكل التي يعانيها القادمون من بلاد بعيدة، ولكنني كنت في غاية الراحة في ما يتعلق بالأكل. إذ أنهم يبيعون أرغفة خبز صغيرة في كل مكان تقريباً. وإلى جانب الخبز كنت أجد خيارات كثيرةً، فأشتري عادة الطماطم وأحياناً الجبن أو اللحم المقلي مع البصل أو الفول في بعض الأحيان... أما الأكلات الشعبية فلا يوجد فيها خيارات كثيرة. لذلك فقد اتبعت أسلوباً خاصاً بي في الأكل. فكنت ألقّن نفسي الجملة التالية: "إنك تستطيع العيش في أي مكان يمكن للإنسان أن يعيش فيه". وبناءً عليه كنت أعوّد نفسي على أكل العصيدة مرق الملاح. وعندما أرى شيئاً يزعجني أعمل على ألاّ أراه أو أفكر فيه، وأجتهد على صرف تفكيري عمّا يزعجني إلى مواضيع أخرى. وإذا واجهت أمراً يمكن أن يقززني كثيراً، فإمّا أن أمتنع عن الأكل أو آكل قليلاً وأنسحب.

واصلنا طريقنا مباشرة باستثناء الانتظار في بعض الحالات المريبة. ومرة قال لي أمير إننا سنقضي ليلتنا في مكان يقال له زالنجي. وفي مدخل المدينة رأيت أن حبات المنجة كبيرة جداً ومكتنزة وجميلة. جذوع الأشجار هنا يتراوح قطرها بين مترين وثلاثة أمتار، ومن الواضح أنها أشجار قديمة جدا. وهنا يوجد عدد كبير وانتشار كثيف لأشجار المنجة. ورغم أن عددها تناقص عبر الزمن، إلا أن الكمية الموجودة حالياً تخلب الألباب.

تقع زالنجي في وسط ولاية دارفور، ويقطنها نحو مائتي ألف نسمة، ويقال إن المتمردين يمركزون فيها بشكل كبير. نقاط التفتيش لا يوجد فيها متمردون، غير أن داعمي المتمردين منتشرون بين السكان. فهذه المدينة تسكن فيها قبائل وعائلات ينتمي إليها عدد من المتمردين. وعليه فإن الجنجاويد لا يشعرون بالأمان هنا. لكن المتمردين ليس لهم أي نشاط في هذه المدينة، ذلك لأنه من الممكن حشد قوات كبيرة من كل الجهات للقضاء عليهم وعلى المدينة بالكامل في حال تعرضت زالنجي إلى أي هجوم أو خسائر فادحة. وربما يكون سبب تلك الحالة من الصمت والهدوء أنهم يخفون الغضب الحقد بداخلهم.

عندما رأيت تلك الألوان والرسوم على ملابس مسلحي الجنجاويد للوهلة الأولى، لاحظت أنهم يشبهون تلك الجرادة التي وجدتها في مكة المكرمة، لكنني لم أتأكد من ذلك تماما. ولم أكن متأكداً أيضاً ممّا وجدته حتى عندما جالت تلك الأفكار بخاطري.

يوجد في العديد من المناطق بإفريقيا، كثير من المسلحين يرتدون هذا الزي. وكانت جرادتي تشير إلى إفريقيا، لكنني لا أعلم أ كانت تشير إلى هذا المكان بالذات!... وواصلنا طريقنا منذ الصباح متبعين مسارات وعرة وتشغل بالي تلك الخواطر والتساؤلات. ذلك لأنني كنت مجبراً على العثور على جواب للرمز الذي بين يديّ، لأملأ المربعات الفارغة في الصورة. ولم أستطيع ترك مهمتي وقراري رهين الاحتمالات. هذا إضافة إلى أن ما رأيته وسمعته لا يمكن إهماله أبداً. ولهذا السبب كان من الضروري أن أنتبه كثيراً وأدقق الملاحظة طيلة الطريق.

الناس يحبون التحادث أثناء السفر. وربما لذلك قيل إن الرجل يُعرف أثناء السفر، فالطريق يبوح بالأسرار. ولأنني أعرف اللغة العربية فقد وجدت فرصة للحديث مع الناس هنا، وكنت أستغل تلك الفرصة جيداً. وقد عثرت على إحدى علامات الطريق في حادثة قصها عليّ أحد القرويين كان معنا في الرحلة.

- قال لي: لقد أحرقوا القرية التي كنا نعيش فيها، فهربنا واستقر بنا القرار في المخيم.

- فسألته: لماذا أحرقوا قريتكم، وكيف تم ذلك؟

- فأجابني: في البداية قصفوها بالقنابل، فهرب كل من استطاع النجاة بحياته. وبعد ذلك أحرقوا القرية. حتى أننا لم نستطع أخذ أي شيء ذي قيمة معنا. وقد هربت مع عائلتي بصعوبة. وأنا أعيش في المخيم منذ سنوات.

- فقلت له بأسلوب المستقصي غير المصدق: الأمر غريب! لقد سمعت عن تعرض بعض القرى المهجورة للخراب بعد زمن من نزوح سكانها عنها بسبب الحرب، ولجوئهم إلى المخيمات. وسمعت كذلك عن إحراق بعض القرى الأخرى وهدمها. ولكن ما رويته لي الآن أسمعه لأول مرة. فلماذا يقصفون قريتكم؟

- فقال: لقد أهلكت الحرب الأهلية كثيراً من أبنائنا وقرانا وبلداتنا. بعضهم صعد إلى الجبال للقتال. أما نحن فلم نشارك في الحرب، واهتممنا بأعمالنا والزراعة في قريتنا. وفي أحد الأيام جاء الجنجاويد، مدّعين أن في القرية ناساً يدعمون المتمردين، وطلبوا منا أن نسلمهم إياهم. قالوا لنا إن معلومات وصلتهم تفيد بأن في القرية بعض الناس تربطهم بالمتمردين علاقات وهم يزودونهم بالمعدّات. فأنكر زعيمنا ذلك قائلاً "لا يوجد شيء من ذلك، وليس لدينا من يقدم الدعم للمتمردين، ولا نحن لا علاقة لنا بهم". ورغم ذلك لم يقتنع الجنجاويد بكلام الزعيم، ولأنهم مسلحون لم يجرؤ أحد منا على مواجهتهم. لكن عددا من شبابنا اعترض عليهم عندما تعاملوا مع زعيمنا أهالينا بشكل مهين. وتحول النقاش إلى عراك. فاحتدّ مزاج الجنجاويد وأطلقوا النار أثناء الخصام. فقُتل بعض سكان القرية وأصيب آخرون. وعند ذلك خرج الجنجاويد عن طورهم واتهمونا جميعاً بدعم المتمردين، وهددونا بأنهم لن يتسامحوا معنا، وأمرونا بإخلاء القرية، وإن لم نخرج منها فإنهم سيضرمون النار فيها.

- فقلت له: كيف يمكن أن يحدث ذلك، فبينكم عجائز وأطفال ونساء، هل جُنّ هؤلاء الناس؟

- فقال: لا أعلم، يبدو أن الجنون أصابنا جميعاً. والجميع يعرف أن هؤلاء لا يمزحون، لذا لم يكن لنا بدّ من النزوح عن القرية.

- فسألته: سبحان الله! ألا يوجد من يوقف ذلك ويتدخل بالحسنى؟

- فقال: ليس لنا غير الله تعالى. لم نكن نعرف ماذا نفعل. وكان علينا ألاّ نتأخر في إخلاء القرية. وبدأ الناس يجهزون الأشياء التي يستطيعون حملها معهم. لكننا بدأن تلتفت يميناً وشمالاً عندما بدأت السماء تدوي مثل الرعد. وبدأت الطائرة تمطرنا بالقذائف. فهرع الجميع يحاول الهرب. فأخذ كل منا زوجته وأطفاله وخرج من القرية تاركاً وراءه كل شيء. كثير من الناس هربوا مثلما هربنا. وقد مات الكثير من أقاربنا وسكان قريتنا في تلك الحادثة. أما نحن فقد آوينا إلى المخيم، وبعد ذلك أحرقوا قريتنا.

لقد تجمد الدم في عروقي أمام القصة التي سمعتها. ولم أدر أ أصدق ما حكاه أم لا أصدق. أنا لا أعرف هذا الرجل، ولا يمكن أن أتأكد من صحة ما قد رواه. لكن مهما كان الأمر فإنني كنت أقرأ المأساة التي عاشها من خلال قسمات وجهه.

- وسألته: لقد طلبوا منكم إخلاء القرية وذهبوا. وكنتم ستخرجون منها لا محالة. لكن أليس من الغريب أن تأتي الطائرة وتقصفكم...! في الحقيقة أنا أم أستطع فهم حقيقة الأمر...!

- فأجابني: لقد عاندهم بعض الشباب في قريتنا، ودخلوا معهم في خصام، واحتدّ الشجار كثيراً، فأرسلوا أخباراً تفيد بأن قريتنا تؤوي متمردين مسلحين، وطلبوا قصفاً عاجلا للقرية قبل أن يهرب المتمردون. فوثقوا بذلك الخبر وهاجموا القرية.

- فقلت متعجباً: كيف يمكن أن يحدث ذلك...! كيف يفعلون ذلك وهم يعرفون أن الكثير سيقتلون هناك...!

- فقال: نحن أيضاً لا نعرف كيف. ولكن هؤلاء الناس جميعاً ليسوا عاديين. فبينهم من يتعاطى المخدرات ومن يشرب الخمر، ومن بينهم كثير من الطامعين في الأموال. وهم عندما يغضبون يحرقون الأرض ومن عليها.

- لن يلتفت أحد إلى من هو المخطئ ومن هو على صواب. ربما يعرف أحدهم الصواب يوماً ما، ولكنه سيكتفي بالقول إن ذلك ارتكب على سبيل الخطأ. وسنبقى نحن في مواجهة تلك المصائب التي لحقت بنا.

لقد دفعني ما سمعته هناك إلى النظر في الحاسوب والاطلاع على ما رأيته في غرفة الفندق بمكة المكرمة. فقد تحولت حبات الذرة إلى أكواخ إفريقية، وتحول الجراد إلى طائرات ومروحيات تابعة للكوماندوس، وكأنها تهاجم تلك الأكواخ وتقصفها. لقد تكلمت تلك الصورة عندما كان ذلك الرجل يتكلم قبل قليل. وإذا كان ما يتحدثون عنه صحيحاً فإن الأحداث التي جرت هنا لها أبعاد أكثر فداحة مما كنت أعرف وأتصور. لذلك اجتهدت في التحقق أكثر في صحة تلك المعلومات.

لقد رأيت في الطريق مرات عديدةً رجالا يقلدون جرادتي، وهم يحملون السلام ويركبون الجياد أو السيارات رباعية الدفع أو يستريحون على طول الطريق... ذلك المنظر وإن كان غريباً إلا أنه لم يكن إلا منظرا نمطياً من الحرب الأهلية، استمر معنا حتى وصلنا إلى قرية مارا...

ما رأيته هناك كان مركز الجنون الذي تحقق في انعكاس الصور التي كنت قد التقطتها. فها هو الجراد قد انقض على حبات الذرة! لا أكاد أصدق ما تراه عيناي. لقد حدثنا عن تفاصيل القصة ذلك المشهد الذي رأيناه عندما مررنا بقرية مارا التي كانت مجمعاً سكنياً كبيراً، لكنها الآن خراب تم إحراقها وتدميرها بالكامل. حتى جامع القرية قد نال نصيبه من تلك الهجمة المجنونة التي وضع فيها الجنجاويد البلدة في مرمى رصاصهم وقنابلهم. والباقون على قيد الحياة لم يتركوا تلك الخرائب فقط بل تركوا هنا عشرات القتلى. كنت أستمع إلى تلك الروايات؛ وكأنها تكرر أمامي حكاية كنت أعرفها كلمةً كلمة. لكن صداعاً رهيباً ألمّ برأسي أعادني إلى رشدي بعد أن غرقت في تلك الدهشة وذلك التوتر. ورغم الصداع أحسست بخفّة في داخلي.

لقد وجدت الجراد! نعم أنا الآن على يقين بأن الجراد الذي تسلّط على حبات الذرة يوجد هنا في دارفور. وبما أن الجراد هنا، فمن الضروري أن يكون أولئك الناس الذين أبحث في مكان ما هنا أيضاً. ويجب عليّ أن أجدهم وأستقرّ بينهم. وإذا صحّ ما حدّثني عنه أمير، فإني سأخطو خطوة نحو حياة جديدة تملأ

المربعات الأخيرة من الصورة. وأنا أحسّ هذه المرّة بأنني أتقدم في الاتجاه الصحيح. وقد تعزّزت آمالي بأن أعثر على الناس الذين كنت أبحث عنهم.

لقد أصبحت أصف كل من أرى من الجنجاويد بأنهم "جراد"، وقد يسّر عليّ هذا الوصف الرمزي حواري مع من الناس. فعندما رأيت حينها أحد عناصر الجنجاويد قلت لأمير:

- هل هؤلاء جراد؟

لكن أمير لم يفهمني حينها.

فقلت له:

- إنني أقصد الجنجاويد. أنا أصفهم بالجراد.

فأجابني أمير مبتسما:

- نعم إنهم الجراد.

ويبدو أن هذا التعبير قد أعجبه.

ولفرط سعادتي بعثوري على أجوبة لبعض تساؤلاتي، انزويت إلى عالمي الخاص وبدأت أردد بيني وبين نفسي قائلا:

جرادتي جرادتي!

اقفزي مرة أو مرتين يا جرادتي!

لا بد أن تقعي في الفخ في القفزة الثالثة!

كنت أردد ذلك وأضحك.

جن الليل عندما وصلنا إلى مدينة مورني الصغيرة. فنزلنا في محطة للحافلات مؤلفة من عشرات الأكواخ. وكانت تلك الأكواخ محاطة بالقصب من جوانبها ومن فوقها لكن أبوابها مفتوحة. وأمام كل كوخ نصبت طاولات عليها المأكولات والمشروبات، وتحيط بالطاولات مقاعد وطاولات صغيرة، وبداخل الأكواخ أسرّة من الخشب والحديد. وكانت تلك الأكواخ عبارة عن فنادق ومقاهي ومطاعم. وأعتقد أن أرخص الفنادق والمقاهي في العام موجودة هنا في دارفور. فيستطيع المرء استئجار سرير بدولار واحد وقضاء ليلته يرعى النجوم في السماء...!

قضينا ليلتنا في مكان تعرّف عليه أمير في زيارته السابقة إلى دارفور. وقد لاحظت أن الذين يعملون في هذه المحلات وغيرها من الأماكن المشابهة التي رأيناها في الطريق هم من النساء. وكانت امرأة تدعى مريم تعمل في المكان الذي استأجرناه. ورغم أن ليدها رضيع، إلا أنها كانت تقوم بشؤونها وتخدم الزبائن في ذات الوقت، وترعى رضيعها كلما وجدت ذلك الفرصة. ولاحظت أن النساء تحتل مكانة فعّالة في الحياة في هذه المنطقة. وكانت العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء أكثر حرية وطبيعية.

حاولت النوم على السرير في الهواء الطلق. ولأن فصل الشتاء هنا يمتد بين شهري يناير وديسمبر، فإن درجة الحرارة الحارقة تتراوح نهاراً بين 35 و40 درجة، لكنها تنزل في الليل إلى 10 أو 15 درجة ليصبح الطقس شديد البرودة. ولذلك فإن الملابس الصيفية الخفيفة لا تكفي لمقاومة فارق الحرارة في الليل. ولم يكن لدي أي ملابس ثقيلة. فلم أستطع النوم من شدة البرد رغم أنني لفتت بدني بشال اشتريناه لوقت الحاجة عندما كنت مع أمير في نيالا.

كنا نقضي ليالٍ أكثر دفءاً في هذا الفصل عندما تكون السماء مغيمة في الليل حين يغطي السحاب سطح الأرض مثل البطانية. لكن هذه الليلة كانت تعاندنا بالبرد وانقشاع السحاب. ولم أكن أبداً أتوقع برداً قارساً إلى هذا الحد. ورغم أنني كنت متعباً جداً ونمت في ساعة متأخرةٍ من الليل، إلا أنني بتّ ليلتي أتقلب يميناً وشمالاً، ولم أستطع النوم من شدة البرد، فاضطررت على القيام، ولففت نفسي في وشاحي وبدأت أتمشّى في الساحة.

لف الناس أنفسهم بالبطانيات حتى أنهم غطوا أنوفهم من شدة البرد، وغرقوا في سِنة من النوم. وكان بعضهم ينام على الأرض بجانب الشاحنة، والبعض الآخر ينام فوق الأسرة في العراء. ولم أكن أسمع غير صرير خنافس الليل ونهيق الحمير من حين لآخر.

تصورت نفسي مثل شبح ملتحف بشال عندما كنت أتمشّى في الميدان لأدفئ نفسي. وفجأة وضع أحدهم من رائي يده على كتفي، فارتجفت واستدرت نحوه فرأيت عينين حمراوين تلمعان في ظلمة الليل وتنظران إليّ بحدّة.

وقعت عيناي على عينيه فتفرست فيه من أعلى إلى أسفل، فبادلني نفس النظرة الفاحصة، فلاحظ أنني أجنبي ولا أحمل سلاحاً.

كان يرتدي معطفاً أخضر شبيهاً بمعطف الشرطة الألمانية، غير أنه كان طويلاً بالياً. وكان يحمل في يده بندقية جي3 وحزاماً خراطيش، وفي قدميه حذاء عسكري ممزق. وكان أطول مني بـ20 سم تقريباً. وعندما اكتشف أنني أجنبي ظهر اضطرابه أكثر من خلال نبرة صوته وطريقة خطابه.

ليس عادياً وجود أجنبي متنكر في شال يغطي وجهه وهو وحده في مثل هذه الساعة وفي هذا المكان. فقسم كبير من الجنجاويد والشعب السوداني يعتقدون أن الأجانب يدعمون المتمردين. ولهذا السبب تراهم يتعاملون مع الأجانب وفق هذا الحكم المسبق.

وسألني ذلك الحارس بلهجة شديدة ملؤها القلق والهستيريا، إذ أنني لم أستطع تخمين ما يمكن أن أواجهه حينها. ولحسن الحظ أنني أعرف اللغة العربية. فقد كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي منعني من الوقوع مأزق هذه المرة.

وحتى أريح الرجل قلت له إنني انطلقت من نيالا وسأتوجه إلى أم شالايا بعد قضاء الليلة هنا. وقد هدأ عندما فتشني ولم يجد عندي سلاحاً، ثم طلب مني أن أتبعه، حتى وصلنا إلى مكتب عسكري غير بعيد مسؤول عن حفظ الأمن في تلك المنطقة. وكان في المكتب عدد من المسلحين، فسألني قائدهم قائلاً:

- من أي بلد أنت؟

- أنا من تركيا، أعيش في إسطنبول.

- لماذا أتيت إلى هنا؟

- توجد منطقة هنا اسمها أم شالايا، أنا ذاهب إليها.

- لماذا تريد الذهاب إلى أم شالايا؟

- توجد هيئة إغاثة في نيالا اسمها جمعية التضامن الخيرية. حدثني مسؤولوها عن تلك البلدة، وأنا ذاهب إليها الآن مع السيد أمير حسين رئيس الجمعية.

- هل لديك ترخيص بالذهاب إلى هناك؟ وأين أوراقك؟

- أوراقي كلها عند أمير، وهو الآن نائم في الساحة القريبة من هنا.

وبعد لحظات من هذا الحوار الحاد وكأنهم عثروا على مجرم، وجه المسؤول عن المكتب كلامه إلى الرجل الذي قادني إلى هنا قائلاً:

- خذ معك رجلاً آخر واذهب إلى هناك لتتأكد وكن حذراً.

ذهبنا معاً وأيقظنا أميراً، لكنه عندما رآني وبجانبي الجندي لم يعرف هل هو في حلم أم في اليقظة. وعندما سمع أسئلة الجندي في حالة من النعاس الشديد، أيقن أنه ليس في حلم فاستقام واقفاً. وعندما استفاق تماما تحدث قليلاً مع الجندي الذي جاء معي، وأخذ معه الأوراق وقال لي:

- انتظرني أنت هنا، وأنا سأذهب وأتحدث معهم وأوضح لهم الأمر.

وبعد 10 أو 15 دقيقة عاد أمير وأخبرني أنه لا يوجد أي مشكل وقد اقتنعوا بعدما رأوا الوثائق التي معنا. لكنني لم أشعر بالارتياح التام ونحن هناك، حتى وإن أحسست بنوع من الراحة في تلك اللحظة.

عندما بدأ ضوء الصباح ينبلج تناولنا فطور الصباح بما وجدنا من الشاي والبسكويت، ثم ذهب أمير ليسأل عن الحافلة التي ستتجه إلى أم شالايا، وعندما عاد قال لي:

- أنا آسف لأنني لم أجد حافلة ستذهب إلى هناك قبل العصر. ثم إن انطلاقها بعد العصر غير مؤكد. لأنها لن تنطلق إن لم تجمع العدد الكافي من المسافرين.

فقلت له:

- علينا ألاّ نقضي ليلة أخرى هنا بلا فائدة. ومن المناسب أن نتحرك إلى هناك في أقرب وقت ممكن.

سألته هل من سبيل آخر للوصول إلى هناك، وهل من الممكن أن نجد وسيلة أخرى؟

وأضفت قولي:

- أنا لا أريد البقاء هنا بعدما جرى لنا الليلة البارحة.

فأخبرني بوجود شاحنات صغيرة تحمل المسافرين إلى هناك، وأضاف:

- إن أصحاب تلك الشاحنات ينطلقون عندما يجمعون العدد الكافي من المسافرين وبضائعهم. لكن يمكن أن ننطلق بسرعة إذا دفعنا لهم مرة واحدة ما تدفعه مجموعة من الركاب. ولكن... ولكن المبلغ كبير.

فقلت له:

- ليس مهم أنا موافق حتى وإن كان المبلغ باهضاً. فلنقترح عليهم ذلك ونغادر هذا المكان حالاً.

- طيب سأذهب الآن للحديث معهم مرة أخرى.

بعد برهة جاء أمير على متن حطام شاحنة خفيفة متهالكة قديمة، بعد أن تمكّن من إقناع سائقها. وقبل أن ننطلق سألت أميراً عن استئجار أحد المسلحين، أكد لي أن الطريق إلى أم شالايا آمنة، ولا يوجد أي مشكل في المنطقة المؤدية إليها، ولهذا السبب لا يوجد أي داعٍ لاستئجار مسلحين لحمايتنا.

يبقى على قيد الحياة دائماً كل من يعيش على أمل الوصول إلى هدف ما، مهما اعترضت طريقة المصاعب والعراقيل. لكن اليأس وخيبة الأمل الكبرى تصيبه إذا عندما يظن أنه اقترب من الهدف ولكنه يكتشف فجأة أنه في الحقيقة قد وصل إلى هدف خاطئ أو أنه في المكان الخطأ. وكثير من الناس بعدما يعيشون مثل خيبة الأمل تلك، يبقون تحت أنقاضها ولا يفضون عن أنفسهم الغبار ويسلكون الطريق نحو أهدافهم من جديد.

تملكتني مثل تلك المخاوف، ولم أستطع إنقاذ نفسي من كابوس سيطر على فكري رأيت فيه نفسي غارقا في خيبة أمل يمكن أن تصيبني في المكان الذي أسعى للوصول إليه.

وكان الخوف والقلق هما سبب تلك الحرارة التي بداخلي ولا أستطيع أن أشرحها. وها قد حان الوقت الذي سأواجه فيه الحقائق. وأصبحت على ضفة الأمل والقلق والغموض بعد بحث استمر طويلاً. فإمّا أن أطير وأتجاوز تلك الضفة، وإمّا أن أسقط في القاع وأغرق.

●على شفا جرف هار

انطلقنا إلى أم شالايا وأنا أتخبّط في إحساس كثيف يقلّبني بين الخوف والرجاء...!

وبعد 4 أو 5 ساعات من مغادرة مورني، دخلنا منطقة أم شالايا حيث اعترضتنا العصافير بصفيرها الرائع. يمكنكم أن تروا العصافير وهي تطير في أي مكان، ولكنها لا تزقزق وهي تطير إلا إذا شعرت بالأمن والسعادة. وقد شاهدت ذلك هنا، حيث أجناس العصافير الطيور المختلفة تشدو وهي ترفرف فوق هذا البساط النباتي الكثيف.

هناك رأيت الناس يتنقلون من التجمعات السكنية البعيدة إلى حيث يمارسون زراعتهم، وشاهدت النساء والأطفال يتجولون مشياً أو على ظهور الحمير بكل حرية. فلا يوجد في المكان مسلحون ولا قطاع طرق ولا غموض أو فوضى. والجميع هنا يعيش حياته بشكل طبيعي. وقد أحسست هنا بالأمن الذي لم أشعر به في كل مدينة مررت بها على طول الطريق.

كلما اقتربنا من أم شالايا، كلما ازداد المكان اخضرارا وازدادت نشاط السكان. ويعمل الناس في أراضيهم مع عائلاتهم في كنف الأمن والأمان. رأيت الكثير منهم يحملون البضائع على ظهور الحمير ويسيرون بها نحو أم شالايا ومنها إلى مناطقهم. وعندما أصبحت حركة المارّة كثيفة عرفنا أننا اقتربنا من المدينة.

بعد عبور أحد الأودية الرملية العريضة، بدأت تظهر أمامنا أكواخ أم شالايا المبنية من القصب. وبعد عبور الوادي مباشرة، وجدنا وادياً آخر فعبرناه إلى المدخل الغربي للمدينة، وكان الوقت قد تجاوز العصر بكثير. فصعدنا عقبة خفيفة لنشق بين الأكواخ طريقا تحفّ بها عن اليمين والشمال الأحراش الشائكة القصب، حتى وصلنا إلى النقطة العليا التي يبدأ بها سوق مدينة أم شالايا.

نزلت سيارتنا إلى أسفل الطريق تسير بين الدكاكين المسقوفة بالقصدير والمبنية بالآجر على شكل مربعات ذات ميازيب. وكان قسم من تلك الدكاكين مغلقاً. ولا أدرى أ ذلك بسبب أن المغرب قريب أم أننا في الموسم الزراعي. وكان في السوق قليل من الناس، ولم تكن الحركية هناك كبيرة.

ربما كان ذلك اليوم بالنسبة إليهم يوماً عادياً، ولكنه بالنسبة إليّ كان يوماً تاريخياً. فقد حان موعد كنت قد أخذته منذ زمن طويل. وها قد وصلت إلى ذلك المكان الذي طالما بحثت عنه ودعوة الله واصطبرت حتى وصلت إليه. كنت أشعر بمدينة أم شالايا وهي تسمع عبارات الترحيب التي تتدفق من صميم فؤادي ولا يستطيع لساني البوح بها. وأظن أنني لم أترك المدينة تنتظر قدومي طويلاً؟

إنها بلد الرجال ذوي الجلابيب البيض... إنها البلدة التي تتّشح بلوحات ترسمها عباءات النساء الملونة التي تلففنها من أعلى رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن. منذ نزلنا من السيارة، كان كل الذين رأيناهم والتقيناهم يلقي علينا السلام ويسألنا عن حالنا ويحمد الله على وصولنا سالمين. وحينها أعدت السؤال في نفسي، ألم نتركك تنتظرين قدومنا طويلاً يا أم شالايا؟

جلسنا في مقهى قريب من الميدان الذي نزلنا فيه، هناك تحت سقف من الحصير وعلى مقاعد خشبية صغيرة استرحنا قليلاً لننفض عن أنفسنا غبار التعب ونتشاور ونحتسي قليلاً من الشاي. وبدأت أسأل الجالسين في المقهى عن البلدة وأحوالها. وكانت الأجوبة كلها متشابهة. إذ أكد كلهم أنها البلدة الأكثر أمانا في المنطقة، فلا يوجد عداوات ولا اشتباكات، فالناس هنا يبنون ولا يهدمون، وهم ذوو أخلاق عالية، يقاومون الشرور بالعقل والحكمة، يصبرون ويحترمون الشيخ زكريا الذي يتداولون حكايات كثيرة عن

قيادته للبلدة وإنقاذه إياها من المهالك. فانتابتني حالة من البهجة عندما استمعت إلى بعض ما حدثني عنه أمير من أفواه الناس الذين يعيشون هنا.

لقد وفيت بوعدي وأتيت إلى حيث قطعت عهدا على نفسي. وأخيراً أنا في مدينة أم شالايا! ولم أكن أريد الانتظار طويلاً من أجل تحقق هذا اللقاء الذي طالما انتظرته مع الدعاء ورحلات البحث الطويلة.

أردت زيارة الشيخ زكريا زعيم قبيلة أم شالايا على جناح السرعة، لأستمع من فيه تلك الحكاية. لكن أميراً أخبرني أن الوقت قارب المغرب، ومن الأفضل تأجيل الزيارة إلى الغداة، حينها فهمت أن قدري محكوم بالصبر والانتظار.

كان أمير في زيارته الماضية قد سكن في بيت جابي الضرائب ويدعى علي الذكاء. وعندما سأل عنه قيل له إنه خارج مدينة أم شالايا في هذه الفترة. وحينها قرر أمير الذهاب إلى بيت الشيخ زكريا. وعندها علمت أننا نسير مباشرة نحو ثمار الصبر الذي يحكم قدري.

تركنا السوق وراءنا، ويممنا وجهينا شطر الجانب الشرقي للمدينة، وبعد خطوات قليلة انعطفنا إلى الشِّمال، ثم واصلنا طريقنا نحو الجنوب. ورغم تجوالي في عشرات الدول، إلا أنني أحسست هذه المرة أن الطريق قصير للغاية. وبعد مسير نحو 200 متر درنا إلى اليسار فلمحنا بيتاً في الزاوية فوقفنا ببابه فأحسست حينها قلبي سيتوقف عن الخفقان. طرق أمير الباب عدة طرقات وألقى السلام بصوت عال ليسمعه من في الدار قائلاً:

- هل الشيخ في الدار؟ إن ببابه ضيف.

ففتح الباب شاب رد علينا السلام ودعانا إلى الداخل، وقال:

- والدي ليس في البيت الآن. سأنادي لكم أخي الأكبر.

بعد لحظات جاءنا عبد اللطيف أكبر أبناء الشيخ زكريا، فألقى علينا السلام ورحب بنا وأخبرنا بأن والده موجود حالياً ببيته في مكة المكرمة. وبعد سؤاله عن أحوالنا، حدثناه عن سبب زيارتنا، فقال لنا عبد اللطيف:

- لقد أتيتم من مكان بعيد، فابقوا هذه الليلة هنا لتستريحوا، وصباح غد تذهبون.

فوافقه أمير على هذا العرض، وقال لي:

- لنسترح اليوم هنا، وغداً صباحاً نعود بإذن الله.

كنا سنبيت في كوخ إفريقي داخل الساحة مستدير الشكل جدرانه مبنية بالآجر بارتفاع 1.5 متر ومسقوف بالقصب وأرضيته مفروشة بالرمل. كانت يوجد في الداخل طاولة صغيرة وسريران من الحديد. وفوق الطاولة وجدنا مرهما لليدين وفرشاة أسنان وقنينة عطر. وعلى الأرض بجانب السرير ثمة حقيبة قديمة وعدد من الدفاتر والكتب. والسقف عبارة عن عدد من أغصان أشجار متوسطة الحجم تم تركيبها بشكل دائري فوق الجدار لتُربط في نقطة مركزية في الوسط. وفوق الأغصان تم ربط حزم من القصب

لإغلاق الفجوات في السقف. وكانت أشعة الشمس تتسرب قليلاً من بين القصب، غير أن الجو داخل الكوخ أبرد منه في الخارج.

مرّ عليّ الليل في ذلك الكوخ طويلاً. ولم يكن الصباح يريد أن يأتي. كانت تمرّ أمام عينيّ تلك السنوات التي مرت علي منذ وجدت حبات الذرة إلى اليوم وكل الأحداث التي عشتها في تلك الفترة. لقد كنت أبحث عن ناس لا أعرفهم ولم أسمع بهم في ركن منعزل من العالم. والآن أنا أنام في كوخ داخل بيتهم. كنت أعيش لحظة روحية أتقلب فيها بين الحقيقة والخيال. وكنت أعيش حقيقة أشبه ما تكون بالخيال. نعم إن ما أعيشه اليوم حقيقة.

لقد تأكدت من صحة ما حدثني عنه أمير. وأنا أتحرق شوقاً لمعرفة الجواب عن السؤال الذي سيكمّل المربع الأخير من الصورة. لم أرغب في الاكتفاء بما رأيته ولاحظته على طول الطريق. إذ أن هذا الانتظار لن ينهيه إلى سماع الجواب الشافي عن ذلك السؤال.

كنت أخطط داخل ذهني لما سأقوله. بعد التعارف كنت سأسل الشيخ زكريا عمّ يأكل؟ فإن قال لي إننا نأكل الذرة، كنت سأطلب منه إلقاء نظرة عن تلك الذرة التي يأكلونها. فإن كانت تشبه حبات الذرة التي جمعتها في مكّة، فكنت سأطمئن وأوقن بأن هذا هو المكان الذي أبحث عنه. وبهذا الشكل ينتهي المربع الأخير من الصورة، وأعتبر نفسي أسعد إنساء في العالم.

ولكن ربما كنت سأبقي حبيس الشبهات ولا أستطيع اتخاذ قرار سريع، إذا قال لي نحن لا نأكل الذرة، بل نأكل شيئاً آخر. وفي هذه الحالة ستتواصل عندي حالة الإبهام. غير أنه من الضروري أن أتأكد من الأمر مائة بالمائة.

في الحقيقة لم أكن أستطيع أن أتجاوز هذه البلدة التي وجدت فيها الصفات التي كنت أبحث عنها. ماذا علي أن أفعل؟ وكيف هي الطريق التي سأتبعها؟ وكيف يمكنني التأكد من صحة القرار الذي اتخذته؟ فإن لم استطع الحصول على الجواب الذي أريده، وإذا لم تكن حبات الذرة التي عنده لا تشبه تلك التي عندي، فإنني كنت سأبقي مدينة أم شالايا بين الخيارات المطروحة، وأواصل البحث عن مرادي في إقليم دارفور. وإذا لم أجد بلدة بالصفات التي أبحث عنها، حتى بعد تمشيط الإقليم بأكمله، فلن يبق أمامي أي خيار آخر، عندها فقط سأقتنع بأن هذه البلدة هي ما أبحث عنه. بهذا الشكل فقط يمكنني أن أتأكد من أن القرار الذي اتخذته هو القرار الصائب. وبعد أن قلّبت في ذهني كل الأسئلة والاحتمالات والعمليات والخطوات، طلع الفجر.

لم أكن أعرف إلى أي نتيجة سأصل ومع من وبماذا سألتقي. ولم أكن أستطيع توقع ماذا سأفعل وكيف سأتصرف إن لم أحصل على جواب لأسئلتي، وإن لم أجد ما أبحث عنه. وكيف سأفسر لهم الأمر بعد أن تحملت المخاطر وقطعت طريقاً طويلة إلى هذه البلدة. فهل سأكتفي بالقول: "ها قد رأيتكم وتشرفت

بلقائكم، في أمان الله أنا ذاهب". أم أنني سأقول: "ها، إذن هكذا الأمر، جيد جداً...". ثم أواصل طريقي نحو المجهول من جديد؟

لكن إذا وجدت أجوبة صحيحة على أسئلتي تلك! وإذا قررت أن هذه هي البلدة التي أبحث عنها. عند ذلك كيف سأبقى هنا، كيف سأعيش، وماذا سأفعل؟ ورغم أنني خططت لكل هذه الأمور من قبل، إلا أنني عندما طرقنا باب بيت الشيخ زكريا، أحسست بنفس الاضطراب الذي ينتاب طفلاً سيدخل الامتحان. حتى أنني لم أسمع طرقات الباب من شدة خفقان قلبي.

فتح الباب الأخضر المصنوع من الصفيح له صرير. وظهر لنا طفل يافع، فألقينا عليه السلام، ثم قال له أمير:

- لقد أتينا لرؤية الشيخ زكريا، هل يمكن أن تخبره بذلك.

فرد الطفل علينا السلام، ورحب بنا ودعانا إلى الدخول، فوجدنا أنفسنا في باحة فسيحة نظيفة مفروشة بالرمال، يتوسطها كوخ. وثمة أكواخ أخرى من الخلف في الزاية على اليسار وفي الجهة المقابلة وعلى اليمين وفي الجهة الخلفية للباحة المفصولة بحصير. ويبدو أنها مساكن لعائلة عديدة الأفراد.

لم نر الكثير من الناس في هذا المكان بسبب أننا في ساعات الصباح المبكرة. لكن أصوات الأطفال كانت تصلنا من وراء الحصير القائم كالجدار. وعندما كنا ننظر إلى ما حولنا، ظهر أمامنا الشيخ زكريا وهو يعرج وبيده عكاز. استقبلنا استقبالاً حميماً وحاراً. وجلسنا أمام الكوخ الذي في وسط الباحة من جهة الباب الخارجي.

عرّفنا أمير ببعضنا البعض. قال له إنني من تركيا، وذكر له أنني كنت شديد الرغبة في زيارة أم شالايا. ثم أعطاني الكلمة، فذكرت له أنني سمعت أموراً طيبة جداً عن أم شالايا، فأتيت إلى هنا لأرى بعيني مدى صحة ما سمعته عنها، وأسمع بأذني ما قيل لي عنها. وأكدت له أنني أتيت كذلك لأتعرف على الشيخ وأسمع بعض الحقائق من فمه مباشرة. سمعت منه قصة مختصرة عن أم شالايا ونضالاتها.

وبعد تلك المقدمة القصيرة، ضغطت على قلبي وسيطرت على حالة الاضطراب التي انتابتني، لألقي عليه السؤال المحرج، فقلت له:

- ثمة أمر يثير اهتمامي.

فأجابني الشيخ زكريا قائلاً:

- تفضل، ما هو.

فقلت له:

- ماذا تأكلون؟

في تلك اللحظة تجمد العالم أمامي، توقفت الأرض عن الدوران، لم يبق طائر يطير ولا ورقة تهتز على شجرتها. توقف كل شيء عن الحركة. وكأن الكائنات جميعها وقفت في صمت وهدوء لتسمع معي الجواب

على ذلك السؤال. ولكنني كنت أنا فقط أنتظر الجواب. وكانت كل ذرّة في العالم تنتظر لتشهد على ذلك. لكن صوت الشيخ زكريا دوّى صداه كالرعد ليشق ذلك الصمت العميق الرهيب الذي لم يكن له حد. وذكر جملة واحدة ولم يزد عليها كلمة ولم يُنقص، قائلاً:

- نحن نأكل الذرة.

كلمة واحدة كانت كافية لتعود الأرض للدوران، وترجع الطيور للغناء وتتفتح الأزهار من جديد، ويسري الدم في عروقي مرة أخرى وتعود الحياة إلى سالف عهدها. كلمة واحدة كانت كافية: إنها "الذرة". ولو لم يكن لدي بعض حياء لصرخت عالياً ورقصت من شدة الفرح.

قلت له:

- هل يمكنني أن أرى شيئاً من تلك الذرة؟

فأجابني:

- طبعاً، الذرة هناك في الجهة الخلفية.

فقمنا واتجهنا إلى حيث الذرة. وفتح الشيخ زكريا الأكياس وأخذ شيئاً من الذرة في كفه ومدها لي، فإذا هي تلك التي جمعت منها في الكعبة وبحثت عنها زمناً طويلاً. وكانت هي نفسها في كف الشيخ زكريا.

عندما يقع العبد في ضيق يتحول الصبر إلى مفتاح ويقفز نحوه لإغاثته. والله هو الذي يلقي بعبده في الضيق ويفرّج عنه. لقد قطعت مسافات طويلة وبحثت طيلة عشرات السنين عن حبة... أدرت أن أقول لحبات الذرة ربما تأخرت عنك ولكن أن أصل متأخراً خير من ألاّ أصل أبدا. لقد دعوتني أيتها الذرة فانطلقت منذ وصلتني تلك الدعوة وها قد أتيت إلى السودان إلى بلاد الذرة زوراسودان. حمداً لك يا رب، فلو لم تطرح أمامي تلك الحبات لأراها، ولو لم أطف العالم بحثاً عن حبة منها، لما بدأت تلك الهجرة. الحمد لله الذي فتح بصري وجعل لفوادي بصيرة...

ذرة السودان

5

اسطورة امشالاية

" , اذا ماكشفت عن الحقد اللذي في قلبك, فانك ستخرب المدن "

مثل من دارفور

أُمشالايا الحزينة المغرورة ,

عندما سمعت قصة كفاح سكان امشالايا لم اصدق اذني . انا امام حقيقة دامغة غير معقولة صادمة لم اكن اتوقعها ابدا بمثل هذا الزمن و هذه المنطقة بالذات . اجل , كنت ابحث عن مجتمع مستقيم , ذواخلاقحسنة, مظلوم لا حيلة لهولم اكن اظن ابدا ان يكونوا قد عاشوا مثل هذه الحياة الفاضلة .

هناك في تلك المنطقة الواقعة في بقعة الارض المتروكة والمنسية و المحتقرة ,شاهدت نموذجا لمجتمع يصلح ان يكون عبرة او نموذجا للانسانية . انه مجتمع لم يهتم بعظمة و فخفخة العالم المادي , انهم يعيشون بهذا العالم بدون كهرباء و اتصالات بل بدون طرق ايضا .

لايمتلكون الجامعات الضخمة و المتطورة, وليست لديهم مجلدات من الكتب. لقد حاولوا تمشية امورهم في القليل من الكتب التي عثروا عليها , لقد انشأوا لهم حياة واقعية , حقيقية!.. اجل لقد رايت ذلك بعيناي هاتين واحسست بها في قلبي . اجل شاهدت ذلك . هل تسألوني كيف كان ذلك ؟

بدأ ذلك الرجل الذي بلغ من العمر عتيا حديثه بوقار وتعقل قائلا :

- كانت المنطقة الواقعة جنوبي الصحراء الافريقية تعيش حياتا سعيدة , كنا نعيش كبشر كرماء ونحب المساعدة . كانت ارواحنا متفتحة نحو النور . وكان الظلام بعيدا عن هذه المدينة . نكرم الضيف ونراعي القربى . كنا نطعم كل من يمر من هنا ونسقيه ونقدره ونودعه باحترام .

كنا نجمع الغلال المختلفة كل عام باعتناء , ونحملها فوق عشرات بل قل المئاة من الابل الجميلة ثم نرسلها الى الحجاز لينتفع بها الحجاج دون اي مقابل .نحرث الارض بايدينا

ونعبش حياة مرفهة وكريمة مستفيدين من النعم التي ينعمنا بها ربنا الكريم .وحوالينا الجمال والابقار و الاغنام والعنزات الجميلة ترعى بسكينة واطمئنان وتقدم لاصحابها الكثير من الحيب و الزبد و القشطة .

وبكرمه سبحانه تعالى كانت نسائنا تجهز الطعام بفرح وسرور رغم انه قليل التنوع ولم نكن نترك جائعا .كانت موائدنا مفتوحة امام للجميع فبينما يكفي الطعام لثلاثة كانت الكمية تزيد الى خمسة مع اشتراك الضيف . الرجال يعملون, والنساء يكدحن ويربين الاطفال بينما الكهول يحتضنون الاطفال بحب ويربونهم بحنية .

قبل اسبوع من العيد يبدا الارتباك و القلق , يقوم الرجال بتجهيز الملابس الاجمل لاطفالهم ولنسائهم باعتناء , وتجلب احجار الكلس الناصعة البياض من حجير و يصبغ بها كل شيئ , وتنظف كل الاماكن وتجهز انواع الاطعمة لاجل يوم السلام ذلك .

عند اكمال كل التجهيزات ينام الاطفال مبكرين محتضنين ملابس العيد بانتظار حلول الصباح باقرب وقت . ويبدأ الكل بالتجمع في احدى الساحات الواسعة الواحد تلو الاخر مع اذان الفجر. كبار السن في الامام ومن ورائهم وبالقرب منهم البالغون ولن ينسى الاطفال او النساء قطعا .

يصلي الجميع صلاة العيد تحت اشعة الشمس الدافئة و الساطعة ونستمع بانتباه كبير لخطبة العيد ومن ثم يبدأ الجميع باحتضان بعضهم البعض وكانهم لم يروا بعضهم منذ مدة طويلة ويتبادلون التهاني و تنتهي العداوات و الاحقاد وتنتشر حواليك زقزقة الاطفال مختلطة بتغاريد البلابل لترتفع نحو السماء ومن بعدها رحمة ربنا يرسلها الينا مطرة غزيرة ...

وبعد فترة ما لاحظنا ابتعاد تلك الايام السعيدة عنا يوما بعد يوم. وبدأ الضباب بالظهور وخيم علينا الظلام شيئا فشيئ .بدأ الحزن يحل محل السعادة و حب النفس بدل التقاسم و الطمع بدل القناعة وحل الفقر محل البركة والتعنصر محل التسامح و الخوف من المستقبل بدل الامل والعنف بدل السلام . اجل لقد وجد ابليس الذي كان لاحول ولا قوة له طريقه لافساد المنطقة .

فشل الذين كانوا ينتظرون الحق والعدالة و الخدمة التي كانوا يأملونها عام 2003 . وبدلا من اعلاء اصواتهم اعلوا ايديهم مصدقين بوعود ابليس بـ " السعادة المطلقة والابدية " . ولم تصحى ارواحهم الا بعد ان استيقضوا من سباتهم على اصوات الاطلاقات .

من قتل شخصا كأنما قتل الناس جميعا . ولم يعد هناك اي فرق بين قتيل او الف قتيل . لقد سفكت الدماء وهدمت الدور اجل لقد تلطخت الايدي بالدماء ...

القرى و القصبات التي التهمتها النيران والاموال التي نهبت و النساء اللاتي قتلن و الاطفال و الشيوخ . هذه ليست لعبة انها مأساة حقيقية ... لقد دمرت الالاف من قرانا و قصباتنا . قتل

عشرات الالاف من الابرياء . ومات الالاف منهم في طرق المهجر . وسرقت جميع اموالهم . لقد ترك مليونان ونصف المليون من مجموع ستة ملايين من جماعتنا دورهم .

حكم قومنا على المخيمات وهم عاجزون . لا ارض لهم ليزرعوها و لا حيوانات ليرعوها . اطفالنا بدون مدارس ولا نقود لنا و فقدنا حتى شرفنا .

انسحب البعض من رجالنا وشبابنا الى الجبال , تمنطقوا بالاسلحة بقوة و قدرة لقد كانوا ينوون إنقاذ وطنهم و يجلبون السعادة لشعبنا . ولكن زاد عدد القتلى واطفئت مواقد كثيرة واصبحنا اكثر تعاسة .

مرت الاشهر وتبعتها السنين الواحدة تلو الاخرى ... العام 2008 , مرت خمسة سنوات . و لم تزر " السعادة الابدية والمطلقة " بعيدة عن ديارنا . ولا تزال حياة البؤس مستمرة في المخيمات . لقد اضحى شعبنا بدون جذور و تعليم و صحة و اصبح غليظ القلب قاسيا . انهم يعيشون حياة بؤس وشقاء لا يمكن تصديقها دون رؤية عين. اما الذين ذهبوا الى الجبال فحالهم ليس افضل من حال هؤلاء .

القرى والقصبات الى احرقت اصبحت في اساطير الاولين . واصحت المراعي تصدح فيها اصوات ابن اوى وتلتهم جموع الجراد اوراق الذرة بوحشية . بينما تستمر الذئاب بالوعيل الحزين . حياة يسيطر عليها الخوف و الفزع دون قوانين ولا انظمة , حتى قانون الذئاب لا يطبق هنا !..

- سالته : حسنا ما الذي حصل لتصبح الحال هكذا ؟ لقد اردت ان اسمع العالم كلهبذلك السؤال بتلك اللحظة . كيف فقدتم هذا الجمال ؟ اجابني احد الشباب من خريجي الجامعات يعمل مدرسا الان وفي الـ 30 من عمره :
- عندما تفجرت الاوضاع في دارفور عام 2003 لم يكن احد يتوقع ان تبلغ هذا الحد من العنف . لم تكن الامور قد توضحت ذلك الوقت وطرق حلها كذلك . لقد اختلط الحابل بالنابل تحت الضباب والغبار لم نعد نعرف الصحيح من الكذب . لأننا لم نعش مثل هذه التجربة قبلها .

لقد طالب البعض من شعبنا القليل من مخصصات الدولة لاجل اعمار دارفور و حياة انسانية افضل . لقد كانت طلبات انسانية و حقة . رد عليهم بشدة فان طلب الحق بالنسبة لهم مثله مثل العصيان . اجل هناك اناس حمقى في كل مكان ولدينا بعض الحمقى ايضا لم يحاولوا حل المشكلة بحكمة .و هكذا تسببوا في اعطاء الفرصة لبعض المتصيدين بالماء العكر .و رغم هذا لم تكن طرق التفاهم قد اغلقت كلها . ولم يخرج السيف من غمده بعد . ولم يصر الطرفان على شروطهم ولكنهم لم يبذلوا جهدهم لحل المشكلة. اجل لقد رفعوا الامر الى مرتفع , مرتفع صرب .

حصل البعض من رجالنا لا اعرف كيف و من اين على اسلحة واطلقوا اول طلقة , الذي يطلق الرصاصة الاولى هو الذي يتحمل الذنب و اضرام النار , ولم يبقى العصيان دون مقابل و هكذا تولد العنف مقابل العنف . وبدأ التورابوريون (العصاة – الذئاب السمينة) باستخدام اساليب اعنف .
وما ان بدأ الحريق يتوسع في دارفور بدأ بعض الرحل الجهلة و العديمي الرحمة باستخدام السلاح : الجنجاويون ... كانهم طائفة مسلحة من الجن يمتطون الخيول والابل ... يتصيدون الاموال والبشر ليلا ويختفون في النهار .
بدأوا بالضغط على القرى و القصبات لاجل الانتخابات . الشعب محتار وعاجز . فإما الحكومة او العصاة , انه زمن التحيز . العصاة –التورابوريون يضايقون مؤيدي الحكومة و يعزلونهم بينما يقوم الجنجاويد بنهب اموال و هدم دور المقربين من العصاة . الكل الان بين نارين .
عرف الكثيرون من رجالنا بان هذا الطريق لا مخرج له . انه سيحترق حتما ان انحاز لاي فريق منهم . ولاجل الخلاص وانقاذ انفسهم حملوا ما استطاعوا حمله وغلا ثمنه معهم و هاجروا . تركوا دورهم المحروقة و وطنهم المذلول للعصابات المسلحة للذين يمتطون الخيول والابل . اجل نهبت ابلهم و ابقارهم و قطعان مواشيهم واموالهم . لقد ذاقوا الويل اياما واسابيع بطرق الهجرة , مات البعض منهم و اصيب اخرون بعاهات ليزحفوا و يلقوا رواسيهم في مخيمات لجوء واسعة ليعيشوا حياة بؤس أمر .

- اجل , انت على حق , لقد قرات قبل ذلك عن حوادث مأسوية مؤلمة . لقد لجأ قرابة نصف سكان المنطقة تقريبا الى تلك المخيمات . اما الان فان منطقة دارفور تعتبر من اكثر المناطق العالمية التي تشهد العنف . اني على ثقة تامة بان الجميع شاهد ما يكفي من الموت و الدماء والدموع و الالام . الا يفكرون بان الوقت قد حان لانهاء هذه المأساة ؟ اليس هناك بارقة امل ؟ سالته , حسنا هل ستعود ايام السعادة تلك التي تحدثتم عنها ؟ وبدأ الكهل الحديث قائلا :
- آه ياولدي , كيف لنا ان نفقد الامل ! طبعا ان الامر ليس بهذه السهولة , قد لا ارى انا عودة تلك الايام القديمة . ولكن والله خلقنا في احسن تقويم و اعطانا العقل والمعرفة و مكانة اعلى من مكانة ابليس اني اسأل كيف نستطيع تصديق بان ابليس سينجح ؟ اننا وبعون من الله تعالى سنتغلب على حيله وسنقهره عاجلا كان ذلك ام آجلا باذنه تعالى.

لم ينسى هؤلاء الناس ذكر الله عز وجل حتى في احنك ضروفهم (سورة الرعد – 28)" الَّذِينَآمَنُواْوَتَطْمَئِنُّقُلُوبُهُمبِذِكْرِاللَّهِأَلاَبِذِكْرِاللَّهِتَطْمَئِنُّالْقُلُوبُ " .

قلت في نفسي بان الامر هو هذا ... وهذا هو المكان الذي انشده ... انه المكان الذي فقدناه والذي سينمو فيه الامل من جديد ... بلدة الناس السعداء والكرماء يوما ما ... دارفور ...

احضان الام , امشالايا !

مشاهدة الرجال الشجعان و الحكماء شعور رائع .انه يجعلك تشعر بالانسانية و يسهل امورك ويدفعك الى ترك الافكار السيئة , انه يمنحك النشاط سواء اردت ذلك ام لم ترد .القليل من الناس من يستطيع رؤية النصر والكل في حالة خسارة و يأس , صدقوني .

كنت اكتشف اشياءا جميلة جديدة كلما حاولت معرفة الكثير عن امشالايا . انها مرتبطة بالجناينة الواقعة جنوب شرقي دارفور . امشالايا بلدة يسكنها حوالي 15 – 20 الف نسمة ... وهناك قرابة 20 قرية تابعة لها عدد سكانها مع قراها بحدود 40 – 50 الف نسمة .

ماضي امشالايا ليس بالقديم . هاجرت اليها بعض القبائل قريبا . يعيش فيها الان اكثر من 32 قبيلة من عرب و تيما و جمير و مساليت و فور و داجو و مراريت و اولاد جنوب و اولاد نجاح و اولاد ارجام و اولاد بني حلبة و بني حسين و عطورية و مهادي و مصرية جبل و قبائل اخرى غيرها .

الاسم القديم لامشالايا , وادي دوي . ونظرا لكثرة القبائل والرحل التي تعيش في المنطقة والقرى المرتبطة بها فقد فكروا بتغيير اسمها وبدأ رؤساء القبائل و كبار السن من المسئولين البحث عن اسم مناسب , وبعد مشاورات ونقاشات رأوا انه من الافضل لهم تسمية المكان بامشالايا .

عند استغرابي و سؤالي عن معنى امشالايا, احسست كانني في حلم خلال شرح الرجل الكهل المعنى . لانه شرحها لي بطريقة " لم يتصورها العقل " لانها كانت وكأنها نص من كتاب الاساطير .

كلمة " ام " تعني الام و" شالايا " تعني " الذي يضم او الذي يحتوي " او " الشامل " لذا فان كلمة امشالايا تعني " الام التي تحتضن الجميع " انها الام التي لاتفرق بين القبائل و الجنس و القومية و الافكار و الدين , انها الشاملة لكل شيئ وهي التي تحميهم ... امشالايا هي " احضان الام التي تحتضن الجميع "...

اعتقد بان هناك القليل من الاماكن المسماة والتي يطابق اسمها المكان في العالم . حقا ان اسم امشالايا لائق جدا بالمكان , انها المدينة التي يعيش فيها المسمى .

انها المدينة الوحيدة في دارفور التي تحوي على قرابة الاربعين قبيلة مختلفة و تعيش بامان واستقرار بعيدا عن المعارك ... ام شالايا مدينة السلام التي تحتضن كل قبيلة وقومية بحنانها و شفقتها ...

الا تشاركونني الرأي بان الاسم اسطوري ؟ قد لا تشعرون بالصدمة التي شعرت بها لهذا الاسم, لانكم لم تقرأوا بعد اسطورة امشالايا , انني على ثقة تامة بانكم ستشاركونني الرأي كلما اكملتم القراءة .

انتخاب الرئيس

بعد ان تعرفت بامشالايا اريد التعرف بزكريا رئيس ام شالايا. سالت من رئيس امشالايا ؟

- قالوا لي بانه الشيخ زكريا .

نتائج ابحاثي التي اجريتها اثبتت لي بانه لا يقل غرابة من امشالايا نفسها .

عندما بدأت الحوادث , كان زكريا ذلك الرجل الحكيم المقتدر رئيس اكبر قبيلة في امشالايا. زكريا مزارع منذ اكثر من 30 عام ويتاجر بالمواد الزراعية ' كان يترك مدينته بين الحين والاخر تبعا لمتطلبات عمله و يبقى فترة في مدن اخرى .

قبل بدء الحوادث في امشالايا بفترة طويلة في عام 1996 , كانت القبائل تبحث عن رئيس يعتمد عليه و مقتدر و حكيم وعادل ويحمل صفات قائد , ورغم وجود عدد لا بأس به من الاشخاص بهذه المواصفات الا انهم لم يتفقوا على اسم معين .

كانوا يبحثون عن ثلاثين ميزة للمرشحين , وكانت الانظار تتجه نحو المرشح الذي يحمل اكبر عدد من هذه الميزات . وعند سؤالي عن هذه الميزات , اجابوني على اهمها قائلين :

1 -**يكون متدينا و يعيش حياة مطابقة للدين** : بعيد عن التظاهر , يطبق قواعد الدين يعرف الحلال و الحرام و يلاحق الحلال دائما و يديم حياته متدينا بهذا الشكل .
2 -**يكون حكيما** : يطبق قراراته بحكمة و يحسب حساب المستقبل .
3 -**يكون عادلا** : يدعم صاحب الحق في الخلافات الداخية و الخلافات مع القبائل الاخرى . وعادلا عند اصدار قراراته ولا يظلم احدا .
4 -**يكون كريما** : يجب ان يكون قد اثبت كرمه مع الامة حتى الان وان يكون مضحيا .

5 -**يكون صبورا** : يجب ان يتحمل انواع البشر و مزاجاتهم وجميع الصعوبات و المشقات التي يواجهها صبور و ذو عقل نير .

6 -**يكون مع الامة و في خدمتهم** : يبذل جهده لحل مشاكل الامة ويخدم الامة دون تفرقة في اللون و الجنس و القبيلة ومهما كان .

7 -**يكون صاحب مشورة** : يعرف الاستشارة في القرارات التي تخص المجموع و لا يصدر قراراته دون استشارة .

8 - يكون اهلا لمنصبه : يتحمل التبعية ويحمل المؤهلات التي تطور البلدة و تنقلها للمستقبل .

في الحقيقة عندما سمعت هذه الميزات لم استغرب سبب حيرة الاهالي في اختيار الرئيس . ليس من السهولة العثور على شخص له مثل هذه الميزات الجميلة .

ونظرا لعدم استطاعة سكان امشالايا العثور على هذه الاوصاف في غير زكريا لذا اختاروه رئيسا في غيابه . كان زكريا في تلك الفترة في نيالا يمارس مهنته بالتجارة دون ان يدري عما يجري . و لاحتمالات عدم موافقة زكريا على تولي الرئاسة قرر جميع سكان امشالايا الضغط عليه واجباره على ذلك .

ارسلوا مرسالهم لزكريا يطلبون منه المجيئ الى امشالايا لامر مهم .عندما اتى زكريا اخبره رؤساء القبائل بانه تم اختياره رئيسا للقبائل و طالبوه بالموافقة .

وكما خمن رؤساء القبائل الرد فقد رفض زكريا الطلب متعللا بالمسؤليات الكبيرة المادية منها والمعنوية للمهمة التي ستلقى على كاهله , مشيرا الى انه لا يستطيع تحقيق العدالة بالصورة المطلوبة و انه لا يستطيع تحمل العبئات المادية والمعنوية ولكن هيهات .انهم لم يتركوا له اي خيار اخر .واخيرا اجبر زكريا على قبول الرئاسة ليصبح رئيسا لامشالايا . انه الان " الشيخ زكريا " ...

رئاسة ام شالايا كانت تجري عبر الانتخابات . عندما علمت بذلك احسست بالخجل من بعض افكاري التي كنت احملها مسبقا عن افريقيا . وجود رئيس منتخب سعادة اخرى احسست بها .

يدير الشيخ زكريا ام شالايا منذ عام 1996 التي استلم فيها الحكم حتى عام 2003 بكل حكمة وعدل . يصرف امواله الخاصة لخدمة السكان و يراعي الحقوق و العدل يهتم بالعلوم متخذا من السلام و الرحمة دستورا له انه رئيس حكيم حصل على ثقة الناس ثقة عمياء .

الشيخ زكريا رئيس شعبي لا يخدم نفسه بل يخدم امته .

استراتيجية الاسطورة : ام شالايا !

جاء الان الدور لفهم استراتيجية امشالايا . لقد نجت امشالايا من الكوارث و الغارات و الحرائق والحروب التي غمرت المنطقة . شرح لي امير نيالا القليل عن الوضع قبل قدومي لامشالايا واستمعت الى بعض اقوال سكانها خلال زيارتي للمدينة بصحبة امير نيالا. ولكن زيارتي الثانية لامشايالا وحصولي على المعلومات من حديث ذلك الشيخ الحكيم كانت عظيمة .

عند زيارتي لامشالايا عام 2008 تعرفت بالكثير من الناس هناك و حاولت جاهدا معرفة افكارهم و طرق معيشتهم و ثقافتهم و آلامهم وافراحهم و كفاحهم .

كنا جالسين نتسامر في مجلس مع عدد من الشيوخ والشبان . وعندما بدأ الحديث عن امشالايا و تحقيق السلام و الامان فيها احسست بالحاجة لسؤال بعض الاسئلة . بدأ الرجل الكهل الطويل ذو العمامة و الجلبية البيضاء التي يرتديهما و الذي يبدوا وكأنه في عمره 70 من التجاعيد التي تغطي وجهه و التي تضفي على وجهه الوقار و الحكمة وينظر بعمق . بدأ حديثه ببطئ قائلا :

" بعد ان بدأت الحوادث عام 2003 عمت الحرب الداخلية جميع البلاد . و حسب ما سمعنا فإن التورابا اتوا للشيخ زكريا يطالبونه بالدعم و عرضوا عليه الاشتراك في العصيان . رفض الشيخ زكريا الطلب معارضا " :

- قائلا اني افضل الموت بدلا من محاربة مسلم و سفك دم اخ. عندها اجابه هؤلاء قائلين,
- اذا عليك اختيار الجهة التي تريدها, ونبهوه الى ان عكس ذلك سيجلب لهولامشالايا مصائب و كوارث دون ان يستطيع احد حمايتها.عندها قال الشيخ زكريا .
- هذا هو رأيي . لن اكون مع الذين يسفكون دماء المسلمين قطعا . كما انني لست صاحب القرار الوحيد في الامر : علي ان اشرح الامر لرؤساء القبائل و من ثم اصدر قراري .

من المؤكد بأن كبار مسؤولي امشالايا لا يدعمون الاجراءات التي تتسبب بسفك دماء الاخوة مثل هذه . كما ان هناك خطورة من معادات العصاة و عدم دعمهم . كان عليهم حساب نسبة الخطورة و الخسائر التي سيمنون بها بدقة . ورغم كل هذا ينهون نقاشاتهم و لقاءاتهم ويقررون رفض دعم العصاة . ورغم ان القرار لم يعجب العصاة الا انهم تقبلوه لانه خيار لهم سوى ذلك .

من جهة اخرى كان هناك خطر اكبر خطير قريب بانتظارهم . الجنجاويد! ... الجنجاويد تلك القبائل العربية التي اغلبها قبائل رحالة يشكلون خطرا كبيرا على الناس . تمنطقوا بالاسلحة لاجل محاربة العصاة و اخماد الحركة . لذا فان القرى و البلدات المشتبهة بدعم العصاة كانت مهددة . ونظرا لاحتمال تقديم الدعم اللوجستي للعصاة فقد كانت كلها مهددة سواء دعمت ام لم تدعم العصاة و تعرضت هذه المراكزالى ضغوط ومضايقات كبيرة , امشالايا كانت احدى هذه المدن .

بعد فترة قصيرة من انفجار الاوضاع وانتشارها في دارفور , دعى الشيخ زكريا رؤساء القبائل في امشالايا الى اجتماع . حضر الاجتماع رؤساء قبائل امشالايا و مسؤولي الـ 20 قرية التابعة لها . حضر الاجتماع قبائل المساليط و الفور و التيما والعرب و قرابة الـ 22 قبيلة اخرى . خاطبهم الشيخ زكريا قائلا :

- يا امتي , كلكم على علم بالنار المحيطة بنا . على علم باحراق القرى او بهدمها و نهبها او هجرة اهلها و هروبهم .

نحن الى الان بعيدون عن هذا البلاء . ولكن هذا البلاء يزداد قربا منا كل يوم . نحن الان تحت مراقبة الجنجاويد من جهة و التورابا من جهة اخرى .

الان مالذي علينا عمله تجاه هذا الامر و ما الطريق الذي علينا اتباعه ؟ ليخبرني كل واحد منكم عن رأيه وافكاره . جمعتكم لاجلهذاالغرض و ادعوكم الى التفكير سوية لاتخاذ الحل المناسب .عندما انهى الشيخ زكريا كلامه اجابه رؤساء القبائل قائلين :

- بما انك جمعتنا و تطلبت رأينا , نحن لا نريد طبعا تدمير وطننا . سألهم الشيخ زكريا .
- اذا كنتم لا ترغبون بتدميره فما هي حلولكم , ما الذي علينا فعله و اي طريق نتبع ؟

تنفس الشيخ الحكيم نفسا عميقا و قام واقفا . و كأنه يعيش تلك الايام . من الواضح جدا بان كل تجعيدة من تجاعيد وجهه قد عجنت بالالام و الاوجاع . ما هي خسائره , لقد تجددت آلامه .

اني اتوقع ان يكون موضوع اصدار قرار بهذا القدر من المسؤلية ان يكون من اصعبها . فأن اي قرار خاطئ قد يتسبب بدمار الـ 20 قرية المجاورة لامشالايا و حياة 50 الف شخص تقريبا . لاجل هذا كان الجميع في حذر شديد وحساسية تامة .

عندما عاد الشيخ المسن الى نفسه وجلس في مكانه ولم تكن اثار الدموع التي سكبتها عيناه لم تمسح بعد . استلم شيخ اخر الحديث قائلا :

لم نستطع نحن رؤساء القبائل ذلك الحين من ايجاد حل مناسب . دعم العصاة او الكفاح او الهجرة الى المدن الكبيرة و المناطق القريبة من معسكرات الجيش دون الانحياز الى اية جهة

والابتعاد من المنطقة . لم يكن امامنا الكثير من الحلول ولم نستطع التوصل الى حل مشترك رغم المشاورات والنقاش المستمر . عندها قال الشيخ زكريا :

- ليعود كل واحد منكم الى قبيلته , وليفكر جدا ويستشير الاخرين لنتخذ قرارنا في الاجتماع المقبل .

عاد الحكيم المسن الى وعيه ليكمل الحكاية :

بعد فترة وجيزة اجتمع رؤساء القبائل من جديد لاصدار قرارهم النهائي . طالب الشيخ زكريا من كل رئيس قبيلة ابداء رأيه علنا و دون خوف اوتردد وان يشرح سبب اتخاذه هذا القرار . و رغم عدم اتخاذ قرار مشترك الا ان الفكرة الذي حصلت على موافقة اغلبية الرؤساء هي :

- علينا ترك ديارنا قبل ان تهدم و انقاذ اطفالنا ونسائنا وشيوخنا قبل ان يصيبوا باضرار .

كنت انا من ضمن مؤيدي هذا القرار ذكر الشيخ الحكيم ذلك . لانه كان علينا اختيار احد الطرفين لاجلالبقاءفيبلدتنا, و في حالة ميلنا لاي طرف منهما فان الطرف الثاني لن يرضى عن ذلك و يعتبرها خيانة . لذا فإن المنطق يشير الينا بإختيار هذا الحل قبل ان نجبر على الاختيار و الابتعاد من المنطقة .

اسباب كثيرة اجبرتنا على هذا الاختيار . لقد اختارت الكثير من القري و البلدات هذا الخيار وهجرت موطنها وكلنا على علم بالمآسي التي اصابت الذين لم يهاجروا واختاروا احد طرفي النزاع .

بدأ الشيخ الاخر بالحديث :

" اجل ... كلنا يعرف ما حدث . لم يرغب اي منا بالصعود الى الجبال و التحرك نحو المجهول و ان نكون آلة لاراقة دماء الاخوة .قد يعيبنا بعض اقاربنا او افراد قبيلتنا , و يتهموننا بل قد يعذبوننا . ولكن مهما حصل فاننا لم نرغب بان نكون آلة لسفك دماء اخواننا. رفضنا كلنا هذه الفكرة . و لم يبقى امامنا سوى خيار الهجرة " .

بدأ الشيخ الحكيم الحديث مرة اخرى :

" هذه كانت فكرتنا المشتركة و لكن الشيخ زكريا لم يوافق على هذا الرأي . في الحقيقة استغربنا جميعا لردة فعله هذه . اننا نعرف علم المعرفة معارضته الشديدة لسفك دماء الاخوة . اذا , لم الاعتراض ؟ وبما انه لا يؤيد العصيان : اذا ما سبب اعتارضه على الهجرة التي نعتبرها الحل الوحيد ؟ الحقيقة اننا لم نكن نفهم هذا الامر " . عندها بدأ الشيخ زكريا حديثه :

- اي ذنب اقترفناه نحن لنترك وطننا ونجبر على الهجرة ؟

من منا يرضى بعدم مقاومة اعداء من الخارج هاجمونا و احتلوا اراضينا , وكيف كنا نوافق على ذلك ؟ بدون شك كنا سنحارب دون تردد ونستخدم السلاح؟ كنا سنتحمل الاعباء شيوخا وشبابا ورجالا و نساء ونتحمل الصعاب و المشاق عن طيبة خاطر.
ولكن كيف لنا ان نرضى بحمل السلاح ضد مواطنيننا و اخوتنا ؟ انكم جميعا متفقون على ذلك اليس كذلك. علينا جميعا ان لا نكون آلة لسفك دماء اخواننا . اني اقول بان علينا حل المشكلة بشرح مشاكلنا و بالتخاطب , حلها بالحسنى .

لقد ولدنا هنا , و عشنا هنا . جميع مصادر عيشنا وحياتنا هنا . نهاجر ؟, الى اين نستطيع الهجرة ؟

لنقل باننا حددنا مكانا للهجرة . الا نتعرض و تتعرض عوائلنا الى الهلاك في طريق هجرتنا ؟ الن نعاني الكثير في طريق الهجرة و كذلك في المنطقة التي سنذهب اليها؟.
لنفرض باننا وصلنا الى المكان المقصود , من يستطيع معرفة الذي سيصيبنا ؟ دون ان يكون لنا ملجأ و دون اموال و دون ارض كيف نستطيع العيش ؟ لنفرض باننا استطعنا العيش . اية حياة ستكون هذه ؟ مما نخاف ؟ هل سنسافر الى المجهول تاركين كل ما نملك لكي لا يقتلوننا ؟

لا مفر من الموت طبعا . اينما نهرب سيتعقبنا الموت . ان كان الله عز وجل قد كتب لنا الموت فسنموت حتما اين ما ذهبنا . سوف يلقي الموت قبضته علينا حتى اذا ما كنا في حصون و قلاع محصنة . قل لن يصيبنا الا ما كتب الله علينا . اذا فاننا لن نستطيع التخلص من الموت بهجرتنا .

رد رؤساء القبائل الموجودين جميعهم ,

- و لكن ليس لدينا خيار اخر اليس كذلك ؟ اجابهم الشيخ زكريا قائلا :
- اجل هناك , مستمرا في حديثه :

" انا لا اخاف من فقدان حياتي التي وهبها لي ربي . ولكني اخاف من فقدان انفسنا و عوائلنا وكل ما نملك . اني خائف من ان نفقد وجودنا و انسانيتنا و ايماننا . انا لا طاقة لي بتحمل المصائب و تسليم انفسنا له والانتظار دون اي امل .

لقد وهبنا الله العقل و وجهنا الى الطريق القويم فلم اترك هذا الطريق و اسير مع التيار ؟ و يستمر الشيخ زكريا في الحديث قائلا :

" امتي العزيزة , يقول الله عز وجل (قُلْإِنَّالْمَوْتَالَّذِيتَفِرُّونَمِنْهُفَإِنَّهُمُلَاقِيكُمْ) اذا انتم لن تستطيعون الهرب من الموت حتى اذا ما هربتم .

اذاعليكمتغييرانفسكم كما يقول الله عزوجل ايضا (إِنَّاللَّهَلايُغَيِّرُمَابِقَوْمٍحَتَّىيُغَيِّرُوامَابِأَنفُسِهِمْ) .

ليس علينا ان نحسد الاخرين , و لا ان نعادي احدا , و لا ان نتحيز لقبائلنا , لنعيش سوية بسلام ومحبة مثلما عاش ابائنا و لنحفظ بلدتنا ."

شرح الشيخ زكريا استراتيجيته للصمود و عيون الرؤساء متوجهة نحوه باستغراب و شوق .

الخطوة الاولى : الدعاء الى حتى انتهاء البلاء !

" امتي العزيزة !

هذا البلاء القادم , علينا ان نعتبره مصيبة حلت بنا . بلاء اصيب هذه الامة ! و لكن يجب ان لا ننسى ابدا بان هذا البلاء حصل بمشيئة ربانية وبعلم جلالته تعالى .

لقد حل البلاء بنا وبأمتنا . خالقنا يرى هذا البلاء و يعرفه تمام المعرفة . لقد حل بنا البلاء جراء اعمالنا و تقصيراتنا او انها الارادة الربانية لامتحاننا . ليست لدينا القدرة على معرفة ذلك .

ان الشيئ الذي علينا البدء به هو الدعاء الى الله عز وجل ليرفع عنا هذا البلاء . ونطلب منه ان يجد لنا حلا للخلاص و يدفع عنا هذا البلاء .

اطلب من علماء الدين ومن حفاظ القرآن الكريم و الذين وهبوا حياتهم لله ان يقرأوا القران الكريم ويدعوا الله جل وعلا باستمرار ليرفع عنا البلاء , امتي العزيزة تعالوا كلنا لندعوا خالقنا بنفسالشكلحتى رفع البلاء . انه بدون شك يسمع الادعية و هو الذي يرد عليها ".

الخطوة الثانية : التصرف بحكمة !

" امتي العزيزة !

سنعتمد على الله عز وجل ونتقدم له بالدعاء . اجل , حتما فان الدعاء لا يكفي لوحده . ولكن نحن البشر مجبرين على اداء ما علينا.

علينا ان نستخدم عقلنا الذي وهبنا الله . يقول الله عز وجل (يُؤْتِيالْحِكْمَةَمَنيَشَاءوَمَنيُؤْتَالْحِكْمَةَفَقَدْأُوتِيَخَيْرًاكَثِيرًاوَمَايَذَّكَّرُإِلاَّأُوْلُواْالأَلْبَابِ) . لذا علينا التصرف بالحكمة مستخدمين جميع امكانياتنا و جهدنا لدفع البلاء .

و بعد ان نؤدي ما علينا لا يبقى امامنا سوى التوكل على الله . انه بدون شك نعم الوكيل و المساعد الوحيد .

تعالوا لنفكر الان ولنرى . من الذي يستطيع مهاجمتنا والحاق اضرار بنا ؟ و لاجل ماذا سيهاجموننا ؟ هل سيهاجمنا التورابور (العصاة) ؟ ام الجنجاويد ؟

لن يستطيع العصاة تكبيدنا باضرار كبيرة, انهم يطلبون منا الدعم و المساعدة فقط. انهم يعرفوننا و يعرفون نيتنا و وقفتنا . يعرفون باننا لسنا معهم كما يعرفون باننا لن ندعم

الطرف الاخر . لقد اخبرناهم بانهم لن يستطيعوا الحصول على اية نتيجة من سفك دمائنا , ذكرنا لهم ذلك و اخبرناهم باننا لن ندعمهم . و رغم كل هذا اذا فإذا ما ارادوا تعريضنا لاضرار لعدم دعمنا لهم فاني اعتقد بان اضرارهم ستبقى محدودة جدا و موضعية .

الضرر الرئيسي كما ترون حوالينا سياتينا من الجنجاويد . الان , من هم الجنجاويد ؟ ما هي مشكلتهم ؟ ما هي مطاليبهم ؟ لنرى افعالهم ؟

لنلقي نظرة الى اعمالهم : انهم متشكلون من قبائل رحل ونظرا لانهم رحل فان اغلبهم بعيد عن الثقافة . انهم يتحركون على شكل جماعات ممتطين جمالهم و خيولهم . قيل لهم بأن " بعض قبائل دارفور من الاصول الافريقية تطالب بدولة مستقلة و عندما ينشؤون دولتهم فانهم لن يرحموكم و سيقتلونكم جميعا " . لذا فاننا ورغم وجود قبائل عربية معنا سيعتبروننا اصدقاءا للعصاة و حلفاء طبيعيين لهم .

حسنا , كيف يتصرف الجنجاويد اذا ؟ لنلقي نظرة على ذلك ؟ انهم يجبرون سكان القرى و البلدان التييدخلونها الى الهجرة , وفي حالة رفض طلبهم او احساسهم بخطر ما فانهم يسحقون كل ما يعترضهم بل يقتلون الناس دون رحمة في بعض الاحيان . يطمعون بقطعان الحيوانات واموال الناس . لذا فان دعمنا للعصات سيكون ذريعة لهم وفرصة لنهب اموالنا و حيواناتنا .

اذا ما الذي علينا فعله لنرى ذلك ؟

امتي العزيزة !

اقول لكم : الذي يمتلك مالا, ليجلبها هنا و يجهزها . فان كان همهم المال نقول لهم هذه هي اموالنا خذوها نعطيعا لهم قبل طلبهم ونضعها كلها امامهم . ليطمئنوا على حسن نيتنا و لتلين احقاد قلوبهم .

ان الله هو الذي وهبنا هذه الاموالو هو قادر على ان يمنحنا افضل منها , لنقدم لهم الاموال ولندفع هذا البلاء .

امتي !

عندما ياتي هؤلاء لنسألهم " ما الذي تريدونه ؟" . " فان طلبوا الابل نقول لهم هاهي الابل و ان طلبوا الخيول هاكم خذوها واذا كنتم تطلبون قطعان الاغنام والابقار خذوها كلها واذا ما كنتم تطلبون الاكثر فخذوا كل ما نملك ..."

" لنعطيهم كل ما يطلبون " .

الخطوة الثالثة : ساعدوا اعدائكم

" امتي العزيزة !

اني اقدر شعوركم بان الامر ليس بهذه السهولة . يقول الله عز وجل (ادْفَعْبِالَّتِيهِيَأَحْسَنُ) . اننا لا نستطيع دفع البلاء بالبلاء .

ان هاجم احد ما داركم و اراد سرقة منامكم او اغطيتكم ان الله لا يضيع حق احد . لقد خلق الله عالمين فالذيتفقدونههناستجدونهفيالآخرة .بل اذا ما عادوا احد منا , وسرقوا اموالنا الا نقول نحناهاليدارفور" سرقوا اموال الدنيا ! لقد خلق الله عالمين , انشاء الله سيأخذ المظلوم حقه في العالم الاخر "؟

وعندما تسرق اموال احدنا واراد ان يقوم بعمل سيئ وينتقم الا نقول له " سرقت اموالك و هل سرق عقلك ؟ الا نقول له هذا ؟

اذا يا امتي !

عندما يأتي هؤلاء لاخذ اموالكم لا تدعوا لهم فرصة للشجار و العنف . بل ساعدوهم في اخذ اموالكم . ان ارادوا اخذ فراشكم قولو له " ان كنت بحاجة الى الكرسي ايضا خذه " . ان ارادوا اخذ قدوركم " ان كنت بحاجة الى الاطباق خذها ايضا " .

لا تمنعونهم اعطوهم جميع ما يطلبون . ولا تعارضوهم . و لاتقولوا لهم قولا سيئ . ليأخذوا ما يريدون وليتركونا و يرحلوا عنا . بل ساعدوهم في تحميل الاموال و نقلها ! " .

الخطوة الرابعة : موت احد اولادنا افضل من خراب مدينة

امتي !

جميع الاعمال التي سنقوم بها قد لا تكفي عندقدومهم. حتى وان اعطيناهم اموالنا كلها, قد لا تكفي كل معطياتناسيحاولون مضايقتنا لاخراجنا من هنا بل قد يقتلون بعضنا او جميعنا . سيحاولون جرنا الى ارتكاب الاعمال الشريرة وايقاعنا في فخ الشيطان . و لكننا لن نتصدى لهم و لن نعارضهم حتى اذا ما قتلونا .

امتي !

قد يقتلون اولادنا امامأعيننا,فلذات اكبادنا الذين نعتبرهم اغلى من انفسنا. يظنون باننا لا نتحمل ذلك و نعاديهم . قد تقولون كلكم " كيف نتحمل مثل هذا الامر ؟ " ولكن رغم ان الانتقام من حقكم وانكم قد لا تحبذون الصبر لمثل هذه الحالة "

علينا ان لا ننسى مثلنا " قتل الولد ولا خراب البلد " فإذن لنتحمل الفداء ولا نجري وراء الانتقام والا فستدمر بلدتنا و يهلك شعبنا .

امتي !

اذا مهما كان الثمن و مهما كانت التضحيات علينا ان لا نتصدى لهم . علينا ان نأخذ ولدنا وندفنه بهدوء وصمت و لا نشتكي لاحد من ذلك .

نتقدم بشكوانا الى الله عز وجل فقط له فقط ... نقتل بدل ان نكون قتلة و مظلومين بدل ان نكون ظلاما . لن نفعل لهم اي شيئ في هذه الدنيا الفانية . ولكن لابد من قدوم يوم القيامة , عندها سنتعلق بجلابيبهم .

الخطوة الخامسة : التوكل و الصبر :

امتي !

لاجدادنا مقولة تقول " , اذاماكشفتعنالحقداللذيفيقلبك, فانكستخربالبلد ".

و انا اقول لكم إن اساء لك شخص ما و إن قابلته بالإسائة ايضا فانك ستكون قد خربت بلدك.

" اني اقول لكم لا تفعلوا هذا و تكشفوا عن احقادكم الدفينة و توكلوا على الله فالذي يعفوا و يحاول الاصلاح سيلقى مكافئته من الله عز وجل " .

امتي !

الاشخاص الذين تبعوا احقادهم و كشفوا عنها دمروا وطنهم يوما ما . وها انا اقولها لكم مرة اخرى :

" اصبروا و احيلوا امركم الى الله انه يعلم كل شيئ يعلم ما في صدوركم . اما بالنسبة لهؤلاء الذين يعادوننا اليوم لا نحقدعليهم و نضرهم ولا نكره احدا منهم . لنترك امرنا فقط وفقط الى الله عز وجل !...

الان اذا ما كان بينكم من لا يتحمل هذا الامر , بامكانه الذهاب . و لكن الموافقين على الامر نعتبرهم بانهم وعدونا على التحمل و الصبر . نحن ولدنا بهذا الارض وكبرنا عليهاو نموت بها و لاجلها ان استوجب الامر. لن نعيش سوى ما كتبه الله عز وجل لنا قليلا كان ام كثيرا دون اية زيادة او نقصان انه هو مساعدنا و و كيلنا . هكذا قال الشيخ زكريا .

دهشت عن سماعي اقوال الشيخ الحكيم الموجزة و المثيرة . اي مفهوم هذا يا الاهي واي قلبواسع ... انه شرف الانسانية احسست به بكل مشاعري حتى النخاع , انه عين العقل و والفداء و الحسنات و الاخلاق الحميدة و نقاء الروح و الايمان و العزم و الحكمة و الجدال و تظاهر للصبر وللاحاسيس القوية امر لا يوصف ...

حسنا هل استطاعوا انقاذ بلدهم بهذه الطريقة من الذين يوقعون الفتنة بين البلاد ويدفعون الناس لقتل بعضهم البعض دون اي ضمير يؤنبهم .

لم يقرر رؤساء القبائل بعد الهجرة و الابتعاد من الوطن او البقاء وتحمل مثل هذه المخاطر ذلك الحين و يفترق الجميع من الاجتماع للتشاور و اصدر القرار الذي يرونه مناسبا.

بعد مدة قصيرة لمتوافق سوى اربعة قرى من القرى العشرين المرتبطة بامشالاياهي قرى سيلبو و بورتو و بورا م جوكوما و تركوا قراهم و هاجروا . اما القرى 16 الباقية وامشالايا فقد اختارت طريق الصمود .

اجل امشالايا مستعدة لتسطير اجمل الاساطير الان ...

6

ذرة السودان

جولة في اطياف اللون الرمادي

" اذا كان لا كورو لاحد , فمصيره السقوط في البئر"

مثل من دارفور

عالم جميل بالوانه

اظهرت امشالايا ترجيحا ثالثا دون الموت او الهجرة لايمكن تخيلهسوىالقليلمنالناس, قد ينفع هذا الترجيح بني البشر بتذكيرهم بان هناك ارقام لا متناهية بين طيات الرقمين المطلقين, وما على الاناس الواقعين في ازمات او صدhمات سوى اختيار احدى هذه الارقام التي تناسبهم من بينها .

في الحقيقة فلابد من وجود اطياف لللون الرمادي بين الابيض والاسود في الازمات او بالنسبةلاحدى الحوادث. باستطاعتنا حتما اختيار احدى هذه الاطياف اللامتناهية واعتبارها لونا اساسيا , وبذلك نكون قد قدمنا نموذج حل مناسب للمجتمع فيما يخص الحوادث السياسية او الاجتماعية .

عندما نعتبر الازمات المزمنة التي تعاني منها البشرية حوادث اساسية هناك فبالامكان استخدام حل وسط بين الطرفين المتنازعين المطلقين المتطرفين , فما علينا سوى اخذ الامر مأخذ جد, ومناقشته و تأمين بناه التحتية بل قبل كل شيئ الايمان بانه سيكون وسيلة حل .

لن يظهر اللون الرمادي عند اصرار اللونين الابيض والاسود على موقفهما . يظهر اللون الرمادي كلما اقترب اللون الابيض من الاسود اوالاسود من الابيض , اللون الرمادي يحتوي على اللونين الابيض و الاسود فقط. وكلما كان احدهم اكثر تواجدا انحرف اللون الرمادي نحوه فقد يخف اللون او قد يغمق .

الناس عادة يرون انفسهم في الطرف المحق دائما والطرف الاخر دون حق . هذا هو السبب في تأجيج الصراعات , ولا يرغب اي طرف من القاء خطوة نحو الاخر من النقطة المطلقة التي يقف عليها.

لذا تستمر المشاحنات والمعارك سنين طويلة متسببة بآلام ومآسي كبيرة .

و سيحس كل لون بذلك في نهاية الامر. فاذا ما قضى الاسود على الابيض تماما فسيحكم عليه البقاء اسودا طوال عمره ,وكذلك اللون الابيض في حالة قضائه على الاسود فسيبقى

لونا ابيضا دون تغيير . عندها فقط يحسون ببساطة وضحالة الوانهم و حاجتهم الى جمال اطياف اللون الرمادي.

فيما عدى الهجمات الغير المشروع و الهجمات الخارجية , فان على مواطني اية دولة كانت التفكير من جديد بعمق عن اسباب حمل السلاح و الصدامات الجارية بين من و من و ما السبب و لاجل ماذا . والملايين من الابرياء الذين قتلوا دون ذنب وملايين العوائل المشردة .

عليهم قبل كل شيئ مسائلة انشائهم حضارتهمفوق اشلاء ملايين الارواح التي زهقت انامكن.

يتسائل المرء عن امكانية تأمين حياة انسانية , لمنح الملايين من البشر البؤساء المغدورين الراضين بالموت فرصة انشاء حضارتهم وإدامةمعيشتهمبتطبيق الحق و الحقوق .

اذا, فما على الاطراف المتنازعة ودون الحاجة الى ترك مواقعها خطو خطوة واحدة نحو الطرف الاخر لفسح المجال الى اللقاء بمناطق الاطياف المختلفة ومحاولة تخفيف آلام الامة وايجاد حل عادل .

رغم ان تطبيق هذه الطريقة صعب و شاق الا انه ليسالمستحيل . فعلى جميع الاطراف المشتركة بهذه الفتن و المعارك تحمل مسؤولياتها وخاصة الدولة عليها ان تؤدي واجبها لاجل الشعب وليس لاجل الدولة ... الذين يدعون بانهم يناضلون من اجل الامة : العصاء و الميليشيات مهما كانت وجهتهم و انتمائاتهم عليهم تحمل مسؤولياتهم لانهاء القتال هذه الازمة التي حصدت ارواح الملايين من البشر . دون شك فان مثل هذا الاجراء الجريئ سينقذ حياة الملايين من الابرياء , التراجع خطوة لا يعتبر جبنا بل تصرف شجاع يذكره التاريخ .

علينا الاخذ بالاعتبار تلك الارواح التي تود العيش وادامة حياتها بسلام وليس التي تنتظر العون من القتل او من الموت . على الجميع, بل على كل الذين يرغبون باحلال السلام في الارض باقل تقدير العمل على جمع الطيبين و محاولة زيادة اعداد المحبين للسلام .

الطيف الرمادي

كانت اعداد العصاة قد بدأت بالازدياد يومابعديومفي جميع انحاء دارفور, و كذلك اعداد الميليشيات . و بذلك اصبحت حياة جميع القرى و القصبات الواقعة في المناطق الجبلية والبراري البعيدة عن السيطرة والتي تحمل احتمالات مساعدة العصاة معرضة للخطر.

بدأ الجنجاويد الذين يعتبرون اكبر تجمع مدني منظم بتضييق الخناق و محاولة السيطرة على المواقع السكنية في المنطقة في محاولة لمنع المدن والقرى ايصال المساعدات للعصاة اضافة الى المراقبة .

قد تكون هذه المساعي مساعي وطنية عند بدايتها ولكنها مع الزمن انحرفت عن مسعاها و دفعت ضعاف النفوس والطامعين الموجودين فيها الى نهب القرى التي تم تفريغها بدواعي امنية و تسنموا مناصب مهمة مما تسبب في حوادث مؤسفة . وقد انتشرت الاخبار عن قرى هوجمت و تعرضت للنهب بذرائع واهية . ورغم وجود اناس في المجموعة لا يوافقون على مثل هذه الاجراءات القبيحة الا انه بالطبع ليس من السهولة منع جرائم هذه القوى المسلحة .

تسلحت اغلب القرى العربية المتواجدة حوالي امشالايا, ولم تتسلح القرى الاخرى و بقوا بالانتظار . اجتمع الشيخ زكريا مع القبائل ذات الجذور العربية خلال اجتماعاته و قام باستشارتهم و تعرف على نظرتهم . و كان الشيخ زكريا قد خاطبهم قائلا :

- كما تعرفون جميعا فإن الحرب الاهلية قد بدأت و ستصلنا قريبا . علينا اتخاذ القرار المناسب قبل ان يصلنا لهيبها . لقد عاش اجدادنا هنا مع جميع القبائل بسلام و مودة. و اني على ثقة تامة باننا جميعا نرغب باستمرار العيش بسلام من صميم قلوبنا . اذا تعالوا نعمل سوية لنستمر في حياتنا السلمية لنتركها لاطفالنا كما تركها لنا الاجداد .

اخوتي ! لابد ان ينال الظالم والذي يسيئ للاخرين جزاء عمله . كما يلقى المحسن والذي يتصرف بعدالة مع الاخرين مكافئته حتما. اما نحن فما علينا سوى اختيار احد الدربين اما اتباع اوامر الله عز وجل او اتباع الشيطان .لنفكر من الذي سيكسب في نهاية الامر !.

اخواني ! لا تفضيل للاسود على الابيض و لا العربي على العجمي او الشمالي على الجنوبي . الكل سواسية كأسنان المشط . لقد منع الله جل وعلا التفرقة القومية و القبائلية . المفضلون عند الله هم فقط العادلون و الذين اتخذوا موقفهم مع الحسنات .

لقد عاش اجدادنا وابائنا في هذا المكان اخوة و هكذا نعيش نحن هنا الان . لقد ولع بعض جهلتنا نار الفتنة و اوقعوا النفاق بين الاخوة . علينا اتخاذ الحيطة والحذر لكي لا ننجر لهذه الفتنة بل على العكس علينا محاولة اطفائها .

اني اقول لكم , علينا الابتعاد عن حسد الاخرين , وان لا نعادي احد ابدا , و لا نفرق بين القبائل وننحاز لقبيلتنا . لنعش بسلام كما عاش اجدادنا ...

اعلن رؤساء القبائل العربية التي استمعت للشيخ زكريا عن تأيدها لاقواله قائلين :

- اجل , لقد تسلحنا نحن للتصدي للاخطار المحتملة . لقد تهيأ اغلب افراد قبائلنا للتصدي للتهديدات . ولكن, ولانك شاورتنا في الامر و اخذت ارائنا مأخذ الجد وانت تبحث عن طريقة للعيش بسلام . فاننا اذا لن نسمح ايضا بتدمير بلدتنا .وسنبذل قصارى جهدنا ودعمنا للعيش بسلام و مودة وسنكون حماتا لهذا البلد .

تحدث على اثرها الشيخ زكريا وكبار روساء القبائل قائلين ,

- ان دعمكم و وارادتكم لحماية السلام والمودة امر يستحق التقدير الاكبر . اذا , نحن القبائل التي اتخذت من المنطقة وطنا لها نتعهد بان ندعم حمايتكم لنا وان نلبي جميع احتياجاتكم التي كان اجدادكم بحاجة اليها .

اعلان القبائل من الاصول العربية اتخاذها موقفها مع القبائل المحلية و تعهدها بالحماية كانت ستحقق لامشالايا مكسبا كبيرا حيث يساهم هذا التوحد بصد الجنجاويد كما انه سيفسد ادعاءات البعض بان القبائل المحلية ترفض القبائل العربية .

لم يكن لاهالي امشالايا القدرة على تقدير مستقبل مدطقتهم و ما الذي سيلاقونه و ما ستفرزه الحرب الاهلية عند انتهائها. الظاهر انهم قد قرروا تحمل الصعاب و المشقات واختاروا حلهم . لقد كانوا يؤمنون بانهم قد اتخذوا القرار الصائب وانهم سيقضون على السيئات بالحسنة. لقد كان عليهم الكثير من الفداء وتحمل آلام لا نهاية لها .

قد لا تتخلص امشالايا من هذه الاوضاع المبهمة والخطرة وقد تتعرض الى اوضاع اكثر خطورة مما وقع بها اخوانهم. لم يكن احد يدري بذلك سوى العلي القدير .

1 – الطيف الرمادي : الجزية

كان الجنجاويد يبدون اهمية كبرى للاموال و الغنائم. تم معرفة هذه الصفة المهمة و تجهز لها شيوخ قبائل ام شالايا نفسيا و استراتيجيا .

بعد فترة من الزمن دخلت قافلة من الجنجاويد التي كان يتوقعون حضورها لامشالايا. و تم استقبالهم في ساحة المدينة من قبل وجهاء امشالاياالمتسائلين .

- ما الذي تطلبونه منا؟

- العصاة الذين ينوون تقسيم و طننا يحصلون على دعمكم و دعم القرى التابعة لكم .انهم يريدون الاستقلال , لاجل هذا تسلحوا و هاهم يحاربون .وعند نجاحهم بتقسيم الوطن سيعينون قبائلهم رؤساء لنا و يقضون علينا . لا يمكن لنا السماح لهم بذلك . سنحارب كل من يدعمهم أي كان . وانتم منهم . سنسمح لكم الان بالهجرة من المنطقة . اذهبوا من هنا قبل ان يحل عليكم بلاء كبير .

لقد كان من الصعوبة اقناع هؤلاء ذوي العيون الدموية الواقفيناامامهم, الذين نسوا اخوتهم و هاهم يكتوون بنيران الحقد و الطمع , لقد كانت هناك صعوبة في اقناع هذه المجموعة الكبيرة.

في الحقيقة فان هذا اللقاء كان الاصعب . كان مستقبل امشالايا مرتبطا بهذا اللقاء. فإن لم يستطيعوا اقناع الجنجاويد فستغرق امشالايا بالدموع و الدماء . اما في حالة نجاحهم باقناعهم فستعتبر الحادثة اول خطوة نحو سطر اسطورة .

يبدأ رؤساء القبائل و شيوخ القبائل الحديث قائلين :

- لم تتصرفون معنا بهذا الشكل ؟ انكم تعرفوننا وان كان بينكم من لا يعرفنا فان هناك بينكم من يعرفنا حتما . اسألوهم عنا .
نحن اناس مسالمون لا نضر انفسنا و لا نضر الاخرين , سوف لا نحاربكم ولا نحارب الاخرين.نحن لانريد سفك دماء الاخوة و تهجير البشر من اوطانهم . ونظرا لاننا لا مشاكل لنا معكم فمن الضروري ان لا تكون لكم ايضا اية مشاكل معنا. نحن اناس من قبائل مختلفة نعيش هنا سوية , وانتم على علم بهذا. الفور و المساليط و الزيغاوة و التيما ... كلنا نعيش هنا ونقول لكم ذلك .نحن ضد سفك دماء الاخوة .

بعدها استلم الشيخ زكريا الكلام قائلا :

- اعلموا جيدا , نحن لن نترك ارضنا ونهاجر .لقد ولدنا هنا و نمونا هنا ونموت هنا , ان دورنا و مزارعنا و عوائلنا و ماضينا كلها هنا , شرين حياتنا ينبض هنا . نحن لم نتسبب باي ضرر لكم او للاخرين ولن نتسبب ايضا بعد الان .
نحن في وطننا نرغب بالعيش فوق ترابنا بسلام و انسانية . وها انتم ترون بان جميع رؤساء و مسؤلي القبائل كلهم هنا , العرب و الفور و الزيغاوا و التيما وكبار القبائل الاخرى .اننا جميعا نطلب السلام هنا وكلنا نتقاسم الرأي .
نحن لسنا مع اي طرف في الحرب , ولاجل اثبات حسن نيتنا اخبرونا عن طلباتكم فإن كنتم تريدون جمالنا فهذه جمالنا وان كنت تريدون خيولنا فها هي الخيول , اما اذا كنتم تطلبون مواشينا الكبيرة منها والصغيرة فها هي قطعاننا نقدمها لكم واذا ما كنتم

تطلبون منا ذرة او سكر او الزيوت او اية اموال اخرى اطلبوها منا لنقدمها لكم ونتقاسمها .

هذا الصمود الباهر اذهل الجنجاويد و ادهشهم .و بدأو بمناقشة الامر فيما بينهم .فبينما طلب البعض منهم بعدم الاستماع الى اقوال رؤساء القبائل لانهم جميعا من العصاة و يجب التهاون معهم لانهم سيولدون المشاكل غدا او بعد غد عليه لا يجب اتخاذ القرار فورا . اما القسم الاخر من الجنجاويد فقد قالوا بانه لا يبدوا على هؤلاء بانهم سيدعمون العصاة وان وضع اليد على اموالهم الان يعتبر الحل الافضل انهم على علم بانهم تحت المراقبة وفي حالة ارتكابهم اي خطأ سنستطيع التدخل متى ما ارادنا ذلك .

بعد ان انهى مسؤولي الجنجاويد النقاش الدائر فيما بينهم ابلغوا عن قرارهم قائلين :

- لن نمسكم بسوء هذه المرة . و سننسحب دون الاضرار بكم و لكننا لن نغفر لكم اي خطأ مهما كان صغيرا . اعلموا ذلك ! .

انها المرة الاولى التي يقابلون فيها اناسا يقدمون اموالهم عن طيبة خاطر , دون ان يتعرضوا لاي اذى وضغط . عوملوا كبشر وصورة معقولة و استمعوا الى اسباب محقة , دون خوف و وجل وقفة صامدة ذكية , يعرفون ما يقولون , استمعوا الى اقوالهم التي اثرت عليهم بدقة .

الجنجاويد الذين ذهلوا لهذه الحكمة و التصرف المنقذالذي كسر حدتهم و ازال غضبهم و شدتهم . في الحقيقة فانهم قد تأثروا جدا من هؤلاء القوم وسحقوا تحت وطأة وقفتهم . لقد تفوق عليهم سكان امشالايا نفسيا .

نجحت امشالايا في اول خطوة من استراتيجيتها . و اقتربت منهم بطريقة لم يكونوا يتوقعونها و استفادت من عجزهم . وبينما كانوا يتوقعون ضربة كبيرة من العدو انزلوا هم الضربة القاضية ليفسدوا اللعبة .

حال ما سمع الشيخ زكريا قرارهم طلب من شيوج و رؤساء قبائل ام شالايا جلب الاموال التي جهزت في اجتماعهم الاول . جلب بعدها الشيخ زكريا و رؤساء القبائل الابل و الخيول و قطعان الماشية و اكياس الذرة و السكر .وقاموا بتسليمها للجنجاويد .

لقد نجوا هكذا من الخطر الاول و الاكبر الذي كان يهددهم . ولكن هذا لا يعني بانهم تخلصوا من البلاء و التهديدات. لم يكن احد منهم يتوقع تصرفات الجنجاويد بعد ان يعودوا الى رشدهم جراء الصدمة .هناك البعض من الجنجاويد لم يوافق على الامر معتبرا اياه خطأ وقد يشكل البعض من افرادهم خطرا كبيرا على امشالايا. لذا فان على سكان امشالايا اتخاذ الحيطة والحذر دائما. ستستمر الهجمات التي بدأت عام 2003 بعد ذلك دون انقطاع عامين اخرين.

2 – الطيف الرمادي : الاعتداء و الردع

لقد انشأ الجنجاويد شمالي امشالايا مقرا لهم , واجتمع الالاف منهم هناك بعض الاحيان . تحول المقر الى اهم مقر للجنجاويد في منطقة دارفور الغربية واصبح مركزا مهما لتحركاتهم . وكان المئاة منهم بين الحين والاخر يقومون بهجمات يمتطون الخيول و الابل يمرون عبر امشالايا وقراها .

يعيش اغلب سكان امشالايا مثلهم مثل سكان دارفورعلى الزراعة وتربية الحيوانات . وحالما بدأت الحرب الاهلية اصبحت عملية تربية الحيوانات بلاء ومصدر مصائب كبيرة .

اغلب الجنجاويد من الرحل يعيشون على تربية الحيوانات . تربية الحيوانات هذه مهنتهم الوحيدة . انهم ميالين لامتلاك الحيوانات الاهلية الكبيرة منها و الصغيرة . لقد حصلوا على كميات لا باس بها من الحيوانات من المدن والقرى التي نهبت والتي هجر سكانها .

قد يكون هذا السبب الرئيسي لابتعاد سكان امشالايا من تربية الحيوانات.

لاجل هذا اجبر عدد غفير من الاهالي على امتهان الزراعة لادامة معيشتهم . وهكذا اصبحت الذرة مصدر الغذاء الاهم لشعب دارفور . وكما اننا نعتبر القمح غذائنا الرئيسي الاهم و سكان الشرق الرز فهنا في دارفور اعتبرت الذرة بمنزلتهما .

كانوا يستخدمون الذرة بهذا الشكل عادة :

الذرة التي قد نسميها الذرة البيضاء تطحن وتحول الى طحين ومن ثم توضع في قدر فوق نار ويضاف اليها الماء وتخلط هكذا الى ان تصبح عجينة . ويتم تجهيز طعام مرق من الباميا او الباقلاء او اية خضار و قد تحتوي على اللحم حسب قدرة العائلة . توضع عجينة الذرى في اناء والمرق في اناء اخر و تقدم بهذه الطريقة . وهكذا يتم استقطاع قطعة من عجينة الذرة باليد و تغمس في المرق و تاكل هكذا دون استخدام معالق . بهذه الطرقة فقط تحول لقمة الذرة الى طعام يمكن تناوله . ويكون بالامكان ابتلاع العجينة التي تستخدم كقطعة خبز مع المرق, ومن المستحيل تقريبا تناولها لوحدها .

من الصعوبة تناول هذه العجينة اللاصقة التي يسمونها " العصيدة " والاستسياغ بطعمها . كما يسمون المرق " مولاح ".

اغلب سكان امشالايا يجنون محاصيلهم عدة مرات في السنة. يبداون بزراعة محاصيلهم حالما يبدا موسم الامطار في شهر يونيو , و تموز و اغسطس و سبتمبر التي تعتبر موسم

الامطار . ويقوم البعض منهم بزراعة الذرة و الدخن و البعض الاخر يزرع فستق الارض . ويتم جني المحاصيل عادة في اشهر نوفمبر و ديسمبر.

يقوم السكان بتخزين الكميات التي يحتاجونها وبيع الكميات الزائدة في الاسواق ليشتروا بثمنها السكر و الزيت و احتياجاتهم الاخرى . متوسط ما تحصل عليها عائلة مكونة من اربعة او خمسة اشخاص تتراوح بين 100 – 300 دولار سنويا . و من الصعوبة جدا ان تستطيع العائلة تمشية امورها بمثل هذا المبلغ البسيط .

هذا المبلغ الذي حصلوا عليه لا يكفيهم عادة .لان احتياجاتهم ليست عبارة عن الطعام فقط. فانهم بحاجة الى الملابس و ادواة الطبخ وادوات منزلية اخرى واذا ما كان عندهم اطفال يذهبون الى المدارس فهذه تكلفتها اكثر.لذا فان كل حبة ذرة لها اهمية خاصة عند سكان امشالايا .

و عندما كان مئاة الجنجاويد الساكنين في المقر يودون الذهاب الى مكان ما ولاجل ان يكونوا قريبا المصادر المائية لارواء حيواناتهم فانهم كانوا يمرون عبر حقول واماكن سكن امشالايا وقراها . كانوا يدمرون مئاة الفدادين من المزارع خلال مرورهم بها. ولانعدام مركز للشكوى كان السكان يرضخون للامر و يحاولون ادامة حياتهمبماتبقى من محاصيلهم .

لم يكن الامر بهذا القدر فقط , فالاف المواشي والابل الكبيرة منها والصغيرة التي يمتلكها الجنجاويد كانت غالبا ما ترعى في مزارع امشالايا وقراها دون ان يستطيع احد ردعها ولم يكن رعاة الجنجاويد يحترمون المزارع عند ورودهم بحيواناتهم الى مصادر المياه عبر المزارع و يتسببون في تلف مئاة الفدادين من المزارع ايضا .

هذه المزارع التي تشكل شريان حياة سكان امشالايا كانت غالبا ما تسحق باقدام الخيول والابل و الابقار والمواشي وكانت مزارعهم التي ينتظرون جني محصولها بشوق تتلف يظن المرء بان قطيع جراد غزتها . لم يكن لهؤلاء الناس اية قدرة على الاعتراض وما كان عليهم سوى الصبر و التقاط ما يستطيعون الحصول عليه من بقايا المزارع للعيش.

سنتان عجاف مرتا وامشالايا بهذا الوضع... لقد كانوا في حالة صعبة لا يستطيع البعض منهم الحصول على" المولاح " ولا حتى على " العصيدة ". لم تكن لهم القدرة على الحصول على " العصيدة " التي يصعب ابتلاعها . كان هناك من يمتلك الذرة ومن لا يمتلكها وكانوا يتقاسمونها فيما بينهم .

كانوا شركاء في الالم وكان عليهم ان يبقوا شركاء في النصر ايضا . كان عليهم جميعا التكاتف فيما بينهم و عدم اليأس , وهذا ما حدث ...

3 – الطيف الرمادي : النهب و الهزيمة

اذا ما كانت دولة ما تعيش حربا اهلية و ليست هناك قوة دولة رادعة تحقق الامن وطالما هناك قوى تمتلك الاسلحة دون الاهتمام بانحيازيتها فمن المستحيل منع اعمال النهب و الظلم والهزائم . ومن غير الممكن السيطرة على مئاة بل الالاف من المسلحين في حالة الفوضى .

قد يضطر هؤلاء المسلحون صباح احد الايام الى استخدام الشدة بذرائع وهمية . و يبتعدون منها بعد فترة قصيرة جراء شهوة العنف والسلاح, يتناسون مع الزمن اهدافهم التي بدأوا بها ويبداون باعتبار انفسهم اصحاب المنطقة و حكامها المطلقون .

في الحقيقة اتخذ هؤلاء المسلحون دورهم في بداية الامر مخاطرين بارواحهم . وقتل كثيرون منهم لاجل هذه الغاية و جرحوا واصيبوا بعاهات . لم يكن اي من هؤلاء ماكنة ما كما انهم كانوا بحاجة الى المال اكثر من المستوطنين , وكان على عاتق اغلبهم عوائلهم التي يتحملون مسؤلياتها بعيدين عن الحياة العائلية يعيشون في المخيمات او في العراء . انها ضريبة الحياة المعرضة للخطر و لابد ان يكون هناك ما يقابلها .

لقد كانوا بحاجة الى النقود لاجل الطعام و الشاي او لتدخين السكائر او للهو او لشراء وقود للسيارات , لاجل شراء السلاح لاجل ارسالها لعوائلهم و لتلبية كافة متطلباتهم . من الذي كان سيعطيها لهم ومن الذي سيوفيها عنهم . من المستحيل تنفيذ طلباتهم هذه بمبالغ قليلة , فاذا ما انتهت حالة الفوضى هذه بمدة قصيرة فان هذه التفاصيل قد تنسى دون ان تؤثر على اي احد منهم و اذا ما عاد المقاتلون الى ديارهم دون ان يدري بهم احد فستنسى الطلبات ولن يفكر احد بالارباح او الخسائر . اما اذا ما طالت الحرب و استمرت سنين فان الاحتياجات ستزدات و تكتسب قيما كبيرة , عندها لن يكون بمقدرة المقاتلين الذين لا يجدون مرجعا لتنفيذ احتياجاتهم هذه ليبداوا تصرفاتهم الفردية ويعتبرون ذلك حقا مشروعا لهم مع مرور الزمن .

عندما يبدأ المقاتلون باستحصال قيمة مستحقاتهم بانفسهم عندها تتعمق حالة الفوضى اكثر فاكثر . و تتغير حالة " الواجب " التي ينفذونها الى حالة " الصلاحية ". ليبدأوا بعدها بالتفكير بان اداء صلاحياتهم اصبحت واجبا عليهم . هذه هي النقطة الحساسة لتبدأ منها حالة الحلال و الحرام . بما يعني بالمختصر بانهم سيرون انفسهم بانهم هم العسكر و هم الشرطة وهم الموظفين بل سيعتبرون انفسهم بانهم هم الدولة بذاتها : ينتظرون الولاء و الطاعة سواء كانوا على حق او بدونه كما تطاع الدولة.وبما ان الدولة تستخدم القوة عند الحاجة فانهم يستخدمونها كذلك .

في مثل هذا النوع من الحروب الاهلية يقوم الاهالي بتمويل احتياجات و جهود المقاتلين عادة . يقوم بها المقاتلون بجمعها بانفسهم , لاجل الاهالي ورغما عنهم , يستلمون حقوقهم من اموال الاهالي . اي مقاتل يصل لهذه المرحلة لا يستطيع التصرف بصورة اعتيادية بينما لا يرغب الاهالي بتسليم اموالهم بسهولة . هذا الوضع يدفع الى زيادة شدة المعارك واعداد القتلى والامر من ذلك يزيدها تعقيدا .

لاجل هذا السبب فمهما كانت الجهة التي تؤيدها في دارفور كانت الفرق المسلحة المتنازعة مجبرة بالضغط على الاهالي واتخاذ قرارات ضدهم دائما . يدوسون على الاهالي ويقتلون بعضهم البعض باسم الاهالي , يحصلون ضريبة القتال المادية والمعنوية من الاهالي مع الزمن وقد يكونون يقومون بذلك دون وعي . هذا شكل واحد فقط من بين الكثير من الامثلة .

كان البعض من الجنجاويد الغير المنضبطين يقطعون الطرق و يسلبون الاموال و وسائط النقل ويقومون ببيعها لعصاة (تورو بورو) المتواجدين في الجبال . ورغم ان العصاة كذلك يدعون بانهم يحاربون من اجل انقاذ المواطنين الا انهم كانوا يشترون اموال الاهالي المسروقة عن علم . لقد كان للسارق و الذي يشتري المسروقات تبريرات محقة حسب اعتقادهم حتما ولكنهم في الحقيقة يسرقون الاهالي مسببين لهم اكبر الاضرار . رغم كل هذه التناقضات فان كلا الطرفين كانا يدعون دفاعهم عن الشعب باصرار .

عاشت امشالايا مثل هذه الحالة وحالات كثيرة اخرى . لقد كانت المناطق التي يدخلها الجنجاويد تشهد معارك ضارية عادة و يرفض السكان منحهم الاموال و القطعان بسهولة . وكانت بعض القرى تخرب وتهدم تماما . في الحقيقة فان موضوع تهجير هذه القرى والمدن كانت من صميم الخطة التي تسببت في نشوب هذه الحرب .

كان الجنجاويد يزورون امشالايا و قراها بين فترة واخرى دون تحديد لاجل نفس الهدف يأخذون احتياجاتهم و حيواناتهم ويستمرون في طريقهم . وكان السكان يلبون مطاليب هؤلاء دون اي اعتراض او تصدي .

كانوا يظنون في بداية الامر ان هذا الوضع مؤقت . وان الاهالي سوف لن يتحملون الضغط حتى النهاية و سيقاومون حتما. قد يكون هؤلاء قد نجوا من الخطر في بداية الامر ولكن مصيرهم سوف لن يختلف عن مصير الاخرين و سيتركون ديارهم حتما ليهاجروا . هكذا كان يفكر الجنجاويد باطمئنان .

مرت الاشهر ولم يغير سكان امشالايا تصرفاتهم ولم يظهروا اي اعتراض او تصدي . قام الجنجاويد بزيادة حدة البعض من هجماتهم و زادوا كميات نهبهم . لم يبقى امامهم سوى

سحق المزارع والبساتين التي كانوا يدخلونها اضافة الى نهبهم الدور . لم يعترضهم على افعالهم هذه عدى افراد قليلون جدا .

كان الاهالي يطبقون قرار رؤساء القبائل عادة وكانوا يساعدون المهاجمين في نهب اموالهم بل كان البعض منهم يساعدهم في ايصالها لهم .

4 . الطيف الرمادي : الجريمة

لم يقتل احد من سكان امشالايا .

لقد عاشوا الكثير من الظلم والاضطهاد حتى ذلك اليوم : لقد نهبت اعداد كبيرة من قطعانهم و دمرت الكثير من اموالهم و ممتلكاتهم واصبحوا فقراء و لكنهم رغم هذا لم يحكم عليهم العيش في المخيمات , صمدوا في وطنهم وفي مساكنهم .

لم يقتل احد منهم ابدا . و رغم تحملهم الكثير من المصاعب و الويلات الا ان احدا لم ينجح حتى الان في طردهم من الديار ةهاهم يحلمون الامل في مستقبلهم .

كان بين الجنجاويد من لم يتحمل هذا الوضع و يستشيط غضبا لعدم ارضاخ هؤلاء. لم تكن لهؤلاء القدرة على معارضة زعمائهم ولكنهم لم يكونوا تقبل هذا الامر. ظنوا بان سكان امشالايا سيملون من الضعوط و اعمال النهب و سيتركون اراضيهم ليهاجروا حتما . ولكن امشالايا لم تمل واستمرت في تصديها و تحملها رغم كل شيئ. كان عليهم ايجاد مخرج. لقد حان وقت زيادة الضغط بل فات وقت ذلك .

ونظرا لعدماستطاعتهم على ذلك رغم الاضرار الاموالهم و الممتلكات ونهبها و استفزازات السكان فما كان امامهم سوى البدء بقتلهم وبث الرعب والخوف في قلوبهم. كان عليهم القيام بذلك بصورة جماعية و الاخلال بالقرارات. اذا هناك امكانية ترتيب هجمات بين الحين والاخر والبحث عن الحجج لقتل البعض " في حالة عدم قتلنا هؤلاء فاننا لن نستطيع اجبارهم على الهجرة والرحيل " هذه كانت فكرتهم .

قاموا بهجماتهم ليلا ونهارا دون اية تفرقة سيدخلون البيوت في اي وقت و يغيضون السكانويقتلونهم بحجج واهية . وبعد قتلهم خمسة او عشرة اشخاص سيفكر الباقون بانهم سيلاقون نفس المصير عندها سيبدأون بالهرب .

كانت امشالايا تتجهز ليوم جديد.كانت ربة البيت الحنونة امينة قد اشعلت النار لتجهز العصيدة بعد ان طحنت الذرة القليلة المتبقية في اسفل الكيس لتفرغها في قدر الالمنيوم المتعوج الاسود واضافت عليه الماء وتقوم بخلطه . كانت قد قامت بتنظيف و تقطيع النباتات

البرية التي جمعتها لتضيفها الى العصيدة التي استوت وقدمتها بهذه الصورة تتجهز لصنع المولاح. عندما كانت ابنتها الشابة تغسل الملابس بشطت في احدى زوايا باحة الدار وهاهو الطفل الصغير يلعب بالرمال .

رب البيت احمد مشغول باطعام حصانة و عنزتيه الهزيلتان. عندما سمع اصوات حوافر خيول ظانا بانها ضوضاء الشبان الذاهبين الى السوق. ولم يعر الامر اي اهتمام .

- يتصرف هؤلاء الشبان في بعض الاحيان بتهور و طسش ناسيون بان هناك الكبار بالسن او المرضى . نحن ايضا كنا هكذا عندما كنا في اعمارهم لم نكن نفكر كثيرا . كنا نحاول تنفيذ كل شيئ يخطر ببالنا فورا. هكذا تحدثت زوجته ,
- اجل , يقولون بان الشباب و الجنون اخوة .لقد اصبحوا اليوم لا يرغبون باللعب جراء الاخبار السيئة التي يسمعونها كل يوم . دع الامور كما هي , الا ترى انهم لا يعيشون شبابهم . اضافة لذلك فليس في محلتنا من يتزعج من هذا , اجابها احمد بعد اكمالها الحديث :
- انت اصلا لن تسأليهم عن الذي يفعلونه مهما فعلوا حتى لو هدموا الحي . اننا نمر باوقات عصيبة , لا نعرف ما الذي سيصيبنا غدا . الشبان مجبرون على ان يكبروا مبكرين و ينضجوا باسرع ما يمكن . وان لم يفعلوا ذلك سينهارون عند اول مصيبة تصلهم . قالها منتقدا زوجته . وما ان امل حديثه ليرى الجنجاويد مع اسلحتهم يهمزون خيولهم نحة باحة الدار . قلبت زوجته قدر العصيدة في ردة فعلها ومخاة دهسها و هرب الطفل الصغير نحو امه باكيا و مرعوبا |, اما الفتاة رمت الطشت و تجهت نحو امها مهرولة .

عندما اتجه احمد نحو الجنجاويد بذهول كان احدهم يفتش الدار ليرى الاشياء التي بالامكان نهبها . واتجه اخر نحو حصان احمد الجميل والمعتنى به. كان قد اضحى بمبلغ كبير لشرائه قبل بدء الحرب الداخلية. كان يستخدم حصانه في جميع اعماله تأخذه الى الحقل و الى السوق والى زياراته كان يربط به العربة ويحمل بها العائلة ايضا. لقد اصبح الحصان كل شيئ في حياته و عمله واصبح مصدر رزق له و لعائلته اصبح حبيبه بل كل شيئ .

وما انرأى احمد توجه الجنجاويد نحو حصانه قام بحملة لا ارادية سقط على ظهره اثر اصابته بضربة على ظهره. منعت زوجته عند محاولتها الذهاب نحوه . بقيت مع اطفالها يعيشون حالة خوف و رعب . وفي لحظة سقوطه على الارض تذكر فطن احمد على قرار رؤساء القبائل وهدأ قليلا ,

- ما هذا الذي فعلته! انني اضع عائلتي و امشالايا في الخطر . علي الصبر .

من جهة اخرى قام بحملة لكي لا يفرط بحصانه عندما تلقى ضربة في الرأس . وبدأت زوجته واطفاله بالنحيب و البكاء . الجنجاويد الذي لم يفلح في حل رباط الحصان قام على قدميه بعصبية بالغة لا نعلم هل كانت بسبب عصبيته ام من عجزه عن حل الرباط ولوجه سلاحه نحو الحصان ويفرغ الرصاص عليه .

حصان احمد الجميل الذي يشبه الغزلان سقط بكامل جسمه خلال لحظة واحدة بعد رجفة قصيرة , احس احمد بان الاطلاقات اصابت جسمه وليس جسم الحصان . حاول الوقوف ولكن اقدامه ضعفت عن حمله , انه لم يكن في وعيه . اختلطت الدماء التي تنزف من راسه مع الدموع المنهمرة من عينيه يزحف نحو الحصان من جهة وصرخ من جهة اخرى.

- لم قتلت الحصان قل لي لم قتلته كنت ساحل رباطه واقدمه لك . للاسف الشديد , لقد جنيت على مثل هذا الحصان الجميل ؟ لو قلت لي طلبك لكنت حللت رباطه وسلمته اياك . كانت اقواله هذه تخرج من فمه كهذيان .

من جهة اخرى حالما شاهدت أمينة توجيه جنجويد اخر سلاحه نحو احمد قفزت نحوه سمع معها صوت يماثل صوت الرعد لترمي باحمد الى الارض كما رمي حصانه. بعدها امتطى الجنجاويد خيولهم واختفوا من هناك ...

لم يكتفي زوج بنت الشيخ زكريا وشلته بقتل احمد بل قتلوا اربعين او خمسين اخرين متحججين باسباب واهية لم يلاقوا فيها اية اعتلاضات او تصدي او عصيان . لم يلحق اهل امشالايا القتلة و لم يلقوا كلمات الانتقام . دفنوا اولادهم بصمت وسكون .

لم يجري هذا الامر مرة واحدة او عشرة مرات ورغم مقتل العشرات قاموا بدفن موتاهم بهدوء وصمت واستمروا في تطبيق نفس الاستراتيجية رغم كل شيئ .

لقد علموا جيدا بانهم لايمكن لهم ارعاب اهل امشالايا. كان عليهم قتل الجميع او القبول بالفشل...

5 . الطيف الرمادي : العجز

منذ ان بدأت الحرب الداخلية عام 2003 استمرت اعمال الاعتداءات و الارعاب و القتل و النهب دون توقف . ورغم تحمل سكان امشالايا هذا العذاب طوال سنتين الا انهم لم يهاجروا . لم تكن هناك اية ادلة عن نيتهم ترك البلاد والهجرة , تحملوا كل شيئ ولم يعارضوا السيئات رغم كثرتها . صبروا على الجوع و الفقر وعلى الالام والبلاء . لم يتغير موقفهم ولم

يترددوا في الاستمرار بموقفهم مما دفع الجنجاويد الذين طيقوا كل شيئ لارهايهم الى الجنون .

سألت الشيخ زكريا :

- الم تشتكوا من هذا الظلم ومن هذا العذاب ؟
- لمن نشتكي ؟ شكوانا الى الله , لقد شكوناهم الى الله .
- حسنا , الم يقاومهم احد ؟ كيف استطاع الجميع تحمل هذا العذاب ؟
- نحمد الله على تحمل الكثير من مواطنينا . فلولا ان يمنحنا ربنا السكينة لما كنا تحملنا. لم يحاول اي من المواطنين الانتقام من القتلة حتى عندما كانوا يقابلونهم في السوق . لم ينتقم منهم احد سوى الذين دافعوا عن عوائلهم .

لقد عرفوا اخيرا بان امشالايا لن ترضخ بسهولة . لم يبقى امام الجنجاويد سوى حل واحد : هجوم شامل على سكان امشالايا ! حيث يهرب الذي يهرب ويقتلون البقية المصرة على البقاء . ولكن هناك مشكلة فان قتل جميع سكان امشالايا يبدوا غير ممكنا بالنسبة للجنجاويد.

اهالي امشالايا ليسوا متشكلين من قبيلة واحدة هناك 20 – 30 قبيلة مختلفة يعيشون سوية .القبائل الافريقية المحلية امثال الفور و زيغاوا و المساليط و التيما و هناك قبائل عربية تعيش هنا وكلهم في حالة تعاون مشترك . فاذا ما قاموا بهجوم شامل فلت يستطيعون التمييز بين القبائل . اما محاربة الجميع فهذا ليس بالقرار السهل الذي بالامكان اتخاذه . والمدينة ليس بالصغيرة اصلا , امشالايا مدينة يسكنها خمسة عشر اة عشرين الف شخص . ؤ يبلغ عدد سكانها مع قراها الخمسين الف نسمة .

عندما نأخذ جميع هذه الامور بنظر الاعتبار نرى ان الوضع غير ملائم للجنجاويد الذين يتوقون للقيام بهجوم شامل البتة . من جهة اخرى فقد بدأ الجنجاويد بالتفكير مع الزمن بان سكان امشالايا اناس مسلمون حقا و لا يمكن ان يصدر منهم امر سيئ . و ظهرت بينهم خلافات حادة فيما يخص امشالايا.

لقد انقسم الجنجاويد المتكونين من عنصر واحد الى قسمين لاول مرة لاجل امشالايا . البعض منهم يفكر بانهم قدموا تعويضات بما فيه الكفاية لامشالايا و ان الوقت قد حان للقضاء عليهم . و رغم ان المفكرين بهذه الطريقة قلة الا ان اصواتهم كانت تثير الكل . و في الجهة الاخرى كان البعض يفكر بان اهالي امشالايا اناس مسالمون و طيبون لا يضرون احدا ويجب تركهم بحالهم . كان الجنجاويد لا يجدون حلا لذلك رعم كل قوتهم و سيطرتهم .

لقد اخرج اهالي امشالايا اعدائهم من اللعبة بتطبيق الاستراتيجية الحكيمة دون استخدام اية اسلحة .

6 . الطيف الرمادي : القرار

و بينما يتناقش الجنجاويد في الامر اياما عدة دون العثور على حل مناسب . انهم لم يروا اي تصرف عدائي و مقاومة من هؤلاء الناس رغم مرور الزمن . لو حدثت بعض الامور التي تحدث هنا في مكان اخر من افريقيا او دارفور لجرت الدماء سيولا . لم يكونوا يتدخلون حتى عند مشاهدتهم مقتل اولادهم في السوق ولم يهاجموا او ينتقموا .

احد رؤساء قبيلة في امشالايا يشرح الامر قائلا :

- عند اغتصاب المهاجمين خمسة او عشرة من ابقارنا كنا لا نعترضهم , اجل ... و نتمنى من الله عز وجل ان يبارك في ذرية الابقار . ونامل ان نجد ابقارنا في الاخرة و قد اصبحت قطعانا .

وتحدث رئيس قبيلة اخرى قائلا :

- ان الذين يؤذوننا ويسببون لنا الاضرار يضرون انفسهم في حقيقة الامر دون علم بذلك .نحن سنحصل على ما فقدناه عاجلا كان او آجلا . مع انهم بقتلهم ايانا يزيدون من حياتنا , و يقتلون انفسهم . انهم يفقدون انفسهم و عوائلهم الى الابد و لكنهم لا يعون هذه الحقيقة ...

ونظرا لان اهالي امشالايا على علم تام بانهم سوف لن يلاقوا حسابهم في هذه الدنيا ويأملون ذلك في الاخرة مما يدفعهم الى الصبر .

تصرف سكان امشالايا بهذه الطريقة بدأ بازعاج ضمائر البعض من الجنجاويد . وبدأت اعداد الذين يؤمنون بانهم يقتلون الابرياء و الناس الطيبين بالزيادة . وانهم يجولون في اسواق امشالايا , يتنزهون و يأكلون ويشربون ويتسوقون بامان . لا يتعرض لهم احد بسوء و لا يعارضهم ولا يمنعهم اي كان واسلحتهم على اكتافهم . انها المدينة الوحيدة في المنطقة التي يدخلونها و يتسوقوم منها مرتاحين . في الحقيقة فان تدمير امشالايا كان سيضرهم اكثر. انهم يقيمون علاقاتهم مع هؤلاء الناس كما كانوا في الايام الخوالي دون اية معاداة يستطيعون الجلوس للتحدث في المقاهي دون رادع بل لهم القدرة على ممازحة بعضهم البعض رغم الحوادث التي حصلت .

من الصعوبة جدا العثور على مثل هؤلاء الناس ومثل هذا الوسط الامين المسالم .

كان على الجنجاويد اتخاذ القرار الصعب . هل سيستمرون في ظلمهم و عذابهم ام عليهم الاستسلام للواقع .

7 . الطيف الرمادي : لا اسود , ولا ابيض ...

لم تؤثر اعمال القتل و الظلم و النهب و الضغوط على سكان امشالايا . ارادتهم القوية كالصلب دفعت صفوف اعدائهم الى التفتت امامهم .

لم تكن النتيجة ستتغير مهما زادت حدة هذا الظلم . لم تهز الاهالي اية حادثة كبيرة او صغيرة منذ ان بدأت قبل سنتين ولن يتغير الامر و لن تخمد عزيمتهم . موقف مشرف و صامد لا يتنازلون عنه .

لقد ادب اهالي امشالايا اعدائهم بالحسنى . و هاهم يحصلون على احتلامهم . رفضوا الهجرة رغم ما لاقوه من العذاب و المذلة , لقد اقترب موعد تلقين اهالي امشالايا درسا للجنجاويد بالحسنى لا يمكن لهم نسيانه .

بعد سنتين تقريبا من بدء الحوادث قام احد رؤساء الجنجاويد بزيارة الشيخ زكريا ويبلغه القرار قائلا :

- اي نوع من البشر انتهم ! رفضتم الهجرة مهما فعلنا بكم , و لم تعادوننا . لقد اقتنعنا نحن تماما بانكم اناس طيبون . لقد غلبتمونا بتصرفكم هذا . اانا نعدكم بانكم سوف لن تلاقوا اي مكروه منا , وستجدوننا ندافع عنكم عندما يهاجمك طرف اخر .

بهذا اليوم التاريخي انتهت حرب الاخوة في امشالايا و انتهت التهديدات التي تعرضت لها امشالايا .انه حقا يوم عظيم .

هذا اليوم هو اليوم الذي عرف فيه الاخ الظالم ظلمه لاخيه كما انه نفس اليوم الذي تخلصوا منه من قتن الشيطان . انه يوم مشهود بالطبع لكلا الطرفين . يحتفل احدهم بنصره لاتباعه الطريق القويم و يحتفل الاخر لخلاصه من طريق الشر الذي كان يتبعه .

اليس واجبانقاذ الغير المستقيمين واعادهم الى الطريق القويم اهم واجبللمستقيمين ؟ اليست هذه هي الاخوة الحقة ؟ اليس العمل على انقاذهم و تنويرهم الطريق الصحيح دون ان احساسهم بذلك افضل ؟

هذا هو الذي حصل في امشالايا انه دليل على تحقيق حلم نحلم به نحن ود يكون الكثير من البشر . في الحقيقة فان هذا دليل قاطع على انتصار الحسنات على السيئات وبالامكان تطبيقه في هذه الدنيا .مختبر يثبت بان هذا ممكن .

لقد حققت امشالايا نصرا عظيما ... دون اراقة دماء , و دون الاضرار باحد .بتحملها الالام ,بتفانيها , بمقابلتها السيئ بالحسنى , واستمرارها بالدعاء , توكلت امشالايا على الله وحققت نصرا لا مثيل له .

الخلاص من الحصار

تنفست امشالايا الصعداء بعد وعد السلام و الامان مرة اخرى , ونجت من خطر كبير . ولولا تصرفها الحكيم و العاقل وعدم تنفيذها المطاليب لكانت تعيش الويل و الدمار كما عاشتها القرى و المدن الاخرى .

نجت من اول واكبر خطر و لكن هذا لا يعني بانها تجاوزتها تماما . انتهاء القتل و النهب و الفقر و العذاب لا يعني الخلاص الكامل انه فقط تخفيف للشدة . لان اموال المواطنين نفذت ولم يتبقى لهم اي شيئ بقوا دون مزارع و دور , لم يتبقى لديهم سوى القليل من ادوات المعيشة . وسيستمر الخطر وسيف ديموكليس مسلطا عليهم طالما الحرب الداخلية مستمرة .

بعض مراكز القوى المنزعجة من هذه التطورات و البعض من الجنجاويد ستصيدون الفرص حتما . لذا على امشالايا ان لا تترك الحيطة والحذر . سيهاجونها في اقرب فرصة سواء كانت سانحة ام غير سانحة . ولانهم على معرفة بذلك فقد زادت اواصر الصداقة مع الزمن بين القبائل ذات الاصول العربية و القبائل المحلية و ستكون امشالايا اكثر تهيئابعد الان .

يتجاوز عدد الجنجاويد الذين يمرون بالقاعدة الواقعة شمالي امشالايا العدة الاف بعض الاحيان بل ويستقرون فيها . أي بمعنى اخر نستطيع القول بان امشالايا محاصرة من قبل قوات الجنجاويد .

القوات التي تستخدم القاعدة عند خروجها تسبب اضرارا بالغة للبلدة حيث يدوسون على المزارع ويدمرونها . تسحق المزارع تحت حوافر و خفف مئاة الخيول والابل .

من الصعوبة جدا التفاهم مع هذه القوى المتمالية لاستخدام السلاح . كان الاهالي مجبرون على ادامة حياتهم بما يستطيعون انقاذه من هذه المزارع. لقد بلغوا حدا خطيرا من الفقر وفقد حتى الاغنياء منهم اموالهم. الاهالي مستمرون في صبرهم و كفاحهم لاجل لقمة العيش. لقد بلغت الامور والالام والعجز حدا لا يطاق . وفي حالة استمرار الحالة عدة سنوات اخرى سيعيشون تحت تهديد الجوع القاتل .

رئيس القبائل العربية الذي لعب دورا بارزا في حماية امشالايا وشهد حالتها هذه اقتنع بانه لا يمكن للمشكلة ان تستمر و لا يجب ان تشهد المدينة اضرارا اكثر و وعد بانه سيؤدي ما عليه لترحيل جميع افراد الجنجاويد من القاعدة .

اتخاذ القرارات في التجمعات المسلحة التي قد نستطيع نعتها بالجيش وتطبيقه صعب عادة . ذوي الطباع المعرضة و الذين لا يقبلون الانصياع عادة يقومون بتوليد المشاكل . الامر لا يفرق هنا ايضا . لقد خاطر الرئيس و طالب يتغيير مكان تلك القاعدة العملاقة .

آمن الرئيس بامشالايا قبل الجميع و تكفلها و حماها واصبح لها درعا يحميها من مئاة بل الاف الجنجاويد واجبرهم على الموافقة على قراره . نطرا لانه في وضع قوي و منزلة عالية و قبيلة كبيرة فلم يعترضه احد ولكنه لاقى صعوبة هذه المرة . لن توافق المعارضة هذه المرة بسهولة على قراره . فعندما جمع الرئيس بعض قادة الجنجاويد وتحدث عل الاضرار التي اصابت البلدة و استمراريتها بدأوا هم بسرد شبهاتهم :

- لقد اقنعتنا بان البعض من سكان امشالايا اناس طيبون. ولقد لمسنا طيبتهم و تصرفاتهم . ولكن رغم هذا هل نضمن عدم قيام البعض منهم باثارة المشاكل و دعم العصاة او حتى مهاجمتنا . و لاننا لانمتلك اي دليل يفند قناعتك و معارضتك فلم لاجله لم نعترض عليك ولكنك الان تطلب تغيير مكان القاعدة . فاذا ما تركنا المكان من الذي سيراقب المنطقة .
- لم كنت ارى اي داع او حاجة لمراقبة المنطقة لما كنت اتعامل معهم بامان و لن كنت اتعهد حمايتهم , ولكت هؤلاء الاناس علمونا من جديد باننا اخوان و تعاملوا معنا باحسان رغم كل شيئ . تعاملوا كل حين بطيبة حتى في احنك الضروف . لا اضن ابدا سيسيئون التعامل معنا بعد الان .
- حتى وان افترضنا عدم حدوث اية حوادث كيف نستطيع نقل كل هذه الاعدعد الكبيرة و نقل التجهيزات , كيف يكون ذلك .
- طبعا انا على علم بكل هذا . الامر ليس بهذه السهولة , انه عمل صعب و لا يمكن حله بسهولة .بامكاننا حل المالموضوع بالتحادث و التفاهم . قبل كل شيئ سنضع ارادتنا . ومن ثم نقرر متى و الى اين نقرر.
- قبل ان نكشف عن ارادتنا بهذا الامر سيحاول الجميع معرفة الطريق الذي سنسلكه .و نظرا لعدم تخطيطنا لعملية النقل فسينزعج الكثيرون منا من الحالة .
- في الحيقة فان الامر غير معقد كثيرا . و نظرا لخلو المنطقة من الحوادث الامنية فسيتم تحديد مكان او اماكن اخرى انسب ونذهب اليها . سيكون الكل احرار في قراراتهم , فاللذي يرغب بالذهاب الى المقر الجديد يذهب و الذي يود الرجوع الى اهله يرجع . هذا ما اختتم به الرئيس اقواله .

هذا اللقاء الذي لم يتم فيه اتخاذ القرار القاطع و لكنه شهد فرض الرئيس ارادته على الاقل وبنفس الوقت قدم للجنجاويد فرصة لتقييم الاوضاع . بعد هذا اللقاء التشاوري توقع الرئيس نتائج اكثر ملائمة . و لكن البعض من الجنجاويد الذين لم يقتنعوا للامر استمروا في اعمالهم

الطائشة دون اي تغيير . اما المعتدلين و الرغبين بالتفاهم فبقوا صامتين لا يحركون ساكنا لحل المشكلة . مما تسبب بعدم نقل القاعدة و عدم اتخاذ التدابير الحازمة لمنع تعرض امشالايا لاضرار .

في هذه الحالة آمن الرئيس بان عليه ضرورة اتخاذ القرار القاطع , قام بجمع كبار مسؤولي الجنجاويد مرة اخرى واعلن بان " ارواح واموال امشالايا و قراهاامانة في اعناقه " مطالبا اياهم بالتصرف على هذا المنطلق و تطبيقة بالشكل المطلوب .

عقائد العشائر في دارفور تشير الى ان اي اعتداء على الذي اعطى له الامان يعني اعلان حرب على القبيلة التي منحته الامان . في هذه الحالة فقط يتم القضاء على التصرفات الفردية الغير المسؤولة . الاضرار بامشالايا كان سيفتح امامهم حربا كبيرة فيما بينهم . ونظرا لعدم وجود سبب جاد للوقوع بمثل هذا الخطر لم يبق امامهم سوى " ترك القاعدة " .

هذا الانذار الذي قدمه الرئيس يعني بحد ذاته انقاذ امشالايا من الحصار بمعنى اخر النصر العظيم الثاني لامشالايا .